دكتور
محمد حسيني أبو سعدة
كلية الآداب - جامعة أسيوط

الوجود والخلود

في فلسفة أبي البركات البغدادي

القاهرة
الطبعة الأولى ـ ١٩٩٣

الدكتور
محمد حسينى أبو سعدة
كلية الآداب - جامعة أسيوط

الوجود والخلود

فى فلسفة أبى البركات البغدادى

القـاهرة
الطبعة الأولى - ١٩٩٣

الاهـــــداء

إلى زوجتي ...

شاركتني مسيرة الكفاح في سبيل العلم

واعطت فاجزلت العطاء

وتفانت كأجمل ما يكون التفاني

محمد أبو سعده

« ان علينا للهدى ، وان لنا للآخرة والأولى »

(صدق الله العظيم)

« سورة الليل : ١٢ – ١٣ »

مقدمة

إن تقييم حملة الغزالى النقدية على الفلسفة الاسلامية فى ثوبها المشائى بزعامة ابن سينا فى المشرق العربى فى أواخر القرن الخامس وأوائل القرن السادس الهجرى ، يحتاج الى إعادة نظر وتقييم جديد لها فى ضوء دراسات جادة متعمقة فى جوانب التراث الفلسفى العربى والاسلامى الذى واكب تلك الحملة ، والجديد منه الذى ظهر على مسرح الحياة الفكرية فى العصور اللاحقة • لقد كان شائعا حتى عهد قريب ، وربما مازال مستقرا فى أذهان بعض الباحثين والمفكرين الاسلاميين المعاصرين أن هذه الحملة النقدية الغزالية كانت نكبة قاصمة للفكر الفلسفى الاسلامى من حيث ضيقت الخناق على الفلسفة فى المشرق العربى وأجبرتها على الهجرة الى المغرب العربى لتجد فيه مهربا وملاذا ، حيث سارع الى نجدتها واحتضانها فلاسفة المغرب أمثال ابن باجة وابن طفيل وابن رشد •

وأصحاب هذا الرأى ــ فيما أعتقد ــ لا يصدرون فى رأيهم هذا عن نظرة متعمقة شمولية تستوعب ما كان من تيارات فكرية كلامية وفلسفية إبان تلك الحملة وما ظهر من هذه التيارات بعدها مباشرة أو على مدى بعيد • فنظروا الى السطوح دون أن يغوصوا فى الأعماق ، والى ظاهر الواقع الفكرى والثقافى دون باطنه ومحتواه ، متأثرين فى هذه النظرة بما أحدثته الحملة بفعل أحكام الغزالى بتكفير الفلاسفة فى بعض المسائل ، من ضجة بلغت حد الثورة الدينية على مستوى علماء الدين والعامة ضد

الفلسفة وأهلها ، وما نتج عن ذلك من ازدهار الفكر الدينى فى ثوبه السنى الأشعرى بصفة خاصة من حيث كان الغزالى رائد الحملة مفكرا أشعريا •

وفى ظل هذه النظرة المحدودة التى يغلب عليها الطابع الانفعالى بالآثار الظاهرية للحملة غامت الرؤى ، وغاب الوعى بالآثار الحقيقية التى نجمت عن الحملة ، فلم تعد العين ترى إلا ما شاع من حقد وكراهية للفلسفة وأصحابها ، ومن ثم توارت وراء هذه الحجب تلك الآثار الايجابية التى كانت تعمل بفاعلية تحت السطح ، وتتدافع وتنمو وتتطور لتثمر تيارات فلسفية جديدة ذات مضامين جديدة تغلب عليها النزعة النقدية ، وتشيع فى تدفقاتها روح التجديد والابتكار ، إن فى المنهج أو فى المذهب •

ولسنا نوافق هؤلاء الباحثين والمفكرين فيما ذهبوا اليه بخصوص هذه الحملة وآثارها • وإنما الرأى عندنا هو أن ايجابيات هذه الحملة كانت أكثر كما وأشد أثرا وفاعلية من سلبياتها على صعيد الفكر الفلسفى بصوره المتعددة • إن التقييم الحقيقى لحملة الغزالى من وجهة نظرنا يتمثل فى عدة نقاط أهمها :

١ ـ إن نقد الغزالى العنيف لم يكن فى جوهره إلا نقدا عقليا فلسفيا أثرى به الفكر الفلسفى الاسلامى ، ومن ثم فلم يكن موجها الى كل فكر فلسفى بكل مضامينه وأبعاده وتصوراته ورؤاه ، أيا ما كان هذا الفكر ، ومهما كان مصدره إسلاميا أو غير إسلامى ، وإنما كان النقد موجها بالمقام الأول الى الفكر الفلسفى الذى ينتسب الى أرسطو وإلهياته بالذات ، والذى تأثر به المشاؤون المسلمون وخاصة الفارابى وابن سينا ، حيث وجد الغزالى أن ابن سينا ـ متأثرا بأرسطو ـ قد ذهب الى آراء وأفكار صريحة فى مخالفتها لبعض أصول العقيدة الاسلامية ومستوجباتها مثل القول بقدم العالم وأزليته وإنكار علم الله تعالى بالجزئيات الحادثة ، وإنكار المعاد الجسمانى أو بعث الأجساد فى الآخرة • ولذلك نرى أن الغزالى نفسه لا يجد غضاضة فى أن يأخذ بكثير من آراء ابن سينا فى الطبيعيات ، وخاصة

ما يتصل منها بالنفس الانسانية من حيث وجودها وماهيتها وصلتها بالجسم وخلودها ، كما يأخذ ببعض آراء ابن سينا فى الأخلاق وفى الألوهية .

وعلى هذا ، فإن الحملة إذا كانت قد ضربت الفلسفة الأرسطية ومن تأثر بها من فلاسفة الاسلام ، فقد أدت بالضرورة الى انحسار التيار الأرسطى بوجه عام ، وبالمقابل فتحت الباب على مصراعيه لتدفق التيار الأفلاطونى قديمه وحديثه ، الذى حظى بما يحمله فى طياته من نزعات روحية وصوفية بتأييد كثير من مفكرى الاسلام من انصار الفكر الفلسفى الاشراقى أمثال أبى البركات البغدادى (ت ٥٤٧ هـ) وشهاب الدين الهرورى (ت ٥٧١ هـ) وغيرهم من دعاة التصوف الفلسفى أمثال ابن عربى وابن سبعين ، على اختلاف بين هؤلاء جميعا فى درجات التأثر بهذا التيار وروافده .

٢ ـ وكان من ايجابيات الحملة النقدية للغزالى ، ما تمخضت عنه من سيادة النزعة النقدية البناءة لدى مفكرى أواخر عصر الغزالى وما بعده ، من المتكلمين والفلاسفة والصوفية .

فعلى صعيد الفكر الكلامى ، نلاحظ أن حملة الغزالى قد دعمت وأسهمت فى خلق نزعات نقدية بدت أوضح ما تكون لدى انصار المذهب الأشعرى حيث هيأت لهم الحملة مناخا ملائما تنتشر فى ظله أفكارهم وأصول مذهبهم ، كما ضمنت لهم مشروعية مواصلة الهجوم والنقد لكل المذاهب والآراء المخالفة لمذهبهم خصوصا وأنهم اعتبروا أنفسهم الممثلين الشرعيين لمذهب أهل السنة والجماعة . وبعد أن كانت حركة الفكر النقدى عند الأشاعرة قبل الغزالى تتوجه فى الأساس نحو مذاهب مخالفيهم من متكلمى الاسلام وخاصة المعتزلة والكرامية والباطنية ، ومن فرق غير المسلمين كالدهرية والثنوية والبراهمة واليهود والنصارى ، صارت حركة النقد الأشعرية بفعل تأثير حملة الغزالى وعند من جاء بعده ، أكثر شمولا وأوسع

مجالا حيث شملت المتكلمين والفلاسفة وخاصة ابن سينا ، نلحظ ذلك مثلا عند الشهرستاني الأشعرى (ت ٥٤٨ هـ) حيث نجده ينتقد المتكلمين والفلاسفة المشائين فى « نهاية الاقدام » ويخصص لنقد فلسفة ابن سينا كتابا مستقلا هو « مصارعة الفلاسفة » ركز فيه على نقد فلسفة ابن سينا الالهية وكادت هذه الفلسفة أن تنهار تحت ضربات الشهرستانى العنيفة(١) •

ثم بلغ الفكر النقدى الأشعرى مداه عند فخر الدين الرازى (ت ٦٠٦ هـ) ، ولئن كان سيف الدين الأمدى (ت ٦٣١ هـ) وعضد الدين الايجى (ت ٧٥٦ هـ) وغيرهم من الأشاعرة قد اعتنقوا اتجاهات نقدية أيضا ، إلا أنها كانت أقل شمولا وأضعف أثرا من مثيلاتها عند الشهرستانى والفخر الرازى • وإذا كان هؤلاء من أشاعرة المشرق ، فإن المغرب العربى قد حفل أيضا ببعض الأشاعرة ذوى التوجهات النقدية ، ونذكر منهم محمد بن تومرت (ت ٥٢٤ هـ) وأبا بكر بن العربى (ت ٥٤٣ هـ) ثم ابن خلدون (ت ٨٠٨ هـ) • وكانت هذه الاتجاهات النقدية امتدادا لحملة الغزالى النقدية وأثرا من آثارها الايجابية •

٣ ـ أما على صعيد الفكر الفلسفى ، فإن حملة الغزالى قد أسهمت بقدر كبير فى ظهور فلسفات نقدية ذات مضامين جديدة وأصول ورؤى جديدة تخالف مضامين وأصول الفلسفة المشائية الاسلامية ، وتقترب فى توجهاتها من الموروث الأفلاطونى بقدر ما تبتعد عن الموروث الارسطاليسى الذى قوضت حملة الغزالى معظم أصوله الاعتقادية • ولعل أهم هذه الفلسفات النقدية والجديدة ، ما نجده لدى أبى البركات البغدادى (ابن ملكا) (ت ٥٤٧ هـ) وشهاب الدين السهروردى (المقتول) .

---

(١) كان موضوع رسالتنا للدكتوراه منذ عدة سنوات هو « موقف الشهرستانى النقدى من آراء الفلاسفة والمتكلمين » ومازالت الرسالة فى صورتها الخطية بمكتبة جامعة القاهرة •

(٥٨٧ هـ) وابن الفارض وغيرهم ممن كانت فلسفاتهم ذات طابع نقدى متميز ، وتتضمن أفكارا وأصولا جديدة مغايرة لما كان شائعا قبلها من فلسفات • وكذلك ما نجده من التصوف الفلسفى لدى ابن عربى وابن سبعين •

ولما كان أبو البركات البغدادى سابقا على هؤلاء جميعا بزمانه وبفكره معا ، فقد استحق أن يكون محط أنظار الباحثين المعاصرين ، خصوصا وأن عناصر الجدة والابتكار فى منهجه وفى فلسفته ، وبروز الاتجاه النقدى الذى به يفند معظم وأهم المذاهب التى سبقته ، قد ألقت بانعكاساتها المؤثرة على مذاهب وفلسفات مفكرى الاسلام الذين ظهروا بعده إن فى المشرق أو فى المغرب •

وتقتضينا الأمانة العلمية أن نشير الى أن هناك دراسات وبحوثا قد سبقتنا الى تناول جانب أو أكثر من جوانب فلسفة أبى البركات الطبيعية والالهية(١) • لكننا عندما اطلعنا عليها جميعا لم نجد فى أى منها معالجة ضافية ودراسة مستوعبة لقضية هامة من القضايا التى عرض لهـا

---

(١) من أهم تلك الدراسات ، دراسة جادة متعمقة فى فلسفة أبى البركات ، قام بها الأستاذ الدكتور / محمد جلال شرف وضمنها كتابه « المذهب الاشراقى بين الفلسفة والدين فى الفكر الاسلامى » وخصص لها الباب الأول من ص ٢١ ــ ٨٤ ، وقد اهتم المؤلف بإبراز الجوانب الصوفية الاشراقية فى فكر أبى البركات واعتبر أبا البركات من مؤسسى المذهب الاشراقى فى الفكر الاسلامى •. وهناك دراسة متعمقة أيضا لأستاذنا الدكتور يحيى هويدى موضوعها « نقد أبى البركات البغدادى لنظرية ابن سينا فى النفس والعقل » ضمنها كتابه« دراسات فى علم الكلام والفلسفة الاسلامية » من ص ٢٧٩ ــ ٣٠٧ ، وهى دراسة نقدية مقارنة تتناول أهم المسائل المتصلة بالنفس ، غير أن المؤلف لم يفصل القول فى مسالة الخلود وأحوال النفوس فى عالم الخلود • ومن البحوث الأكاديمية التى كتبت فى فلسفة =

أبو البركات ، ومثلث محور الارتكاز فى فلسفته الالهية ، ألا وهى قضية « الوجود والخلود » صحيح أن بعض هذه الدراسات بما هى فى معظمها تاريخ للفكر الفلسفى الاسلامى ، قد تناولت جانبا من هذه القضية ، لكنها كانت تناولات سريعة اقتضتها موضوعات كل دراسة وطبيعتها ، وتعدد الشخصيات التى تناولتها الى جانب أبى البركات • وحسب هذه الدراسات السابقة أنها تمثل جهدا لا ينكر لأصحابها من الأساتذة والباحثين ،وأشهد أننى أصبت من بعضها شيئا من الفائدة ، لكن أعظم فائدة من تلك الدراسات هى أنها آكدت عندى العزم على القيام ببحث خاص شامل مستوعب لقضية « الوجود والخلود فى فلسفة أبى البركات البغدادى » مقدما لذلك بالحديث عن منهجه « منهج الاعتبار » من حيث مفهومه ودلالاته ودعائمه وأهم خصائصه ، وهو مالم يتعرض له أحد من قبلنا فيما نعلم •

وقد حاولنا فى بحثنا هذا ، أن نعرض لموضوع « الوجود والخلود فى فلسفة أبى البركات البغدادى » بمنهج يعالج ما أعرضت عنه أو أغفلته الدراسات السابقة أو عرضت لجوانب تتصل به فى عجالة لا تكشف بدرجة

= أبى البركات،رسالة علمية تقدم بها زميلنا المرحوم الدكتور/ صبرىعثمان لنيل الدكتوراه من جامعة القاهرة عام ١٩٨٢م تحت اشراف أستاذنا الدكتور / محمد عاطف العراقى ، وكان موضوعها « الفلسفة الطبيعية والالهية عند أبى البركات البغدادى » وموضوع الرسالة واتساعه وتعدد مسائله اضطر الباحث الى أن يكتفى بذكر أهم آراء أبى البركات فى كل مسألة وبعض أدلته ، غير أن الرسالة لم تتضمن من المقارنات والآراء النقدية للفيلسوف قدرا كافيا فى نظرنا ، وأيضا ، فقد عرض الاستاذ الدكتور / سامى نصر لطف لدراسة بعض جوانب فلسفة أبى البركات فى الجزء الأول من كتابه « نماذج من فلسفة الاسلاميين » من ص ٣٣٧ ــ ٤٧٣ ، والدراسة فى معظمها نصية أى تعتمد على ايراد النصوص العديدة ، ولا تعالج قضية الوجود والخلود فى فلسفة أبى البركات بالقدر الذى يشبعنا ويكشف بالقدر الكافى عن موقف الفيلسوف من هذه القضية •

كافية عن فكر أبي البركات وفلسفته في هذا الموضوع • ووفقا لفهمنا لنصوص الفيلسوف وتأويلاتنا لبعضها أحيانا ، ومقارنتها بعضها ببعض ، وبغيرها من الآراء التي سبقته ، فقد أدى ذلك الى أن نقول بآراء تخالف كثيرا من الآراء التي تضمنتها بعض الدراسات السابقة ، على أننا لم نكتف بمجرد عرض آراء الفيلسوف في كل مسألة تتصل بالموضوع ، والا وقعنا فيما نحذر من الوقوع فيه وهو أن تكون الدراسة افقية مسطحة خالية من العمق ، ومن ثم حاولنا دائما وبقدر ما وسعنا الجهد ، أن نبرز آراءه التقريرية والنقدية في كل مسألة ونقارنها بما سبقها من آراء ، ثم نكشف عن انعكاساتها وآثارها فيمن جاء بعده من مفكري الاسلام •

واذا كانت بعض الدراسات السابقة قد حاولت تصنيف أبي البركات ، فاعتبرته بعض الدراسات فيلسوفا إشراقيا ، ومال بعضها الآخر الى وضعه في مصاف الأشاعرة المتأخرين ، فقد نأينا بأنفسنا عن هذا التصنيف ، وذلك لأننا نعتبر أبا البركات صاحب فلسفة نقدية ذات طابع تجديدي إن في المنهج أو في المذهب ، وهي فلسفة تمثل بذاتها مرحلة متطورة للفكر الفلسفي الاسلامي بما هو فكر فلسفي ، ولا يعني هذا أنها مقطوعة الصلة تماما بما سبقها من فكر كلامي أو فلسفي أو صوفي ، وإنما نجد فيها الحد الأدنى من تأثر اللاحق بالسابق ، والحد الأقصى من التجديد ومواءمة روح العصر الذي ظهرت فيه بما فرضته ظروف ذلك العصر الثقافية والعلمية والدينية ، على ما سيتضح لنا من أول البحث وحتى منتهاه •

ولسنا ندعي أننا بهذا البحث قد نبلغ الغاية التي تسد الطريق أمام كل بحث بعده ، وإنما فقط يمكننا أن نزعم أننا سنحاول ببحثنا هذا تقديم رؤية جديدة تلمسنا أهم أبعادها من خلال دراساتنا الاستطلاعية في مؤلفات أبي البركات وخاصة كتابه « المعتبر » ولكل باحث جهده ورؤاه • وفي اعتقادنا أن الدراسات والبحوث العلمية تتكامل فيما بينها بما يحقق التواصل الفكري ويدعم مشروعيته ، وفي هذا ما يضمن لنا استمرارية

البحث والدراسة فى التراث العربى والاســـلامى إحياء وتجـديدا وتأصيلا وإبرازا للجونب المضيئة فيه ، وتنقيحا له مما علق به من الشوائب بفعــل الزمن وتقادم التاريخ ، أو بفعل المغرضين الذين يحاولون أن يهيلوا التراب دائما على هذا التراث ويدعون الى طرحه جانبا بدعوى المعاصرة ، وهيهات أن يبلغوا مآربهم لأن التراث هو الجذور والأصول والمقومات الثوابت لهويتنا الثقافية والحضارية ، ومثل هؤلاء فيما يبتغون كمثل الباسط كفيه الى الماء ليبلغ فاه وما هو ببالغه •

وقد اقتضت طبيعة البحث وموضوعه أن يتضمن أربعة أبواب ذات فصول • عرضنا فى الباب الأول ل « أبو البركات ومنهجه » واشتمل الباب على فصلين أولهما : أبو البركات فى عصره ، والثانى : الاعتبار منهج أبى البركات ، أما الباب الثانى فيعرض « وجود الله واجب الوجود » ويحتــوى ثلاثة فصول ، أولها : إثبات وجود الله ووحدانيته ، والثانى ، خاص بصفات الله، والثالث يوضح « الغائية فى أفعال الله » • أما الباب الثالث فنبحث فيه « وجود العالم » عند أبى البركات ويضـــم فصلين : أولهما ، بيـــان نقد أبى البركات لمذاهب السابقين فى وجود العالم ، والثانى نعرض فيه لمذهب أبى البركات فى وجود العالم • أما الباب الرابع والأخير ، فخصصناه لبحث « الخلود » فى مذهب أبى البركات • وقد احتوى فصلين : أولهما ، إثبات وجود النفس وحدوثها ، والثانى ، موقفه من خلود النفس •

وعـلى الله قصـد السـبيل

البـاب الأول

أبو البركات ومنهجه

ويشـــتمل عـلى فصـلين :

الفصـل الأول : أبو البركات فى عصـره

الفصـل الثانى : الاعتبار منهج ابى البركات

الفصل الأول

أبو البركات فى عصره

ويشتمل على :

اولا : عصر ابى البركات

ثانيا : سيرته

ثالثا : واقعة إسلامه

رابعا : آثاره

اولا ـ عصر أبى البركات :

لو شئنا أن نؤرخ للعصر الذى ولد فيه أبو البركات البغدادى وقضى سنى حياته بين ظهرانيه ، لكان دافعنا الى ذلك هو محاولة الكشف عن الاطار الحضارى الذى نشأ فى كنفه وتربى فى أحضانه ، ومن ثم يتضح لنا مدى التأثر والتأثير المتبادلين بين شخصية الفيلسوف وفكره ، وبين المؤثرات الحضارية السياسية والثقافية والعلمية ، كما يظهر لنا الى أى مدى كان فكر فيلسوفنا مرآة صادقة تعكس روح العصر وتفاعلها مع شخصيته ومقوماتها الموروثة والمكتسبة من جانب كما تكشف لنا الى أى حد أمكن له أن يستوعب التراث العلمى والفلسفى والدينى الذى آل اليه فى عصره ، وكيف تجاوزه الى حيث أضاف اليه من عنده ما قدر عليه من تجديد وإبداع وابتكار •

ومن هذا المنطلق ، فسوف نعرض هنا لأهم مظاهر الحياة السياسية والعلمية والفكرية فى العصر الذى نشأ فيه أبو البركات ، وهو ذلك العصر الذى يستغرق حقبة تاريخية تبدأ من منتصف القرن الخامس للهجرة تقريبا وتنتهى عند بدايات النصف الثانى من القرن السادس • وهو العصر الذى يسميه المؤرخون بعصر نفوذ السلاجقة (٤٢٩ هـ ـ ٥٥٢ هـ) والذى يكتنفه بحسب التاريخ والتبعية السياسية العصر العباسى الرابع آخر عصور الدولة العباسية •

١ ـ أهم مظاهر الحياة السياسية فى ذلك العصر :

كان العالم الاسلامى فى ذلك العصر تتنازعه قوى مختلفة وتتزعمه ثلاث خلافات هى : الخلافة العباسية فى بغداد وهى تعتنق المذهب السنى وتدعو له • والخلافة الفاطمية فى القاهرة وهى على المذهب الشيعى وتعمل على تقويته ونشر نفوذها المنافس لخلفاء بغداد ، حتى خارج حدودها • ثم الخلافة الأموية فى قرطبة بالمغرب العربى ، غير أن الخلافة العباسية كانت قد وصلت الى درجة من الضعف جعلت الخليفة العباسي فى بغداد لا يتمتع فى البلاد الاسلامية الواقعة فى نطاق دولته إلا بالولاء الروحى فقط ، حيث

كان النفـوذ الحقيقى للبويهيين فى العـراق وفارس والرى وهمـذان ، وللغزنويين فى شمال الهند وخراسـان وبلاد ما وراء النهر ومناطق من إيران(١) ·

ومنذ أواخر القرن الرابع وأوائل القرن الخامس الهجرى . بدأ نجم كل من البويهيين والغزنويين فى الأفول ليظهر نجم السلاجقة فى أفق الخـلافة العباسية منذ عام ٤٢٩ هـ وظل يقوى ويتنامى تباعا حتى عام ٥٥٢ هـ · وكان من أوائل سـلاطين السـلاجقة الأقوياء السلطان الب أرسلان ثم السلطان ملكشاه من بعده · وبموت ملكشاه ووزيره نظام الملك عام ٤٨٥ هـ دخلت الدولة السلجوقية مرحلة جـديدة من تاريخها ، اتسـمت فيها بشىء من الضـعف وكثير من الانقسـامات · وبدأ الصراع يحتـدم بين آل البيت السلجوقى على السلطة ، وانتهى بغلبة السلطان بركيارق حيث اعتلى عرش السلطنة أوائل عام ٤٨٧ هـ بموافقة الخليفة العبـاسى المقتدى الذى كان أبو البركات يعمل طبيبا خاصا له · غير أن المقتدى ما لبث ان قضى نحبـه وتولى ابنه المستظهر أمر الخـلافة من بعده · ويذكر ابن أبى أصـيبعة أن أبا البركات ظل يعمل طبيبا خاصا للخليفة المستظهر كما كان طبيبا لأبيـه المقتدى من قبل(٢) ·

وقد أدى الصراع على الحكم بين رجال البيت السلجوقى قبـل تولية السـلطان بركيارق وبعد توليته ووفاته ، الى ضعف سلطة السـلاجقة والخلافة العباسـية بالتبعية ، مما جعـل الفاطميين يحاولون اسـتعادة سيطرتهم من جديد على ما كانوا قد فقدوه من قبل من مدن الشام(٣) · وقد

---

(١) بارتولد : تاريخ الحضارة الاسلامية ، الترجمة العربية ، ص ٥٤ ، د· عبد النعيم حسنين : سلاجقة إيران والعراق ، ص ١٢ ، القاهرة ، ط ١ ·

(٢) ابن أبى أصيبعة : طبقات الأطباء ، جـ ٢ ص ٢٠٤ ·

(٣) د· محمد جمال سرور : النفوذ الفاطمي في بلاد الشام والعراق ، القاهرة ، ط ١ ، ص ٦٥ ·

نتج عن هذا وذاك ، ظهور تيارين من أعتى التيـــارات التى تهددت الدولة السلجوقية والخلافة العباسية على السواء ، أما أحدهما فهو تيار الحملة الصليبية التى بدأت منذ عام ٤٩٠ هـ على بلاد الشام ، واستطاعت بعـد عدة ســنوات أن تســـتولى على بعض مناطق من فلسطين وبلاد الشـــام وســواحلها(٤) • وأما التيـــار الثانى ، فكان تيـــار الباطنية • حيث كان الاسماعيليون قوة سياسية لا يستهان بها ، وان لم تكن لهم ساحة معينة مجتمعة يمارسون فيها نشاطهم السياسى الذى بدأ فى هذه الفترة يتجاوز أسوار قلاعه ويمتد خارج حصونه(٥) •

وبفضل معـونة الخليفة الفاطمى بمصر وتأييـــده ، وبفضل العلماء المبرزين من دعاة هذا التيار مثل الحسن الصباح صـاحب قلعة « الموت » وأحمد بن عطاش صـاحب قلعة « دركوه » الواقعـة قرب مدينة أصبهان ، استطاع هذا التيار أن يغطى معظم بلاد فارس والديلم والجبل ، ويتخذ من الفتن والاغتيالات روافد تغذى مسيرته وتقوى اندفاعاته • وظل هذا التيار الباطنى بمده وجزره ينخر فى أســاس الدولة العباسية ويســـتغرق قوى السلاجقة حتى غدا من أهم العوامل التى أدت الى نهايتها فيما بعد(٦) •

وكان على سلاطين السلاجقة الذين أتوا بعد بركيارق أن يواجهوا خطر التيار الباطنى فى الداخل وخطر التيار الصليبى الوافد من الخارج • وقد أمكن لهم خلال سنوات قليلة أن يكسروا شوكة الباطنية ويحدوا من نشاطهم

---

(٤) أبو الفدا : المختصر فى أخبار البشر ، جـ ٢ ص ٢١٠ ، ابن كثير ، البداية والنهاية ، جـ ١٢ ، ص ١٦٣ •

(٥) بارتولد : تاريخ الحضارة الاسلامية ، الترجمة العربية ، ص ٨٤ •

(٦) الراوندى : راحة الصـــدور ، ص ٢٢٣ من الترجمـة العربيـة القاهرة ١٩٦٠م ، ابن الأثير : الكامل ، جـ ٨ ، ص ١٦١ •

فينحسروا داخل قلاعهم ، غير أنهم لم يستطيعوا ذلك بالنسبة للصليبيين إلا بجهد جهيد وبعد سنوات طويلة(٧) .

وتجدر الاشـــارة الى أنه فى عام ٥١١ هـ توفى السلطان السلجوقى محمد بن ملكشاه . وكان أبو البركات البغدادى يقوم بأمر علاجه أثنـــاء مرضه ، فلما يئس السلطان من شفائه ، اتهم أبا البركات بسوء عـــلاجه ، فحبسه مدة . فلما مات السلطان خلفه ابنه السلطان محمود الذى اتخـــذ أبا البركات وزيرا وطبيبا له أيضا . غير أن ثورة بغداد قامت ضد هذا السلطان تأييدا للخليفة العباسى المسترشد ، فقام الثائرون بالهجوم على قصر السلطان الســـلجوقى ودار وزيره وطبيبه أبى البركات ونهبـــوها . وكان ذلك عـــام ٥١٢ هـ(٨) .

ومنذ خلافة المسترشد ، وعلى مدى ما يقرب من أربعين سنة أو يزيد ، يشهد المسرح الســياسى للدولة العباســية ظهور قوتين تتبـــادلان الدور — يتجاذبهما حينا وتنافرهما أحيانا — فى تحريك أحداثه وتشكيل مواقفه وتحديد شخصياته المؤثرة . أما القوة الأولى ، فهى قوة سلاطين السلاجقة الذين تولوا الأمر خلال هذه الحقبة التاريخية . وأما القوة الثانية فتمثلت فى تلك الصحوة المتـــأخرة للخلافة العباسية المستضعفة ومحاولتها الجادة منذ عهد المسترشد أن تستعيد هيبتها وقبضتها على ناصية الأمور فى الدولة ، والحد الى أقصى درجة ممكنة من سيطرة السلاجقة ونفوذهم ، فبدأ الصراع يحتدم بين هاتين القوتين ، برغم ما كان يتهددهما معا من الباطنية الاسماعيلية والصليبيين .

وقد ظلت هذه الصراعات تظهر وتختفى على مسرح الحيـــاة السياسية ، حينا بين سلاطين السلاجقة بعضهم وبعض ، وحينا بين هؤلاء وبين الخلفاء

---

(٧) ابن كثير : البداية والنهاية جـ ١٢ ، ص ١٦٦ — ١٦٧ ، محمد عبدالله عنان : تراجم اسلامية ص ٥١ — ٥٢ .

(٨) البيهقى : تتمة صوان الحكمة ، ط شفيع ، ص ١٥٠ — ١٥٣ ، ابن كثير : البداية والنهاية جـ ١٢ ص ١٧٣ — ١٧٨ .

العباسيين ، وتارة بين السلاجقة والخلفاء فى جانب وبين الباطنية والصليبيين فى جانب آخر ، حتى اذا جاء عام ٥٥١ هـ بدأت الدولة السلجوقية فى الانهيار حيث دخلت عصرها الأخير ، عصر الاضمحلال والسقوط بعد موت السلطان سنجر أشهر سلاطينهم وأقواهم ، ثم انتهت تماما عام ٥٩٠ هـ بموت السلطان طغرل بك(٩) .

وقد عاش فيلسوفنا أبو البركات البغدادى فى هذا العصر المضطرب الزاخر بالأحداث والصراعات السياسية ، فعاصر بإدراك ووعى كاملين تلك الفترة الأخيرة لمجد السلاجقة ، والتى بدأت بحكم السلطان محمد بن ملكشاه عام ٤٩٨ هـ وانتهت بنهاية حكم السلطان مسعود عام ٥٤٧ هـ وهو عام وفاة أبى البركات .

وكان أبو البركات - كما ذكرنا - قد عمل وزيرا وطبيبا خاصا لأكثر من واحد من سلاطين السلاجقة وخلفاء بنى العباس . ونال بسبب هذه الصلة والثقة حظا وافرا من التكريم والاجلال والثراء ، إلا أنه قد أصابه لنفس السبب بعض الشرور التى كانت تلحق بهذا السلطان أو بذاك الخليفة ممن يعمل فى بلاطهم . فقد هوجمت داره ، ونهب ما فيها من ممتلكاته الخاصة وما كان فيها من ودائع للناس . كما تعرض للحبس مدة ، وللأسر الذى وقع فيه السلطان مسعود بعد ذلك حيث كان قد انتقل الى بلاط الخليفة المسترشد(١٠) . وقد أثرت هذه الأحداث المؤسفة فى نفسه تأثيرا سيئا بلا شك .

على أن ما شهده من ألوان الفتن والمحن والحروب والصراعات السياسية والدينية ، قد انعكس على نفسه وأثر فيها بدرجة تجعلنا نقول بأنه إن صح

---

(٩) محمد إقبال : فى مقدمته لكتاب « راحة الصدور » ، للراوندى ، ص ٧٠ .

(١٠) بينيس : فى مقالة بدائرة المعارف الاسلامية ، مادة « ابو البركات » ترجمة الأب قنواتى ، جـ ٦ ، ص ٤٢٨ طبعة دار الشعب بالقاهرة .

ما حكى عنه من « دهاء ومكر ومحاولته الايقاع بأعدائه ومنافسيه »(١١) ، فإن ذلك لا يرجع في نظرنا الى أصله ونشأته اليهودية بقدر ما يعد انعكاسا لروح العصر الذى نشأ فيه وقضى حياته بين ظهرانيه ، خصوصا وأن المناصب والوظائف التي شغلها كانت تجعله وهو اليهودى محطا للأحقاد والحسد وهدفا لكيد الكائدين ، كما هى عادة كثير من ضعفاء النفوس في علاقاتهم مع النابهين وذوى الشأن الرفيع .

٢ ـ أهم مظاهر الحياة الفكرية في عصره :

فى ثنايا هذا الخضم السياسى الزاخر بمختلف التيارات السياسية المتصارعة ، كانت التيارات الفكرية أيضا تضطرم فتتلاقى حينا وتفترق أحيانا وان اتخذت جميعا من الفكر الاسلامى حقلا خصيبا تتفاعل مع ما احتواه فى باطنه من تراث عربى وأجنبى ، فيتم ثراؤها به ، كما تتزايد أيضا درجات إثرائه بما تحمله هذه التيارات من آثار علمية خصيبة بفضل ما كانت ترتطم به من مذاهب متعارضة أو ما كانت تمتزج به من ثقافات أجنبية فى السلم والحرب ، فإذا بالحضارة الاسلامية إبان القرنين الخامس والسادس الهجريين تتسع آفاقها وتتعمق مواردها بعد إذ تعددت وتنوعت فى العصور العباسية السابقة ، وترتفع معدلات نمائها فتغدو فى مستوى عالمى يمنحها القدرة على التأثير والعطاء السخى الذى أصابت منه أوروبا فى العصور الوسطى أكثر مما أصابته من غيرها من الحضارات فى مجالات العلوم والفلسفة والفنون والآداب .

أ ـ كانت البلاد الإسلامية الواقعة فى ظل الخلافتين العباسية فى بغداد والفاطمية فى مصر ، تمثل مسرحا فكريا يموج بمختلف المذاهب الدينية والنظريات العلمية والفلسفية . ويظهر من بين العرب والمسلمين نوعيات

---

(١١) ياقوت : معجم الأدباء ، جـ ١٩ ص ٢٧٧ ـ ٢٧٨ ، يحكى قصة عن محاولة أبى البركات الوقيعة بمنافسه ابن التلميذ عند الخليفة المستضىء بالله ، وفشله فى ذلك .

مختلفة من العلماء والأدباء والفقهاء والمتكلمين والفلاسفة والصوفية وغيرهم ممن امتلأت بهم وبمؤلفاتهم ساحة العالم الاسلامي مشرقه ومغربه ، ومن ثم فقد حظى عصر أبى البركات بازدهار علمي وثقافي وديني لم يكن وليد الصدفة وإنما تضافرت عدة عوامل فأثمرت هذا الازدهار .

ولعل من أهم هذه العوامل ، ما حدث من تعميق وتوسيع لدائرة الامتزاج الحضارى والثقافى الذى حدث بين الأجناس المختلفة التى احتواها المجتمع الاسلامى وبين ثقافاتها وثقافة العرب والمسلمين فى ذلك العصر . فعلى سبيل المثال بدا أثر الاسلام وثقافته واضحا فى ارتقاء الفكر الفارسى وازدهاره وظهور علماء وفلاسفة مسلمين من أصل فارسى أمثال الفيلسوف ناصر خسرو (ت ٥٠٥ هـ) وأبى القاسم محمود الزمخشرى آخر فحول المعتزلة (ت ٥٣٨ هـ) ثم عمر الخيام الأديب الفيلسوف الفلكى (ت ٥٢٥ هـ) ومحمد بن عبد الكريم الشهرستانى المتكلم والناقد الأشعرى (ت ٥٤٨ هـ) ثم الامام فخر الدين الرازى الذى نعده فيلسوف الأشاعرة بلا منازع (ت ٦٠٦ هـ) ، وغير هؤلاء من الأدباء والشعراء والمتصوفة وهم كثير(١٢) .

ومن العوامل التى أدت الى أزدهار الحياة الفكرية إبان عصر أبى البركات أيضا ، ذلك الصراع الحاد الذى كان قائما بين الخلافة العباسية فى بغداد ويناصرها السلاجقة وجميعهم على المذهب السنى ، وبين الخلافة الفاطمية فى القاهرة وهى على المذهب الشيعى ، وكل من الخلافتين تدعو لمذهبها وتنتصر له. وتخصص له أمهر الدعاة من العلماء والفقهاء والأدباء وتوفر لهم مناخا ملائما لتكوين علمى مكين ، فتزودهم بالمؤلفات العلمية والمكتبات العامرة الى جانب ما تغدق به عليهم من عطايا وهبات وتشجيع أدبى أيضا .

---

(١٢) انظر : بارتولد : تاريخ الحضارة الاسلامية ، الترجمة العربية ص ٧٣ – ٧٤ ، أحمد أمين : ضحى الاسلام ، ج ١ ، ط ٥ ، ص ٢٧٧ – ٢٧٨ ، رضازاده : تاريخ الأدب الفارسى ، ترجمة محمد هنداوى ص ١٢٦ ، ص ٨٧ .

على أن الصراع بين هذين المذهبين ، لم يقف عند حدود الدعوة لكل منهما بالكلمة والمنطق والبرهان ، بل كان يتجاوز ذلك الحد أحيانا الى حيث التصادم بقوة السيف . ويذكر هنا للسلاجقة ما كان لهم من فضل في إرساء دعائم المذهب السنى ومواجهة خصومه من الشيعة خاصة . وذلك لأن السلاجقة كانوا « يعدون التشيع ضلالا ومروقا . ومن ثم رأوا أن نشر العلم والثقافة خير طريقة لتحرير عقول الناس وتنقية عقيدتهم مما علق بها من ضلال التشيع أيام البويهيين . وقد أمكن لهم أن يحققوا تفوقا للمذهب السنى في ايران منذ أواخر القرن الخامس الهجرى ، وإن لم يقدروا على إزالة الشيعة منها إزالة تامة(١٢) .

ومن جهة أخرى ، فقد أدى هذا الصراع الى إثراء الحياة الفكرية بفضل ما كان يعقد بين دعاة وعلماء السنة من الأشاعرة وبين علماء الشيعة ، من مناظرات وحوارات وجدل تتبادل فيه الانتقادات الحادة ووجهات النظر المتعارضة ، كل فريق ينتصر بها لمذهبه وينتقد المذهب الآخر مبينا ما به من عورات وضعف ، كل ذلك على أساس من النظر الحر والعلم الغزير والحجج والبراهين التي يستند اليها كل منهما فيما يذهب اليه تقريرا أو انتقادا .

وثمة عامل آخر أسهم بلا شك في ازدهار الحياة الفكرية في عصر أبي البركات ، ويتمثل في تلك الحرية الحقيقية التي كفلها الاسلام للمسلمين ولغير المسلمين ممن دخلت بلادهم تحت نفوذ الدولة الاسلامية . فقد دخلت في ظلال الحكم الاسلامي زمن السلاجقة شعوب جديدة تركية وهندية وفارسية وايرانية ورومانية ، وقد نعم الكل بحرية العقيدة وحرية الفكر ، فتعايشوا معاً في ظل هذه الحرية ناعمين بالتسامح الديني الذى أكده الاسلام لأهله ولمن دخل فيه من بعد ، كما كفله للذميين الذين بقوا على دياناتهم بعد خضوع بلادهم سياسيا للخلافة الاسلامية . » وإذا كان كثير

---

(١٢) بارتولد : تاريخ الترك في آسيا الصغرى ص ١٠٩ من الترجمة العربية ، تاريخ الحضارة الاسلامية ط ٢ ، ص ٨٣ من الترجمة العربية .

من هؤلاء ، بعد الفتوحات السلجوقية ، قد دخلوا بمحض إرادتهم فى دين الاسلام أفواجا ، فإن الباقين ظلوا أحرارا فى عقائدهم اليهودية والنصرانية ، والبوذية والمانوية • وكذلك تمتع أتباع ديانة زرادشت بالحرية الدينية الى نهاية العصر العباسى(١٤) •

وكان من مظاهر هذه الحرية أن فتحت أمام هؤلاء جميعا فرص العمل فى شتى المجالات ، وعمل بعضهم كمؤدبين ومربين لأبناء الملوك والسلاطين ، وعمل النابغون منهم ممن اشتهروا بالذكاء والقدرات العقلية الخاصة ، فى مجال العلم والثقافة والطب والفلسفة ، ترجمة وتاليفا وممارسة • ولقد ذاع صيت بعضهم لدرجة أن خلفاء العباسيين وسلاطين السلاجقة اتخذوا منهم وزراء وأطباء وأدباء فى بلاطهم • وكان منهم فى عصر أبى البركات ، على سبيل المثال ، هبة الله بن صاعد المعروف بابن التلميذ البغدادى الطبيب النصرانى (ت ٥٦٠ هـ) والذى يقول عنه ياقوت : « كان واحد عصره فى صناعة الطب ، متفننا فى علوم كثيرة ، حكيما أديبا شاعرا مجيدا • وكان عارفا بالفارسية واليونانية والسريانية ، متضلعا فى العربية »(١٥) • وكان منهم أيضا فيلسوفنا أوحد الزمان أبو البركات البغدادى الطبيب والفيلسوف اليهودى الذى أسلم فى أواخر حياته (ت ٥٤٧ هـ)(١٦) ، وتلميذه وصديقه أسحق بن ابراهيم بن عذرا(١٧) •

وأما العامل الأهم من العوامل التى أثرت بقوة فى ازدهار الحياة العلمية فى عصر أبى البركات ، فيتمثل فى تلك الصراعات المذهبية الدينية

---

(١٤) أنظر ، أرنولد : الدعوة الى الاسلام ، الترجمة العربية ط ٣ ، ص ١٨٢ •

(١٥) ياقوت : معجم الأدباء ، جـ ١٩ ، ص ٢٧٦ وما بعدها •

(١٦) البيهقى : تتمة صوان الحكمة ، ص ١٥٠ •

(١٧) بينيس : فى مقاله بدائرة المعارف الاسلامية مادة « أبو البركات » جـ ٦ ، ص ٤٢٨ دار الشعب •

والفلسفية والكلامية التى كان يموج بها ذلك العصر • وأزعم أن هذا العامل أهم العوامل جميعا لاعتبارين : أولهما ، ما أدى اليه من إثراء للحياة الفكرية وازدهارها والثاني ، هو أنا نعتبر أن منهج فليسوفنا أبى البركات ومذهبه كانا من أهم النتائج التى أسفر عنها صراع الأفكار والمذاهب فى هذه الحقبة التاريخية بحيث تعد فلسفة أبى البركات مرآة حقيقية تعكس روح العصر دينيا وفلسفيا من جانب ، وتتفاعل به ومعه لتتجاوزه الى فلسفة نقدية تجمع فى طياتها أمشاجا من معطيات العصر ، وأفكارا وآراء جديدة انصهرت مع هذه الأمشاج فولدت فلسفة اسلامية ذات طابع خاص ، وفكر فى معظمه غير مسبوق •

فخلال عصر أبى البركات ، اكتظ المسرح الثقافى والفكرى للمشرق العربى بمختلف التيارات الفكرية والمذهبية فقد كان هناك التيار السنى الهادر المتدفق المتنامى دائما ، يقابله التيار الشيعى الممزق الذى يغلب عليه فى عصر السلاجقة طابع الانحسار والتقوقع ، وقد أشرنا الى هذين التيارين من قبل • وكان الى جانبهما تيار المعتزلة يمثله أفراد من البقية الباقية من فرقتهم أمثال عبد السلام بن يوسف القزوينى بنيسابور (ت ٤٨٢ هـ) ، وأبى القاسم محمود بن عمر الزمخشرى (ت ٥٣٨ هـ) الذى كان يجاهر بمذهبه الاعتزالى ويدونه فى كتبه ويصرح به فى مجالسه ، ثم خليفته من بعده أبو الفتح ناصر بن عبد السيد الخوارزمى (ت ٦١٠ هـ)(١٨) • وكان هذا التيار أقل خطرا من الشيعة على المذهب السنى ، لما كان بين المعتزلة والسنيين من اتفاق فى بعض الأصول ، وفى انتصارهم جميعا للاسلام وعقائده ودفاعهم عنه ضد مخالفيه •

والى جانب المعتزلة ، كان هناك تيار التصوف العام ، وهو وإن كان أكثر من سابقه ذيوعا وانتشارا خصوصا فى أوليات العصر ، إلا أنه لم يكن

---

(١٨) أحمد أمين : ظهر الاسلام ، جـ ٤ ، ط ٢ ، ص ٥٣ ، ياقوت : معجم الأدباء ، جـ ١٩ ، ص ١٢٦ •

أشد منه قوة وخطرا ، لأنه اتخذ شكلا عاميا قائما على المضمون العملي ومعتمدا على ضروب من السلوك والمعاملات والمجاهدات الشخصية التي يقوم بها كثير من العامة وبعض المشايخ والشعراء والأدباء. ومن ثم خلا هذا التيار حتى أخريات القرن الخامس الهجري – من المضمون النظري العميق . فدخل فيه أناس عبثوا بمظهره البسيط وغالوا فيه وادعوا الوصول والكشف ، وأظهروا بالحيل ما يبدو كرامات ، وبالغوا في مظاهرهم حتى استطاعوا أن يتخذوا من ادعاء التصوف سبيلا للكسب والثراء ، حتى أدركهم الامام أبو حامد الغزالي فوجه التصوف وجهة جديدة ، ونقى تياره مما علق به من شوائب ، ووضع الأصول النظرية للتصوف السني ، وقوى دعائمه ، وهذب نسقه ، مما سيتضح لنا بعد قليل .

والى جانب هذه التيارات الكلامية والصوفية ، كان هناك تيار الفلسفة الأرسطية الذي يسري في طيات الفلسفة المشائية الاسلامية التي أرسى ابن سينا دعائمها بعد الفارابي . ولئن كانت هذه الفلسفة قد احتوت آثارا لأفكار وآراء أفلاطونية وأفلوطينية ، إلا أن التأثير الحاكم والفاعل في هذه الفلسفة كان للتيار الأرسطي ، حتى إذا هب إعصار الحملة النقدية العنيفة للغزالي على هذه الفلسفة وعلى مصادرها الأرسطية ، بدأ الانحسار التدريجي لهذه الفلسفة في المشرق ، فراحت تبحث لها عن مأوى وأنصار جدد ، فهاجرت الى المغرب العربي حيث تقبلها ابن طفيل وابن رشد بقبول حسن . وإذ كادت ساحة المشرق تفرغ من هذا التيار الأرسطي ، فقد بزغ نجم الفلسفة الأفلاطونية بفرعيها القديم والمحدث ، في الأفق ، وبدأ فلاسفة الاسلام ينهلون من معين هذه الفلسفة بجرعات أكبر وتناول أعمق ، مما أفادهم في بناء أنساق فلسفية جديدة تقترب من أفلاطون وأتباعه بقدر ما تبتعد عن أرسطو وأشياعه من المسلمين . وقد بدا ذلك بصورة واضحة لدى فيلسوفنا أبي البركات ، ومن بعده شهاب الدين السهروردي (المقتول) الذي نعتبره المؤسس الحقيقي للتصوف الاشراقي والفلسفة الاشراقية ، ثم

تجد هذا العزوف عن ارسطو أيضا لدى انصار التصوف الفلسفى أمثال ابن عربى وابن سبعين بعد ذلك(١٩) .

هذا التباين بين المذاهب الدينية والكلامية والفلسفية . أدى بطبيعة الحال الى صراع فكرى تدور رحاه أحيانا بين الفقهاء والمتكلمين ، وتارة بين المتكلمين بعضهم وبعض من معتزلة وشيعة وأشاعرة وطورا بين الفقهاء والمتكلمين فى جانب والفلاسفة فى جانب آخر . واذا كان الصراع بين المذهب السائد فى ذلك العصر وهو المذهب الأشعرى ، وبين الحنابلة ، وكذلك الصراع بين السنة والشيعة كان يتجاوز أحيانا حدود الجدل العنيف والحوار والمناظرات الحادة الى حيث يجر الى ساحته رجالات الدولة أحيانا ، فإن الصراع بين أهل السنة ويمثلهم الأشاعرة ، وبين الفلاسفة لم يتخذ شكلا حادا إلا فى أواخر القرن الخامس الهجرى حيث ظهر متكلم أشعرى سنى ذاع صيته هو إمام الحرمين أبو المعالى الجوينى (ت ٤٧٨ هـ) ، تـ ا الى المذهب الأشعرى ونافح عن الاسلام السنى ، وقاوم بلسانه وقلمه المذاهب المخالفة وخاصة ما ينتسب منها الى المعتزلة والباطنية والفلاسفة . فكان أول من تصاعد بالصراع وانتقل به من درجة المقت الشعبى الدفين لهذه المذاهب ، الى درجة الهجوم العلمى العلنى المقنن المدروس(٢٠) . ثم جاء الامام الغزالى (ت ٥٠٥ هـ) فسار على درب أستاذه الجوينى ، غير أنه كان فى مواجهة الفرق الثلاثة ، أعنف منه هجوما ، وأشد شكيمة وأقوى منطقا ، فوسع دائرة هؤلاء الخصوم لتشمل غلاة المتكلمين والشيعة والفلاسفة المشائين ، ومدعى التصوف .

---

(١٩) انظر د. محمد على أبو ريان : قراءات فى الفلسفة ، ط ١ ص ٧٣٦ ، ص ٧٦٤ .

(٢٠) انظر ، السبكى : طبقات الشافعية ، جـ ٣ ، ص ٢٥٢ ، ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، جـ ٥ ، ص ١٢١ .

وإذا كان هجوم الغزالى على غلاة المتكلمين والشيعة والفلاسفة ، أمر له ما يبرره من حيث إن كلا من هؤلاء قد ذهب الى آراء تعارض أصلا أو أكثر من أصول الدين وتتنـــافى مع جوهر الكتاب والســـنة ، فإن هجومه على المتصوفة مما يحتاج الى تفسير • وفى ذلك نقول بأن الغزالى لم يعترض على أصحاب الذوق والكشف من رجال التصـــوف السنى أمثال المحاســبى والقشيرى ، لأن حاصل عمل هؤلاء كما يقول فى « المنقذ من الضلال » هو « قطع عقبات النفس ، والتنزه عن أخلاقها المذمومة وصفاتها المذمومة ، حتى يتوصـــل بها الى تخلية القلب عن غير الله تعالى وتحليته بذكر الله »، وهو ما تاقت نفسه اليه دائما ، ولكنه يركز هجومه على من يدعى علم التصوف ويزعم أنه بلغ مبلغا ترقى عن الحاجة الى العبادة(٢١) • هذا بالاضافة الى من اندســـوا بين صفوف المتصـــوفين على الحقيقة من الدجالين الذين اهتموا بالمظاهر وانغمسوا فى الذكر ومظاهره ، والخرافات والأوهام وكذلك الغلاة من الصوفية الذين قالوا بالحلول ووحدة الوجود(٢٢) •

وعلى هذا ، يمكن القول بأن الحملة النقدية العنيفة التى شنها الغزالى على هذه الفرق جميعا كانت بداية لمرحلة جديدة فى تاريخ الفكر الاســلامى امتدت حتى أواخــر القرن الثامن الهجرى ، فحققت بنتائجها ثراء فــكريا وخاصة فى الجانب الفلســفى من الفكر الاســلامى ، لم تشهده العصـــور اللاحقة • ولعل من أهم نتائج هذه الحملة ، سيادة النزعة النقدية الجريئة والبناءة التى اعتنقها معظم مفكرى ذلك العصر مترسمين خطى الغــزالى ، ومعتمدين فيها على النظـــر العقلى الحر بعيدا عن قيود الوراثة المذهبيـــة ، وخروجا على الأعراف والتقاليد الفلسفية التى فرضها ارسطو زمنا ، ودعمها أشياعه من المشائين المسلمين ، وما نتج عن هذه النزعة من هدم كثير من الأصول المنهجية والمذهبية السابقة ، يقابله خلق وابتكار لأصول أخــرى جديدة ، تلك التى تبدو واضحة فى الفلسفة النقدية عند أبى البركات

---

(٢١) الغزالى : المنقذ من الضلال ، ص ١٤٠ •

(٢٢) أحمد أمين : ظهر الاسلام ، جـ ٢ ، ط ٣ ، ص ٦٣ •

البغدادي ، وفلسفة الاشراق عند السهروردى المقتول ، والتصوف الفلسفى عند ابن عربى وابن سبعين ، الى جانب النظرات والأفكار والتوجهات النقدية العلمية منها والفلسفية التي نلمسها فى فكر كل من الشهرستانى (ت ٥٤٨ هـ) وفخر الدين الرازى (ت ٦٠٦ هـ) وعضد الدين الايجى (ت ٧٥٦ هـ) من كبار الأشاعرة ، وكذلك لدى نصير الدين الطوسى (ت ٦٧٢ هـ) ٠

وعلى ذلك ، فإن قول بارتولد بأن « القرن الخامس الهجرى يعد عصر انقضاء العصر الذهبى للحضارة الاسلامية وبدء دور الانحطاط »(٢٣) ٠ قول يعوزه البرهان ، ويحتاج الى إعادة للنظر والبحث فى المرحلة التالية لهذا القرن، وهى المرحلة التى تحدثنا عنها قبلا ٠ وأشنع منه ما ذهب اليه المستشرق « براون » حين زعم — بغير حق — « أن حركة الفلسفة فى المشرق قد انتهت بموت ابن سينا، الطبيب والفليسوف المشهور(٢٤) ٠ وفى رأينا فإن هذا الحكم لا يصدق إلا إذا قصد صاحبه بالفلسفة هنا الفلسفة المشائية بالذات ، وان كان النص لا يحمل أية دلالة على ذلك ، ويكفى دليلا على خطأ هذا الحكم ما ذكرناه من ظهور فلسفات جديدة ذات مناهج جديدة ومحتوى جديد ، وفى مقدمة هذه الفلسفات فلسفة أبى البركات البغدادى كما سيتضح لنا بجلاء خلال مسيرتنا فى هذا البحث ٠

ثانيا — سيرة أبى البركات :

لم يكن فيلسوفنا أبو البركات من هؤلاء الذين سجلوا لنا سيرهم الذاتية ، كما أنه لم يجد من مؤرخى السير المعاصرين له والآتين بعده من أعطى سيرته حظها من الاهتمام اللائق بها ، اللهم إلا قليلا ٠ فبعضهم أهملها بالكلية ، والآخرون وهم قلة تعرضوا لها بإيجاز يضع الباحث فى حيرة

---

(٢٣) بارتولد : تاريخ الحضارة الاسلامية ، ص٧٩ من الترجمة العربية٠

24 - Brown : Literary history of persia . V. 1. P.293.

ومشقة تلزمانه أحيانا كثيرة اللجوء الى مقارنة الأحداث والروايات التى كتبت عنه لينتهى بضروب من الاستنتاج القائم على الاحتمال وترجيح بعض هذه الروايات على بعضها الآخر • وهو ذلك المنهج الذى اعتمدناه إن فى تحديد تاريخ مولده ووفاته ، أو فيما ذهبنا اليه بخصوص نشأته وثقافته والمؤثرات التى لعبت دورها فى فكره وفلسفته • ولكننا لم نعدم بعض النقاط التى اتفق عليها جمهرة الباحثين القدامى والمحدثين فى سيرة هذا الفليسوف •

ولئن كان مؤرخو سير الفلاسفة العرب والمسلمين ، قد اعتادوا البحث عن أصولهم والنص على أنسابهم ، اعتقادا منهم بأن لأرومة المفكر أثر لا ينكر على اتجاهه العقلى وميوله النفسية ، فإنهم فيما يتعلق بسيرة أبى البركات لم يذكروا شيئا يعتد به عن سلسلة أنسابه أو أصله ، لدرجة أن بعضهم اكتفى بذكر اسمه واسم أبيه • غير أنهم جميعا اتفقوا على أنه كان فى الأصل يهودى الديانة ثم أسلم فى شيخوخته • وهو ما يجعلنا نرجح أنه انحدر من أسرة عربية يهودية متوسطة الحال عديمة الذكر • واذا ما عرفنا أن بلاد العراق عامة ، وبغداد وما جاورها خاصة ، بل وكثيرا من بلاد ايران أيضا ، كانت مهد العديد من الأسر اليهودية التى كان عدد أفرادها يتعدى الآلاف أحيانا(٢٥) ، أمكننا تأكيد ما ذهبنا اليه من الأصل العربى اليهودى الذى انحدر منه فيلسوفنا أبو البركات •

أما اسمه فهو : هبة الله بن على بن ملكا(٢٦) • ويقف المؤرخون عند هذا الحد وإن كانوا قد ذكروا كنيته « أبا البركات » وأكثر من لقب له مثل « طبيب بغداد » و « فيلسوف العراقين » وكان هذين اللقبين بما لهما من دلالة على نبوغ صاحبهما فى الطب والفلسفة ، قد جعلاه يستحق لقبين أكثر

---

(٢٥) آدم ميتز : الحضارة الاسلامية ، جـ ١ ، ص ١٢٤ •

(٢٦) انظر : ابن أبى أصيبعة : طبقات الأطباء ، جـ ١ ، ص ٢٧٨ ، البيهقى : تتمة صوان الحكمة ص ١٥٠ ، القفطى : تاريخ الحكماء ، ص ٣٣٣ ، سليمان الندوى : مقالته بنهاية جـ ١ من « المعتبر » لأبى البركات، ص ٣٢٢ ، د• محمد جلال شرف : المذهب الاشراقى ط ١ ، ص ٢١ •

دلالة وشمولا على نبوغه ومكانته وهما « سيد الحكماء » و « أوحد الزمان » ، بل ان اللقب الأخير كان أكثر القابه شـــهرة وأخصـــها دلالة عليه بحيث لا يفارق اسمه لدى كل من أرخ له أو حتى أشار اليه ٠ وكما ارتبط اسمه بألقاب لها دلالاتها العلمية والفلسفية فقد ارتبط ايضا بلقبين آخرين لهما دلالتهما التاريخية وهما « البغدادى » و « البلدى »(٢٧) ٠

أما « البغدادى » فنسبة الى بغداد عاصمة الخلافة العباسية فى عصره ، وهى التى نرجح أنه رحل اليها فى شبابه وتعلم بها ، ثم أقام فيهـا طوال حياته ودفن فى ترابها بعد موته ٠ وأما « البلدى » فنسبة الى قرية صغيرة هى مسقط رأسه تسمى « بلد » وتقع فى أقصى الشمال الشرقى لنهر دجلة قرب الموصل وربما كانت من أعمالها(٢٨) ٠ وهى التى ولد بها الفيلسوف ، ويرجح أنه قضى بها سنوات طفولته ثم رحل الى بغداد كما ذكرنا ٠

ومهما يكن من شىء ، فإن أبا البركات نشأ فى أسرة عربية يهـودية متواضعة ، فلم ينشأ فى بيت حسب ونسب مثلما نشأ الكندى الفيلسوف ، ولا فى بيت علم وثقافة كما نشأ ابن سينا وابن رشد وهو ما يجعلنا نزعم أنه نشأ نشأة عصامية اعتمد فيها على ما وهبه الله من قدرات عقلية ونفسية مكنت له فيما بعد من أن يكون سيد الحكماء فى عصره ٠ واذا كان المؤرخون قد اختلفوا فى تحديد سنة ميلاده ، فإنا نميل الى القول بأن ميلاده كان حوالى سنة ٤٦٧ هـ ، وذلك اســـتنادا الى رواية القفطى ورواية ابن أبى أصيبعة عن الشيخ سعد الدين أبو سعيد بن أبى السهل البغدادى(٢٩) ٠

ولما كان أبو البركات قد انحدر من أصل يهودى ، فلابد أنه تلقى فى طفولته شيئا من تعاليم التوراة كحـد أدنى من الثقـافة الدينية اليهـودية

---

(٢٧) البيهقى : تتمة صوان الحكمة ص ١٥٠ ، ياقوت : معجم البلدان حـ ١٩ ص ٢٧٧ ، ابن أبى أصيبعة « طبقات الأطباء » ، جـ ١ ص ٢٧٩ ٠

(٢٨) ابن الأثير : الكامل ، جـ ١ ، ص ٥٠ ٠

(٢٩) أخبـــار الحـــكماء ، ص ٣٣٣ ، ابن أبى أصيبعة : طبقـــات الأطباء ص ٣٧٩ ، وقارن البيهقى : تتمة صوان الحكمة ص ١٥٠ ومابعدها ٠

للأسرة التى نشأ فى أحضانها ، وربما يكون قد ألم بقسط غير قليل من اللغة العبرية ، الى جانب إلمامه بنصيب وافر من اللغة العربية بحكم أنها لغة التخاطب والتعامل فى المجتمع آنذاك وباعتبـــاره وأسرته جـزءا من بيئـة عربية أصيلة ٠

ويغلب على ظننا أنه رحل الى بغداد منذ باكورة شبابه طلبا للعـــلم وسعيا لتحصيل المعارف والثقافات والعلوم التى كانت بغداد إحدى مراكزها الهامة فى عصره ٠ وقد اتخذ له دارا بمحلة اليهود ببغداد(٣٠) وهو تقليد تتبعه الأقليات المغتربة التى يجمعها دين واحد أو ينحدرون من وطن واحد أو توثق عراهم لغة وطنية واحدة ٠

ويبدو أن أبا البركات لم يدخر جهدا فى ارتياد مجالس العلم والأندية الثقافية والساحات الفكرية التى حفلت بها بغداد وغيرها من مدن العراق فى ذلك العصر ، يحدوه فى هذا حبه للعلم وحرصـــه على تحصيله ، ومداومة الحضور والاشتراك مع غيره من طلاب العلم فى المناقشات وطرح الأسـئلة والاستفســارات واختزان ما يروق له مما يســمع أو يقرأ ، خاصة وأن شخصيته ــ فيما يقول البيهقى ــ قد توفرت على قدر كبير من الذكاء والفطنة جعلته يتمتع بخاطر وقاد(٣١) ٠ وكان لهذه الملكات والاستعدادات أثرها فى إكسابه ثقة بالنفس واعتدادا بها ، كما أسهمت فى تعزيز قوة الارادة عنده ، وهو ما يبدو فى تصـــميمه وعزيمته التى لم تلن فى ســبيل الوصول الى ما يطمح اليه ، سواء فى مجال تحصيل العلم فى مستهل حياته ، أو فيما وصل اليه بعد ذلك من مناصب كطبيب وكوزير لبعض الخلفاء والسلاطين ، وأكثر من هذا ، كفيلســوف ذى فلسفة جديدة أثرت فى فـكر كثير ممن جاءوا بعده ٠

ولا تذكر المصادر عن أساتذة أبى البركات إلا أستاذا واحدا له هــو الشيخ أبو الحسن سعيد بن هبة الله بن الحسين (٤٣٦ ــ ٤٩٥ هـ) الذى

---

(٣٠) ابن أبى أصيبعة : طبقات الاطباء ، ص ٣٧٤ ٠
(٣١) البيهقى : تتمة صوان الحكمة ص ١٥٠ ٠

كان من أطباء بغداد المتميزين فى صناعة الطب ، كما كان أحد أطباء البيمارستان العضدى حيث كان يلقى دروسا هناك(٣٢) • وكان الشيخ أبو الحسن الى جانب ذلك فيلسوفا فاضلا فى العلوم الحكمية مشتهرا بها ، وذاعت له مؤلفات كثيرة طبية ومنطقية وفلسفية وغير ذلك(٣٢) •

ويبدو أن أبا البركات قد وجد فى هذا الشيخ ضالته المنشودة ومعينه العلمى الفياض الذى ظل ينهل منه طوال سنى طلبه • غير أن تلمذة ابن ملكا على يد هذا الشيخ لم تكن أمرا يسيرا • فقد بذل أبو البركات فى سبيلها جهدا مضنيا أسفر فى النهاية عن قبول الشيخ له كتلميذ صار بعد فترة وجيزة من أخلص تلاميذه وأقربهم اليه وأكثرهم موضعا لاعجابه • ويحكى لنا ابن أبى أصيبعة والشهرزورى قصة تكشف عن جانب هام فى شخصية أبى البركات وكيف عول على صبره وحيلته وذكائه حتى قبله الشيخ أبو الحسن تلميذا له •

ذلك أن الشيخ أبو الحسن لم يكن يقبل فى مجالس تعليمه وبين تلاميذه من كان يهوديا • ومن ثم فقد رفض فى البداية طلب أبى البركات فى أن يكون تلميذا له ، فصادق الفتى أبو البركات بواب منزل الشيخ ، وظل أكثر من عام يجلس فى دهليز دار الشيخ ، ويسترق السمع أثناء مناقشة الاستاذ وشرحه لتلاميذه ، وذات يوم طرح الاستاذ على تلاميذه سؤالا عجزوا كلهم عن الاجابة عليه ، فسارع أبو البركات بالدخول واستاذن وأجاب عن المسألة ، فأعجب الشيخ بذكائه وعقله ثم ساله عن قصته فحكاها له ، فأكبر فيه حبه للعلم وإصراره على طلبه وقال : « من كانت هذه حاله لا يجوز منعه » ثم قربه اليه ، فصار منذ ذلك الحين من أخص تلاميذه(٣٤) •

---

(٣٢) أنظر ابن أبى أصيبعة : طبقات الاطباء ص ٣٤٢ ، مايرهوف : مقاله « من الاسكندرية الى بغداد » ضمن كتاب « التراث اليونانى فى الحضارة الاسلامية » جمع وترجمة د• عبد الرحمن بدوى ط ٢ ، ص ٩٦ •

(٣٣) ابن أبى أصيبعة : المصدر السابق ، ص ٢٠٤ •

(٣٤) ابن أبى أصيبعة : المصدر السابق ، ص ٣٧٤ •

ولم يكن ابن ملكا ليكتفى بذلك القدر من علوم الطب والمنطق والفلسفة الذى كان يتلقاه عن شيخه أبى الحسن ، فراح يعتمد على ضرب من التثقيف الذاتى متخذا من ثقافته وعلوم معاصريه من الأدباء والعلماء والفقهاء والمتكلمين والمتصوفة ، زادا علميا خصيبا يقصد الى النيل منه بحضور مناقشاتهم ومجالسهم ومناظراتهم ، الى جانب المؤلفات العلمية والفلسفية والدينية والكلامية التى مثلت تراثا للقرون الخمسة الهجرية الأولى التى سبقت مرحلة نبوغه واكتمال نضجه العلمى والفلسفى • لقد كان بين يدى أبى البركات تراث المتكلمين من المعتزلة والأشاعرة والشيعة وغيرهم ، وتراث الفلاسفة أمثال الكندى والفارابى وابن سينا واخوان الصفا والغزالى ، وتراث الصوفية وخاصة ما ينتسب منه الى ابن سينا فى كتابه « الاشارات والتنبيهات » والى الغزالى فى « مشكاة الأنوار » و « إحياء علوم الدين » وغيرهما من الرسائل • وكان لهذا التراث المتنوع الخصيب أثر واضح فى منهج أبى البركات ومذهبه الفسفى خاصة فى جانبيه الطبيعى والالهى •

وعلى الرغم من أن فيلسوفنا أبا البركات - كما سيتضح لنا بعد - قد أعلنها حملة نقدية عنيفة فى كتابه « المعتبر فى الحكمة » ضد الفلسفة الأرسطية وأتباعها من المشائين المسلمين ، فإنه فى مذهبه الفلسفى لم يستطع أن يكون بمعزل تام عن أفكار أرسطو وابن سينا ، فتأثيرهما فى فلسفته الطبيعية خاصة يبدو واضحا بدرجة جعلت ابن تيمية يضعه فى مصاف المشائين المتأخرين أصحاب أرسطو من أمثال ابن سينا وابن رشد • وفى هذا يقول ابن تيمية : « من حكى عن جميع الفلاسفة قولا واحدا فى أى جنس من أجناس علومهم ، فإنه غير عالم بأصنافهم واختلاف مقالاتهم ، بل حسبه النظر فى طريقة المشائين أصحاب أرسطو من أمثال تامسطيوس والاسكندر الأفلوديسى وبرقلس من القدماء ، والفارابى وابن سينا والسهروردى المقتول وابن رشد وأبى البركات من المتأخرين »(٣٥) •

(٣٥) ابن تيمية : منهاج السنة ، ج ١ ، ص ٢٥٣ - ٢٥٤ •

ورغم أن الأحكام التى ضمنها ابن تيمية هذا النص ، يعـوزها الدقة ويشوبها الخلط والتعميم المفتقر الى التحديد ، فإن صاحبها - فيما يبدو لنا - قد صدق فيها عما لاحظه من أثر أرسطى فى فلسفات هؤلاء ، وإن كانت النظرة الفاحصة فى فلسفات أبى البركات والسهروردى المقتول تكشف لنا بوضوح عن الأثر الأفلاطونى بفرعيه القديم والمحدث أكثر مما تكشف عن الأثر الأرسطى فيها ، هذا فضلا عما نلحظه فى فلسفة كل منهما من نقـد عنيف لكثير من آراء وأفكار أرسطو وأتباعه من المشائين المسلمين ٠

وأيا ما كان الأمر ، فقد بزغ نجم أبى البركات فى الأفق وهو لم يبلغ الثلاثين من عمره واشتهر أولا كطبيب ثم كفيلسوف بعد ذلك ، وظل بقيـة سنوات عمره يمارس الطب والمعالجة ويؤلف الكتب والرسائل فى الفلسفة وغيرها حتى تمخض هذا الجهد عن مذهب فلسفى يتضمن من الجدة والابتكار ما يجعله منافسا خطيرا لمذهب ابن سينا ، وقد أودع مذهبه هذا أهم مؤلفاته وعمدتها وهو كتاب « المعتبر فى الحكمة » الذى يضاهى موسوعة « الشفاء » لابن سينا أهمية واعتبارا ٠

ويشـــير القفطى الى علو مكانة أبى البركات فى الطب والمنطق والفلســفة الطبيعية والالهية فيقول عنه بأنه هبة الله بن ملكا ، أبو البركات اليهودى فى أكثر عمره، المهتدى - أى الذى أسلم - فى آخر عمره ، أوحد الزمان ، طبيب فاضل ، عالم بعلوم الأوائل ٠ وأنه كان من يهود بغداد وكان فى وسـط المائة السادسة ، وكان موفق المعالجة ، لطيف المباشرة ٠ وقف على كتب المتقدمين والمتأخرين فى هذا الشأن ، واعتبرها واختبرها ٠ فلما صفت لديه وانتهى أمرها إليه ، صنف فيها كتابا أسماه « المعتبر فى الحكمة » أخلاه من النـــوع الرياضى ، وأتى فيه بالمنطق والطبيعى والالهى ، فجاءت عبـــارته فصيحة ومقاصده فى ذلك الطريق صحيحة ، وهو أحسن كتاب صنف فى هذا الشأن فى هذا الزمان(٣٦) ٠

وأما عن ظروف وفاته فإن البيهقى يذكر أن أبا البركات أصابه الجزام فعالج نفسه ، فصح ، وأنه عمى فى آخر سنى عمره ، وبقى أعمى وقد اتهمه

---

(٣٦) القفطى : إخبار العلماء بأخبار الحكماء ، ص ٣٤٣ ٠ .

السلطان محمد بن ملكشاه بسوء تدبيره وعدم الاصابة ، وسوء علاجه ، فحبسه مدة • وفي شهور سنة ٥٤٧ هـ أصاب السلطان مسعود بن محمد بن ملكشاه مرض القولنج بعدما افترسه أسد ، وكان بهمذان ، فحمل أبو البركات من بغداد الى همذان لعلاجه ، فلما يأس الناس من حياة السلطان خاف أبو البركات على نفسه ومات ، ومات السلطان بعد العصر فى نفس اليوم ، وكان ذلك عام ٥٤٧ هـ •

ثالثا ـ واقعة إسلامه :

إن اهتمامنا بالبحث فى واقعة إسلام أبى البركات يرجع الى ما استقر عندنا من صلة وثيقة بين إسلامه ومذهبه الفلسفى وهو ما سيتضح لنا بعد قليل • وبين أيدينا أكثر من رواية عن هذه الواقعة ، ثنتان منها للقفطى وثالثة لابن أبى أصيبعة • ومن الأساتذة الباحثين المعاصرين من اكتفى بعرض هذه الروايات دون تعليق فلم يدل برأى عما إذا كان إسلام أبى البركات ظاهريا أم حقيقيا • ومنهم من أرجع إسلامه ـ بحسب ما فهمه من مضمون هذه الروايات ـ الى أنه كان بدافع الحفاظ على كرامته واعتدادا بنفسه ، أو لكى يحظى باحترام الناس ولا يكون موضوعا لهجائهم ، أو أن إسلامه كان خوفا على حياته من الضياع بعد موت الخاتون زوجة السلطان محمود ، التى كان أبو البركات يعالجها فماتت ، وجزع السلطان على فقدها ، فخاف أبو البركات هذا الجزع ، فأسلم طلبا لسلامة نفسه من بطش السلطان به(٣٧) •

ولكى لا نجانب الصواب فيما سنقول به من رأى فى هذه المسالة ، فسوف نعرض للروايات الثلاثة التى ذكرها القفطى وابن أبى أصيبعة ونعلق على كل منها ثم نُدلى فى الأخير برأينا الصريح فى المسألة • وقبل ذلك نود أن نشير الى أن الاستاذ سليمان الندوى قد رجح وفقا لاحدى

---

(٣٧) انظر موقف كل من ، د• محمد جلال شرف : المذهب الاشراقى ص ٢٤ ـ ٢٥ القاهرة ١٩٧٢ ، د• سامى نصر : نماذج من فلسفة الاسلاميين ، جـ ١ ، ص ٣٤٠ ـ ٣٤١ ، ط ٢ القاهرة ١٩٨٣ •

روايتي القفطى أن يكون إســـلام أبى البركات قد وقع وأعلن فى سـنة ٥٢٤ هـ وهو نفس العام الذى توفيت فيه الخاتون ابنة السلطان سنجر ، زوجة السلطان محمود • ومعنى ذلك أنه أسلم وعمره يقترب من الستين عاما•

كان للقفطى روايتان ، إحداهما تقول بأن أحد السلاطين السلاجقة مرض ، فاستدعى أبا البركات ليعالجه ، فعالجه حتى شفى ، فأغدق عليه السلطان عطـــايا كثيرة من الأموال والمـــراكب والملابس والتحف ، وعاد أبو البركات الى العراق على غاية ما يكون من التجمل والثراء ، وسمع أن ابن أفلح قد هجاه بقوله :

لنـــا طبيب يهـــودى ، حمـــاقته
إذا تكلم تبـدو فيـــه من فيـــه
يتيـــه ، والكلب أعـلى منــه منزلة
كأنه بعـــد لم يخـــرج من التيـــه

فلم سمع أبو البركات ذلك ، علم أنه لا يبجل بالنعمة التى أنعمت عليه إلا بالاسلام ، فقوى عزمه على ذلك • وتحقق أن له بنات كبار وأنهن لا يدخلن معه في الاسلام وأنه متى مات لا يرثنه • فتضرع الى خليفة وقته فى الانعام عليهن بما يخلفه وإن بقين على دينهن ، فوقع له بذلك • ولمـا تحققه أظهر إسلامه وجلس للتعليم والمعالجة ، وقصده الناس ، وعـاش عيشة هنيئة وأخذ الناس عنه(٣٨) •

ولا يمكن فى نظرنا أن يكون الدافع لأبى البركات الى اعتناق الاسلام ما وردت به هذه الرواية من هجاء ابن أفلح له ، لأن عالما وطبيبا وفيلسوفا ومسنا مثله بلغ من الشهرة والمكانة منزلة عظيمة ، لا يمكن أن تؤثر فيـه كلمات هجاء كهذه ، خاصة وأنها صادرة عن شاعر لا يدانى أبا البركات منزلة • وليس الخروج عن الملة أو العقيدة المركوزة فى النفس خصـوصا وقد جاوز صاحبها السابعة والخمسين من عمره ، أمرا سهلا يسيرا تتسبب فيه مجرد قولة أديب أو هجاء شاعر ، وإلا لاستخدم أصحاب كل ملة عددا

(٣٨) القفطى : إخبار العلماء بأخبار الحكماء ، ص ٣٤٣ — ٣٤٤ •

من الشعراء يهجون مخالفيهم من الملل الأخرى حتى يدخلوا فى ملتهم لمجرد لمجرد الهجاء ؟ إن هذا فى نظرنا لا يقول به عاقل • ومن ثم فإن وراء إسلام أبى البركات دافع آخر أقوى وأكثر إقناعا ، سنشير اليه فيما بعد •

ويذكر القفطى رواية ثانية تفيد أن اسلام أبى البركات كان سببه أنه كان في صحبة السلطان محمود ببلاد الجبل ، وكانت الخاتون زوجة السلطان قد مرضت ، وكان السلطان لها مكرما محبا معظما فعالجها أبو البركات لكنها ماتت بمرضها ، فجزع السلطان عليها جزعا شديدا ، ولما عاين أبو البركات ذلك الجزع من السلطان ، خاف على نفسه من القتل إذ هو الطبيب ، فأسلم طلبا لسلامة نفسه(٣٩) •

وهذه الرواية أيضا لا تكفى فى نظرنا سببا مقنعا لاسلام أبى البركات ، لأنه لا مبرر لخوفه من نقمة السلطان عليه بعد وفاة زوجته • فالسلطان يعلم ما لأبى البركات من طول الباع فى الطب والمعالجة ، وهو على يقين من أنه لن يهمل فى معالجة زوجته لأنه لم يؤخذ عليه إهمال إن فى معالجة السلاطين والخلفاء الذين عمل فى بلاطهم أو فى معالجة العامة من الناس • ولم تذكر الرواية أن السلطان قد بدت منه أية بادرة للانتقام من أبى البركات حتى يسارع هذا بإعلان اسلامه خوفا وتقية •

أما الرواية الثالثة ، فهى رواية ابن أبى أصيبعة ، ومضمونها أن أبا البركات دخل ذات يوم الى الخليفة ، فقام لتحيته واستقباله جميع من حضر المجلس إلا قاضى القضاة الذى كان حاضرا ولم ير أنه يقوم مع الجماعة لكون أبى البركات ذميا • فأثر ذلك فى نفس أبى البركات فقال « يا أمير المؤمنين ، إن كان القاضى لا يوافق الجماعة لكونه يرى أنى على غير ملته ، فأنا أسلم بين يدى مولانا ، ولا أتركه ينتقصنى بهذا ، وأسلم(٤٠) •

(٣٩) القفطى : إخبار العلماء بأخبار الحكماء ، ص ٣٤٦ •
(٤٠) ابن أبى أصيبعة : عيون الأنباء فى طبقات الأطباء ، ج ٢ ، ص ٣٥٤ •

والسبب الذي تتضمنه هذه الرواية ، هو من أضعف الأسباب وأوهنها لاسلام أبي البركات ٠ لأننا لا يمكن أن نقتنع بأن مجـــرد عدم قيام القاضي لتحية أبي البركات ، ينهض سببا في تخلي عالم ذي شهرة ومكانة مثـل أبي البركات ، عن ملته ٠ صحيح أنه ربما تأثر كثيرا واعتبرها إهانة صدرت عن رجل ربما قاربه منزلة ، لكن من ذا الذي يقول بأن موقفا عابرا كهذا يؤدي الى أن يتخلى الرجل عن دينه ويهجر عقيدته لمجرد أن أهين من رجـل مثله ٠ وهل اعتناقه الاسلام وإعلانه له ، رد اليه كرامته التي امتهنت وأزاح عنه آثارها السيئة ٠

ليس في هذه الروايات إذن ما يمكن أن يكون دافعا قويا وحقيقيا الى اسلام أبي البركات ٠ والرأي عندي هو أن اعتناقه الاسلام وإعلانه له إنما جاء نتيجة تفكر وتدبر وتأمل واعتبار لأصول العقيدة الاسلامية ، واقتناع عقلي ونفسي تام بها ٠ ولم تكن إحدى هذه الوقائع التي وردت بها الروايات الثلاث إلا فرصة أو مناسبة ملائمة لاعلان اسلامه خصوصا أمام أعظم ممثلي الاسلام وحراس عقيدته وشريعته وهو الخليفة وقاضي القضـــــاة ومن كان بالمجلس من الأعيان ورجالات الدولة ٠ وربما تكون تسوية أمر بناته مـع الخليفة جاءت لاحقة على اسلامه خاصة وأن الخليفة قد أصبح على استعداد لتدبير أمورهن بعد اسلام أبيهن ، لأن الذمي لا يرث مسلما ، حتى لا يشعر أبو البركات أن اسلامه كان ضارا ببناته ٠ وعلى هذا يكون اسلامه اسلاما حقيقيا لا ظاهريا ، وعن اقتناع وبإرادة حرة ، لا مجرد رد فعل سريع طارىء لهجاء شاعر أو خوفا لموت إحدى مرضاه ، أو حفاظا على كرامته ، فإن أمـر العقائد المركوزة في النفوس من حيث دوام الاعتقاد أو خلع ربقته ، يختلف عن أي أمر حياتي آخر ٠

ولسنا نســتبعد أن يكون الربط بين هــذه الوقائع وبين اســـلام أبي البركات ، هو محاولة للتشكيك في حقيقة اسلامه وصحته من جانب الحاسدين له والحاقدين عليه ، فقد جرت عادة بعض الناس في كل زمان ومكان أن يمقتوا التفوق والنجاح ويشهروا بمن أوتي حظا وافرا من الثروة

أو الجاه أو المكانة العلمية المرموقة حتى ولو حصل ذلك بالجهد والمثابرة والعزم المتين • وكان فيلسوفنا أبو البركات قد أوتى من هذا كله حظا وافرا يثير حقد الأغيار عليه ، وكان عصر أبى البركات ـ كما قدمنا ـ عصر حرية فكرية ودينية ، وكان هو مقربا من سلاطين عصره وذا حظوة عند بعض الخلفاء أيضا ، وبعضهم قد استوزره واتخذه طبيبا خاصا له ولأسرته ، فلم يكن هناك ضغوط أو إكراه من أى نوع تجبر أبا البركات على أن يتخلى عن يهوديته ويعتنق الاسلام ويعلن ذلك على رؤوس الأشهاد •

ومما يدعم ما نذهب اليه من صحة اسلام أبى البركات ما سوف نلاحظه فى ثنايا بحثنا هذا من أن معظم آرائه فيما يتصل بمسائل وجود الله وصفاته وأفعاله ، ووجود العالم ، ووجود النفس ، ومسألة الخلود ، وهى المحاور الرئيسية لهذا البحث ، جاءت معظم آرائه فيها متفقة الى حد بعيد مع ما وردت به العقيدة الاسلامية خاصا بهذه المسائل • فهو فى هذا كله لم يقع فى التشبيه الذى وقع فيه رفقاء دينه القديم من اليهود ، ولا فى التثليث الذى وقع فيه جمهور النصارى ، كما لم يقع فى التعطيل ، سواء تعطيل الذات مدة ما قبل حدوث العالم كما ذهب المتكلمون ، أو تعطيل الصفات بنفيها أو اعتبارها عين الذات كما ذهبت المعتزلة والفلاسفة • ولم يقع أبو البركات فى مغبة التجهيل الذى وقع فيه المشائون بإنكارهم علم الله بالجزئيات الحادثات المحسوسات ، ولا فى مغبة التعجيز الذى وقعوا فيه عندما قصروا فعل الايجاد على مفعول واحد صدر عن الله وجوبيا لازما بقول لا يفسح مجالا للقدرة والارادة الالهية ، بل إنه أثبت الغائية فى الأفعال الالهية متفقا بذلك مع جمهور الفقهاء وأهل الحديث والأثر ، على ما سنبينه فى مواضعه من البحث •

ولولا أن اسلام أبى البركات كان عن اقتناع تام وبإرادة حرة وعزيمة صادقة ، لما امتدحه شيخ السلفيين المتأخرين الامام ابن تيمية فى مواضع كثيرة من مؤلفاته ، بل ان ابن تيمية يشير الى ما يفيد الصلة بين مذهب أبى البركات ومذهب أهل السنة بقوله : « نشأ ابن سينا بين المتكلمين النفاة للصفات ، وابن رشد نشأ بين الكلابية • أما أبو البركات فقد نشأ ببغداد

بين علماء السنة والحديث ، فكان كل من هؤلاء ، بعده عن الحق بحسب بعده عن معرفة آثار الرسول ﷺ ، وقربه من الحق بحسب قربه من ذلك »(٤١) .

رابعا ـ آثاره :

نؤثر دائما في حديثنا عن آثار المفكر أو الفيلسوف الذى نعرض له بالدراسة ألا يكون حديثنا مقصورا على مؤلفاته فقط كما يفعل بعض الباحثين ، أو على مؤلفاته وتلاميذه ، كما يفعل البعض الآخر ، وإنما نضيف الى ذلك الاشارة الى أهم من تأثروا بفكره وفلسفته ممن جاؤوا بعده ، فذلك يعد في نظرنا أثرا من آثاره التى لا ينبغى إغفالها .

تتنوع مؤلفات أبى البركات ، فبعضها كتب ورسائل فى المنطق والفلسفة ، وبعضها الآخر فى الطب والمعالجات والأدوية ، أما كتبه الفلسفية ، فإن أهمها بإطلاق هو

١ ـ كتاب المعتبر فى الحكمة ، ولنا فى سبب تسميته بالمعتبر رأى نذكره فيما بعد . وقد طبع هذا الكتاب فى ثلاثة أجزاء ، يتضمن الجزء الأول مباحثه المنطقية ، والثاني يحتوى فلسفته الطبيعية التى تتضمن دراساته في النفس الانسانية ، أما الجزء الثالث ، فقد احتوى فلسفته الإلهية ونسخة الكتاب التى بين أيدينا هى طبعة الدكن عام ١٣٥٨ هـ .

ومن مؤلفاته الفلسفية أيضا :

٢ ـ كتاب النفس والتفسير . ويقول الاستاذ سليمان الندوى إنه متضمن فى الجزء الثانى من « المعتبر » الخاص بالطبيعيات ، ثم يقول ولعله كتاب مستقل أظنه هو الذى ذكره البيهقى فقال : له كتاب النفس والتفسير ، وبه تم كتاب الطبيعى(٤٢) .

ولأبى البركات أيضا ..

---

(٤١) ابن تيمية : منهاج السنة ، ج ٢ ، ص ٢٥١ .

(٤٢) انظر سليمان الندوى : دراسته بنهاية الجزء الثالث من المعتبر ، ص ٢٥٠ .

٣ ـ رسالة في ماهية العقل ٠

٤ ـ مقالة في ظهور الكواكب ليلا واختفائها نهارا ، ألفها للسلطان المعظم محمد بن ملكشاه ٠ وقد ذكرها ابن أبي أصيبعة مع كتب أخرى له هي مؤلفاته الطبية ، مثل :

٥ ـ كتاب اختصار التشريح ، اختصره من كتاب جالينوس ولخصه بأوجز عبارة ٠ وكتاب

٦ ـ الأقرباذين ، وهو ثلاث مقالات ، ثم

٧ ـ مقالة في الدواء ، وهو نوع من الدواء ألفه وسماه « برء الساعة » ، ومقالة أخرى في معجون آخر ألفه وسماه :

٨ ـ أمين الأرواح ٠

وأما عن تلاميذ أبي البركات ، فقد خلف لنا تلاميذ كثيرين ٠ ويذكر الاستاذ سليمان الندوى أنه كان لأبي البركات حلقة درس يتصدرها للتدريس ، وتخرج على يديه كثير من أصحاب ذوى الشأن في الطب والحكمة ، ومنهم الشيخ يوسف والد موفق الدين عبد اللطيف البغدادى (ت ٦٢٩ هـ) صاحب كتاب في علم ما بعد الطبيعة ، ومن تلاميذ أبي البركات أيضا ، جمال الدين بن فضلان ، وابن الدهان المنجم ، والمهذب ابن النقاش ، وغيرهم »(٤٣) ٠

وكان من أكثر مفكرى الاسلام تأثرا بفكر أبي البركات وفلسفته ، حكيم الاشراق شهاب الدين السهروردى (ت ٥٨٧ هـ) ٠ فلقد تأثر السهروردى بالنزعة النقدية لأبي البركات ، وأخذ بكثير من آرائه النقدية لمواجهة مذهب المتكلمين ومذهب الفلاسفة المشائين السابقين في مسألة حدوث العالم وقدمه ، ورأيه في هذه المسألة قريب الى حد بعيد من رأى أبي البركات ٠ ونظرية الصدور عند السهروردى تعتمد أو تفيد كثيرا من أصول مذهب ابن ملكا في الخلق المتجدد المستمر المتعدد الأبعاد ، في مواجهة نظرية الصدور الطولية ذات الاتجاه الواحد عند المشائين ٠ وكذلك تأثر

---

(٤٣) المصدر السابق ، ص ٢٣٨ ٠

السهروردى بآراء أبى البركات فى مسالة وجود الله وأدلته عليه ، الى جانب تاثره بفكرة النور والاشراق وأن الله نور الأنوار ، وإن يكن السهروردى قد هذب هذه الأفكار وطورها واضاف اليها من عنده بحيث غدت نظرية جديدة فى البناء النورانى للوجود • وكذلك تاثر السهمروردى ببعض آراء ابن ملكا وبراهينه فيما يخص وجود النفس وخلودها وأحوالها فى عالم الخلود(٤٤) • ولا ننسى فى هذا المقام الاشارة الى ما كان للغزالى أيضا من تاثير فى فلسفة السهمروردى الاشراقى •

ومن مفكرى الاسلام الذين تأثروا بفكر أبى البركات أيضا ، فخر الدين الرازى فيلسوف الأشاعرة (٦٠٦ هـ) • فقد تأثر بكثير من آراء ابن ملكا التقريرية والنقدية فى الطبيعيات وعلم النفس والالهيات ، وان كان الرازى لم يقف عند هذا الحد ، بل كان ينتقد أحيانا بعض آراء ابن ملكا ، ويضيف الى بعضها الآخر من عنده • ويكفى مثالا على هذا التأثير والتأثر بينهما . تلك الدراسة التى تقدمنا بها لنيل درجة الماجستير وكانت بعنوان « مشكلة خلود النفس عند فخر الدين الرازى »(٤٥) وكان من بين ما ركزنا عليه فى هذه الدراســـة ، بيــان مدى تاثر الرازى بالنزعة النقـــدية لأبى البركات خصوصا فى مواجهة الفكر المشائى ممثلا فى ابن سينا ، وكذلك مدى تأثر الرازى بالآراء والأفكار التقريرية لأبى البركات فى كل المسائل المتصلة بالنفس الانسانية ، دون أن نغفل عن ابراز ما فاق به الرازى أبا البركات وما أضافه من أفكار جديدة فى هذا المجال •

وقد أشار بينيس الى التأثير العام لابن ملكا فى فــكر الفخــر الرازى

---

(٤٤) عن مدى تأثر السهروردى المقتول بأبى البركات فى مســالتى وجود العالم والنفس وخلودها ، يمكنك الرجوع الى الدراسة القيمة للأستاذ الدكتور/ محمد جلال شرف فى كتابه « المذهب الاشراقى بين الفلسفة والدين فى الفكر الاسلامى » ، ط ١ ، القاهرة ١٩٧٢م •

(٤٥) طبعت هذه الرسالة بعنوان « النفس وخلودها عن فخر الدين الرازى » ، القاهرة ١٩٨٩م •

فقال : « ويظهر أن أثر أبى البركات فى شخصية فخر الدين الرازى الفذة ، كان جازما ، يتجلى بخاصة فى « المباحث المشرقية » وهو من كتب فخر الدين العمدة ، وكان له شأن تاريخى عظيم »(٤٦) •

(٤٦) انظر مادة « أبو البركات » بدائرة المعـــارف الاسلامية ، ج ٦ ص ٤٢٨ ، كتاب الشعب ، القاهرة •

الفصل الثاني

الاعتبار منهج أبي البركات

ويشتمل على :

اولا : مفهوم الاعتبار ودلالاته

ثانيا : دعائم منهج الاعتبار

ثالثا : خصائص المنهج وضوابطه

قبل أن نخوض فى حديث مفصل عن منهج أبى البركات ، نود أن نشير الى نقطتين نرى أنهما هامتان من حيث يلقيان مزيدا من الضوء على ما سنذكره خاصا بهذا المنهج .

أما النقطة الأولى ، فتتمثل فى أننا لم نجد فى أى من الدراسات والبحوث السابقة التى تناولت جانبا أو أكثر من جوانب فلسفة أبى البركات ، لم نجد فيها شيئا يذكر عن منهجه الفلسفى ، وعلى هذا ، فإن حديثنا عن هذا المنهج من حيث مفهومه ودعائمه وقواعده الرئيسية يعد حديثا غير مسبوق • وقد اقتضى ذلك جهدا فى اقتناص الاشارات والتنبيهات التى بثها أبو البركات فى مباحثه ، والتى وجدنا أنها تتصل بمنهجه أو تلقى ضوءا عليه ، ثم محاولة وضع هذه الاشارات والتلميحات فى منظومة فكرية أو نسق عام كلى يصلح لأن يكون معبرا عن منهج أبى البركات • ومن ثم فإن آراءنا التى سنذكرها بخصوص هذا المنهج وان كانت تمثل اجتهادات شخصية من جانبنا ، إلا أننا حاولنا دعمها وتأييدها بشواهد وأدلة من أقوال أبى البركات نفسه ، وهو ما يضفى على هذه الآراء درجة من الموضوعية أو المشروعية التى تجعلها جديرة بالاعتبار • ٦٠

وأما النقطة الثانية ، فهى أننا لاحظنا أن أبا البركات فى مواضع كثيرة من « المعتبر » عمدة مؤلفاته الفلسفية ، يقول بآراء ويشير الى أصول منهجية ، نجد لها نظائر وأشباها فى المنهج القرآنى • لكن هذا التناظر فى ذاته لا يصل ، كما لا يرقى فى نظرنا ، الى حد التطابق الذى يلغى ذلك التمايز المحتوم بين منهج عقدى مصدره الوحى الالهى ، ذى مقاصد دينية وشرعية فى الأساس ، ومنهج فلسفى مصدره العقل الانسانى ذى مقاصد علمية عقلية • ومن ثم يصبح التناظر الذى نلاحظه بين بعض الجوانب والأصول فى المنهجين ، مجرد دلالة واضحة على مدى ما يمكن أن يكون هناك من جسور اتصال وجوانب اتفاق بين الدين والفلسفة تمحو ما يدعيه البعض من تنافر أو بون شاسع بين العقل والنقل فكرا ومنهجا ، وتثبت بالمقابل ذلك التوافق أو ما يمكن اعتباره تلاقيا وتآزرا بينهما لمساعدة الانسان على

إدراك الحقيقة ومعرفتها بقدر الجهد والطاقة الانسانية . ولئن كنا نلاحظ أن أبا البركات لم يصرح بهذا التقارب بين الدين والفلسفة ولم يفرد له حديثا مستقلا ، إلا أن أقواله وآراءه فى مواضــع كثيرة ، تحمل دلالات صريحة عى ما بين هذين القطبين من اتصال فى نظره .

ولسوف يتضح لنا ذلك جليا من خلال عرضنا لمنهجه فيما يلى :

اولا ـ مفهوم الاعتبار ودلالاته :

يستفاد من إشارات أبى البركات واستخداماته للفظة « الاعتبار » أنه يقصد به ذلك المنهج الذى يقوم على التأمل الذاتى والنظر العقلى الحر فى الوجود وموجوداته بغية الوصول الى معرفة الحقائق المتضمنة فى هذا الوجود خصوصا ما يتصل منها بالطبيعيات والالهيات . والاعتبار بهذا المعنى قراءة عقلية متأنيــة ومتعمقة لكتاب الوجــود . وعلى ذلك أطلق أبو البركات على عمدة مؤلفاته الفلسفية اسم « المعتبر فى الحكمة » اشتقاقا ونسبة الى منهج الاعتبــار ، بحيث يمثل كتاب « المعتبر » محصلة الآراء والأفكار المعبرة عن الحقائق التى توصل اليها عن طريق منهجه الذى سلكه فى البحث وهو الاعتبار .

ويرى أبو البركات أن الوجود هو الكتاب الوحيد الذى لا خطأ فيه ، بمعنى أن الحقائق الوجودية التى يتضمنها هذا الوجود هى حقائق لا شك فيها ولا لبس فيها بوجه ، ومن ثم فإنه أولى بذوى البصائر والعقول أن ينظروا فى هذا الكتاب ويتأملوا محتواه ليصلوا الى ما يمكن الوصول اليه من معرفة حقائقه بدلا من النظر فى أقوال الســابقين وآرائهم والوقوف عندها اكتفاءا بها . وهو بهذا يطالب كل ذى عقل وبصيرة أن يعمل هاتين القوتين فى سبر أغوار الوجود بتأمل فاحص ونظر عقلى متعمق ، وهــذا هو الاعتبار فى نظره .

وفى هذا المعنى يقول أبو البركات : « ... وأنت إذا أنصفت نفسك ، علمت أن الوجود هو الكتاب الذى لا غلط فيه ، وعلم الله به هو أم الكتاب . والوجود كنسخة منسوخة من علم الله ، لم يغلط ناسخها ، فقراءتها عنـد

ذى البصيرة أسهل من قراءة الصحيفة عند ذى البصر . وشواهدها لا تكذب ، ودلائلها لا تخطىء . فمن كانت له بصيرة فقرأ فى هذه النسخة فعلم ، لا يضره فى علمه كونه لا يكتب ولا يقرأ حتى يقرأ فى نسخة النسخة التى يغلط كاتبها ويصحف ويجهل مصنفها ولا يصنف »(١) .

الاعتبار عند أبى البركات إذن مرادف للتأمل العقلى الذاتى ، ولذلك نلاحظ أن أبا البركات درج على أن يقدم لمذهبه أو رأيه الخاص فى المسألة التى يتناولها بالبحث والدراسة بأن يقول : « ... فاما الذى انتهى اليه النظر والاعتبار فى هذه المسألة فهو (كذا وكذا) »(٢)

أو يقول بعد أن يذكر رأيه : « ... فهذا هو الرأى المعتبر بعد التصفح والتأمل والنظر ... »(٣) ، وأحيانا أخرى يقول خلال عرضه لمذهبه فى المسألة المطروحة : « ... قد تحصل من النظر والاعتبار .. (كذا وكذا) »(٤) .

وكل هذه إشارات من جانبه الى منهجه الذى سلكه فى مباحثه ، والذى أدى به الى الآراء والأفكار التى اعتنقها لما أثبت الاعتبار أحقيتها وأهليتها للاعتقاد . وهو منهج لا يتقيد بآراء أحد من السابقين مهما بلغت شهرته ومكانته فى مجال الفكر الفلسفى ما دام الاعتبار قد أثبت بطلانها أو تهافتها أو خطأها . فهو لا يطرح آراء السابقين جانبا لمجرد أنها لغيره وليست له وإنما يأخذ منها ويعتقد بما يؤدى اليه اختبارها بمحك الاعتبار ، ولا يكترث بعد ذلك بما إذا كانت هذه الآراء التى ثبت صحتها بالاعتبار ، موافقة أو مخالفة لآراء أحد من السابقين عليه .

ومما يدعم أيضا ما ذهبنا اليه من أن منهج الاعتبار يقوم فى جوهره على التأمل العقلى الذاتى الحر ، ما يشير اليه أبو البركات بعد حديثه عن

---

(١) أبو البركات : المعتبر فى الحكمة ، جـ ٢ ، ص ٤٣٦ .
(٢) المصدر السابق ، جـ ٣ ، ص ١٨٧ .
(٣) أبو البركات : المعتبر ، جـ ٣ ص ١٩٢ .
(٤) المصدر السابق ، جـ ٣ ص ٢٠٩ .

العلة والمعلول والفاعل والمفعول والمبدأ والمبتدأ ، حيث يقول : « ٠٠٠ فقد صح بالاعتبار والنظر المستوفى أن المعلول مع علته فى الوجود من جهة المعية فى الزمان لا من جهة التقدم والتأخر المعقولين ٠ ولو بقى المعلول بعد كمال علته من جهة علته زمانا غير موجود ، لما وجد عنها أبدا إذا كانت لا تنتظر زيادة فى الايجاب والعلية ٠٠ »(٥) ٠

ولما أن كان الوجود الذى آثر أبو البركات اعتباره ، أى قراءته بالعقل ، يحتوى من الموجودات ما هو مجرد لا مادى لا يدرك إلا بالعقل الخالص ، ومنها ما هو مادى جسمانى يدرك بالحس أولا ، وكان منها أيضا ما يجتمع فيه المجرد والمادى معا كالانسان مثلا نفسا وبدنا ، وكانت قراءة كتاب الوجود تستلزم معرفة ما يمكن معرفته من حقائق الوجود جميعا ، فقد كان الاعتبار الذى هو طريقنا الى معرفة هذه الحقائق ، لابد وأن يستند الى العقل والحس ومعطياتها جميعا الى جانب معطيات الشعور البديهى الأولى التى هى السبيل الى معارف حدسية أكثر منها معارف عقلية استدلالية أو حسية ٠ وهو ما سنعرض له بالتفصيل فيما بعد ٠

ومما يجدر ذكره هنا ، أن القرآن قد أشار فى آيات كثيرة الى ضرورة الاعتبار كطريق للعلم والمعرفة ويبدو ذلك فى قوله تعالى : « ٠٠٠ **فاعتبروا يا أولى الأبصار** » (سورة الحشر : آية ٢) ، وأيضا قوله سبحانه : « ٠٠٠ **إن فى ذلك لعبرة لأولى الأبصار** » (سورة آل عمران : آية ١٣) ، وكذلك قوله عز وجل : « ٠٠٠ **لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب** » ٠ (سورة يوسف : آية ١١١) ٠

فكما أن مصادر العلم والمعرفة وطرائقها فى منهج الاعتبار عند أبى البركات ، تتمثل فى العقل واستدلالاته ، وفى الحس ظاهره وباطنه ، وفى الشعور وبداهته الأولى وفطريته ، فكذلك منهج المعرفة وسبلها فى القرآن ٠ ولا يضحى أى من المنهجين بمصدر من هذه المصادر للمعرفة ، لحساب مصدر آخر ٠ فالقرآن يعلى من شأن العقل ويعول عليه كثيرا فى

---

(٥) المصدر السابق ، جـ ٣ ص ٥٣ ٠

المعرفة والعلم ، ويخاطب العقل الانسانى ويطالبه بالتأمل والتفكير والنظر العقلى فى موجودات الأرض وملكوت السموات وذلك فى قوله تعالى : **« أولم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ••• »** (سورة الروم : ٩ ، فاطر : ٤٤) ، وقوله : **« أولم ينظروا فى ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شئ ••• »** (الأعراف : ١٨٥) • وقوله سبحانه : **« ••• إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون »** • (النحل : ٦٧) وكثيرا ما نجد آيات قرآنية تنتهى بمثل ذلك مثل قوله تعالى : **« أفلا تعقلون »** ، **« أفلا تفكرون »** ، **« أفلا تبصرون »** • ويطالب القرآن صاحب الدعوى بالدليل : **« قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين »** •

وقد صدق ابن تيمية حين قال : « واذا تأملنا غاية ما يذكره المتكلمون والفلاسفة من الطرق العقلية ، وجد الصواب منها يعود الى بعض ما ذكره القرآن من الطرق العقلية »(٦) •

ويهتم القرآن أيضا بإعمال الانسان لحواسه كمصدر للمعرفة والعلم ويصف الانسان الذى يعطل الحواس والعقل بأنه كالحيوان بل هو أضل سبيلا من الحيوان ، وذلك فى قوله تعالى : **« ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والانس ، لهم قلوب لا يفقهون بها ، ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها ، أولئك كالأنعام بل هم أضل ، أولئك هم الغافلون »** • (الأعراف : ١٧٩) ، وقوله تعالى : **« ولا تقف ما ليس لك به علم ، إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا »** • (الاسراء : ٣٦) •

ويشير الامام ابن تيمية رأس السلف المتأخرين ، الى أن الأمر بالتدبر والنظر والتفكر هو مبدأ اسلامى هام وأصل من الأصول التى جاء بهما القرآن ، وأن ذلك ورد فى أكثر من آية ، فيقول بأنه لا يعرف أحد من سلف الأمة ، ولا أئمة السنة وعلمائها أنه أنكر ذلك ، بل كلهم متفقون على الأمر بما جاءت به الشريعة من النظر والتفكر والاعتبار والتدبر وغير ذلك ، وانه إذا كان بعض الفلاسفة قد أدى بهم النظر الى القول بآراء باطلة شرعا وعقلا ، فإن ذلك لا يستلزم إنكار جنس النظر والاستدلال »(٧) •

---

(٦) ابن تيمية : شرح العقيدة الأصفهانية ، ص ١٤ •
(٧) ابن تيمية : نقض المنطق ، ص ٤٧ ، القاهرة ١٩٥١م •

ولعل فيما ذكرناه ، ما يؤيد ما ذهبنا اليه من أن منهج الاعتبار بمفهومه ودلالاته عند أبى البركات ليس بعيدا عن المنهج القرآنى ، ولا ينبغى ان نجد فى القرآن تفاصيل منهجية ويكفى أنه يشير الى ضرورة إعمال العقل والحس فى الوجود وموجوداته كما يشير الى أصول الأدلة العقلية بأنواعها ، وذلك لأنه ليس كتابا فى المنطق أو الفلسفة ، بل هو كتاب عقيدة وشريعة .

ثانيا ـ دعائم منهج الاعتبار :

وفقا لما أمكن لنا استنباطه من حديث أبى البركات وإشاراته ، يمكن القول بأن منهج الاعتبار عنده يقوم على عدة دعائم نشير اليها فيما يلى :

١ ـ العقل والاستدلال :

إذا كان الاعتبار ـ كما قدمنا ـ قراءة عقلية فى كتاب الوجود ، فإن العقل واستدلالاته يعد محور الارتكاز فى هذا المنهج . ونلاحظ أن ابن ملكا يحتفى بالعقل واستدلالاته بدرجة تجعله يلجأ دائما لدعم آرائه التقريرية والنقدية الى الاستدلال المنطقى وإيراد الحجج والبراهين التى يبطل بها مذهب مخالفيه ، ويثبت بها أيضا مذهبه فى المسألة المطروحة ، ونجد ذلك واضحا فى مباحثه الطبيعية والالهية . فها هو يستدل على صحة آرائه بالدليل العقلى كما يستند الى هذا الدليل فى نقد الآراء التى جانبها الصواب فى نظره ، فى المسائل الطبيعية كالهيولى والحركة والزمان والمكان ، وكذلك فيما يتصل بالسماء وموجوداتها الطبيعية من الأفلاك والكواكب وما يتصل بعالم الكون والفساد(٨) . وكذلك يستخدم الدليل العقلى والبرهان المنطقى فى المسائل الالهية كإثبات وجود الله ووحدانيته وصفاته ونقد دليل المحرك الأول لأرسطو وإثبات خلود النفس وغيرها من المسائل(٩) . وهو ما يتضح لنا جليا فى مواضعه من البحث .

---

(٨) أبو البركات : المعتبر ، جـ ٢ ، ص ٢٧ ، ٤٤ ، ٦٩ ، ١٣٥ ، ١٦٠ .

(٩) أبو البركات : المصدر السابق ، جـ ٣ ، ص ٢١ ـ ٢٢ ، ص ٦٢ ـ ٦٥ ، ص ١١٧ ـ ١٢١ ، ص ١٣٣ ـ ١٣٧ ، جـ ٢ ص ٣٨٨ ـ ٣٩٢ ، ص ٤٤٣ ـ ٤٤٧ .

وقد أشار الجرجاني في تعريفـاته الى تضمن الاعتبار للاستدلال القياسي حيث قال بأن الاعتبار هو النظر في الحكم الثابت أنه لأى معنى ثبت وإلحاق نظيره به ، وهذا عين القياس(١٠) • ويقصد الجرجاني بهـذا قياس الطرد وقياس العكس ، وذلك - فيما يقول السيوطي(١١) - لأن ما أمر الله به من الاعتبار في كتابه يتناول هذين الضربين من القيـاس • مثال ذلك ما نراه في قوله تعالى : « **كذبت قوم نوح المرسلين** » • (سورة الشعراء آية : ١٠٥) ، وقوله سبحانه : « **كذبت عاد المرسلين** » • (الشعراء : آية ١٢٣) ، فإنه لما أهلك المكذبين للرسل بتكذيبهم ، كان من الاعتبار أن يعلم أن من فعل مثل ما فعلوا ، أصابه مثل ما أصابهم ، فيكون تكذيب الرسل سببا في العقوبة وهذا قياس الطرد • وكذلك يعلم أن من لم يكذب الرسل لا يصيبه ذلك ، وهذا قياس العكس ، وهو المقصود بالاعتبار بالمكذبين • والاعتبار يكون بهذا وبهذا ، قال تعالى : «**لقد كان في قصصهم عبرة لأولى الألباب** » : (يوسف : آية ١١١) ، وقال : « **لقد كان لكم آية في فئتين التقيـا** ••• الى قـوله : **إن في ذلك لعبرة لأولى الأبصـار** » • (آل عمران : آية ١٣) •

ويعتمد أبو البركات كثيرا في استدلالاته على برهان الخلف أو إثبات خطأ النقيض • ونسوق مثالا واحدا على ذلك ، وهو أنه لكي يثبت جوهرية النفس وقيامها بذاتها يلجأ الى برهان الخلف معتمدا على القسمة الثنائية للموجود الذي يكون إما جوهرا أو عرضا ، فيبرهن على بطلان كون النفس عرضا ، وبذا يثبت صحة نقيضه وهو أنها جوهر قائم بنفسـه • وكذلك فعل في إثبـاته عللا كثيرة للنفوس البشرية وأنها نفوس سماوية تمثـل جواهر مجردة روحانية(١٢) •

ويرفض أبو البركات القاعدة المنهجية التي تقول بأن بطلان الدليـل يؤدي الى بطلان المدلول • ويرى أن الدليل إذا ارتفع لم يرتفع المدلول عليه

---

(١٠) الجرجاني : التعريفات ، ص ٣٤ ، القاهرة ١٩٣٨م •
(١١) السيوطي : صون المنطق والكلام ، جـ ٢ ، ص ١٥٦ •
(١٢) أبو البركات : المعتبر ، جـ ٢ ، ٣٦٥ - ٣٦٦ ، ص ٣٨٨ - ٣٩٢ •

في ذاته ، بل ربما ارتفع علم العالم المستدل بذلك الدليل عليه ، ويكون الأمر حينئذ على ما هو عليه ، سواء علم أو لم يعلم ، وذلك مما لا يرده من يعقله ، ولا يعزب تعقله على متأمله(١٣) • وهو بهذا يخالف بعض المتكلمين وعلى رأسهم الباقلاني الأشعري الذى كان أول من ذهب الى أن بطلان الدليل يؤذن ببطلان المدلول واتخذها قاعدة لنقد آراء مخالفيه وأدلتهم عليها ، على أساس أن هدم الدليل وإبطاله يؤدى الى بطلان الدعوى التي قام الدليل لاثباتها •

وقد أخذ بهذه القاعدة بعض المتكلمين الذين أتوا بعد الباقلاني ، وإن كان بعض الأشاعرة المتأخرين ومنهم فخر الدين الرازى لم يأخذوا بها وآثروا القول بما قال به أبو البركات(١٤) • وفي هذا يقول ابن خلدون « إن أبا بكر الباقلاني وضع المقدمات العقلية التي تتوقف عليها الأدلة والأنظار ، ومنها أن بطلان الدليل يؤذن ببطلان المدلول » وأن هذه الطريقة كانت فنا نظريا قائما بذاته • ويذكر ابن خلدون أن المتأخرين قد تنكبوا مقدمة الباقلاني ، فما عادوا يعتقدون بأن بطلان الدليل يؤذن ببطلان المدلول(١٥) •

ولا يغفل ابن ملكا عن الاشارة الى ذلك الفرق والتمايز بين طريق النظر والاستدلال العقلى ، وطريق الوحى ، ويرى بأن كل طريق منهما له خصائصه وله موضوعاته التي يستقل بمعرفتها كل طريق من هذين الطريقين فيقول بأن لكل عالم منهجا خاصا به ، فطريق التأمل والنظر العقلى والاستدلال الذى هو طريق الفيلسوف غير طريق الوحى والأنبياء « ومن طلب بحكمة النظر علما لا يوصل اليه إلا من طريق الخبر (الوحى) فإنه يخطىء مطلبه ولا يدركه • والثواب والعقاب في الآخرة ، ودرجات السعادة والشقاوة للنفوس في الآخرة من الأمور التي لا تعرف بالبحث النظرى

---

(١٣) المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ٧٦ •

(١٤) انظر كتابنا : المنهج النقدى عند الباقلاني ، ص ٨٤ — ٨٥ . القاهرة ١٩٩١م •

(١٥) ابن خلدون : المقدمة ، ص ٣٢٦ — ٣٢٧ •

والنظر القياسى ، وإنما تعرف بطريق الخبر • والواجب والحكمة فى هذا ، أن يحتاط فى سماع الخبر بصدق المخبر الذى هو النبى ، وقدرة المخبر عنه الذى هو الله تعالى ، وإمكان الشىء الذى أخبر به وجوازه • فإذا كان الله قد أخبرنا بالوعد للمؤمنين الطائعين الأخيار ، وبالوعيد للكفار العصاة الأشرار ، فكيف لا يمكن القادر الصادق أن يفى بوعده ووعيده وهو العالم الخالق ، المبدىء المعيد(١٦) •

ويشير أبو البركات الى أهمية الاستدلال ومدى يقينية المعرفة التى تأتينا عن طريقه ، بقوله بأن هناك معرفة أولية ولكنها تكون ناقصة ينبغى أن تتبعها معرفة استدلالية بها يستوثق العارف من معطيات معرفته الأولية ويزيد بها على ذلك علما ومعرفة أكثر تفصيلا ودقة وأكثر يقينا من المعرفة الأولية من حيث تكون المعرفة الاستدلالية موثقة بدليل العقل ومنطق البرهان(١٧) •

٢ ـ معطيات الشعور البديهى الأولى :

ويمثل الشعور البديهى الأولى ومعطياته ، دعامة قوية من دعامات منهج الاعتبار عند أبى البركات ، حيث يعول عليه كثيرا فى معالجاته لبعض القضايا والمسائل التى يعتبر الشعور البديهى الأولى مدخلا موضوعيا اليها وسبيلا لتحصيل بعض المعارف اليقينية المتصلة بها ، وكمثال على ذلك • نجده فى معرض إثباته أن مدرك العقليات والحسيات فى الانسان واحد بعينه هو النفس ، نجده يعرض لوجهة النظر السينوية المخالفة وهى أن مدرك العقليات هو النفس بذاتها ومدرك الحسيات هى القوى أو الحواس الظاهرة والباطنة ، يعرض أبو البركات لوجهة نظر ابن سينا ثم يحللها ويفندها وينقض حجج ابن سينا عليها ثم يقول : « ••• ونحن إذا أعرضنا عن هذه الحجج ومناقضاتها ، ورجعنا الى ما نشعر به من نفوسنا وهو أبين وأثبت عندنا ، علمنا أن مدرك الصور العقلية والحسية ، وبالجملة مدرك

---

(١٦) أبو البركات المعتبر ، جـ ٢ ، ص ٤٤٩ ـ ٤٥٠ •

(١٧) أبو البركات : المعتبر ، جـ ٢ ، ص ٣٦٤ •

الموجودات فى الأعيان ، والمتصـــورات فى الأذهان فينـــا واحد هو ذات الانسان • فكل واحد منا يشعر من ذاته أنه هو الذى أبصر وسمع ، وعرف وتصور ، وحفظ وتذكر ، وعلم وتدبر ، وحكم بالاثبات والنفى ، والصدق والكذب • ومن هذا القبيل يقول عرفت وعلمت ، وقبلت ورددت، ، وصدقت وكذبت ، وأبصرت وسمعت ، والتاء فى كلامه واحدة الاشارة والمعنى على ما قيل غير مرة »(١٨) •

وكذلك أقام ابن ملكا أهم براهينه على وجـــود النفس ، مستندا الى معطيات الشعور البديهى الأولى(١٩) ، وهو ما سنقف عليه فى موضعه من البحث •

٣ ـ قيمة الحس وإدراكاته :

وللحس وإدراكاته فى منهج الاعتبار مقام معلوم • ذلك أ ن الحس يمدنا بمعارف ومعلومات لا يستطيع العقل بمجرده أن يمدنا بها ، فبحس البصر تدرك المبصـرات من الأجســـام والألوان ، وبحس الســـمع تدرك المسموعات ونميز بينها ، وبحس الذوق تدرك المذوقات ، وهكذا الحال أيضا فى حس الشم واللمس • وليس لنا بالعقل وإدراكاته غناء عن الحس ومدركاته ، وكثيرا ما يكون الادراك الحسى فى معرفتنا لما نعرفه فى الوجود ، سابقا على إدراكنا العقلى له ، وان كان إدراكنا العقلى أعلى مرتبة وأكثر يقينا وأكمل فيما نعرفه به مما نعرفه بإدراكنا الحسى •

ولا يعنى هذا أن أبا البركات قد وقع فى تناقض من حيث ذهب من قبل الى أن مدرك العقليات والحسيات فينا واحد هو النفس ، ثم أثبت هنا قيمة الحواس وأهمية معطياتها ، هذا التناقض الظاهرى ، يزول إذا عرفنـا أن العقل قوة من قوى النفس ، ويعتبر الحواس أيضا قوى وآلات للنفس تستخدمها لتحقيق أغراضها المعرفية والادراكية ، فالمصـــدر الحقيقى للعلم والمعرفة فى الانســـان هو النفس ، وهذه القـــوى المختلفة أدوات وآلات

---

(١٨) المصدر السابق ، جـ ٢ ، ص ٤٠٣ ـ ٤٠٤ •
(١٩) المصدر السابق ، ص ٣٠٠ ـ ٣٠١ ، ص ٣٠٦ •

– كما قلنا – أو هي وسائط تستخدمها النفس كلا بحسب ذاته وماهيته وبحسب ما يلائمه من موضوعات مدركة ٠

ولسوق مثالا يكشف لنا مدى أهمية الحس في نظر أبي البركات ٠ فهو في حديثه عن الهيولى والمحل والموضوع والفرق بينها جميعا ، يقول : « الاعتبار يرينا في الوجود من الكائنات الفاسدات والمتغيرات المستحيلات ، شيئا يزول وشيئا يتجدد ، وشيئا يستبدل الحادث بالزائل ، كالشمع في التشكيل والتبديل واللوح في الكتابة والمحو ، والنطفة للجنين ، والبيضة للفرخ ٠ فالزائل هو الفاسد ، والحادث هو الكائن ، والمستبدل الحادث بالزائل هو المحل والموضوع والهيولى ، فما جرى مجرى اللوح للكتابة يسمى محلا وموضوعا ، وما جرى مجرى الخشب للسرير ، والنطفة للجنين ، والبيضة للفرخ يسمى هيولى ٠

٠٠٠ فباعتبار المحل بمفرده مقيسا الى ما حل فيه ، كالجسم مقيسا الى البياض يسمى موضوعا ٠ وإذا اعتبر المحل وما حل فيه بحيث كان جزءا منه ، كان الحاصل منهما يسمى هيولى ، كالأبيض ٠ وما كان من ذلك يتم بالنمو والزيادة يسمى مادة ٠ وهكذا يستطرد أبو البركات حتى يثبت الهيولات الأول التي هي الأرض والماء والنار والهواء ، وأن الجسم بمجرد معنى جسمية هو الهيولى الأولى والموضوع الأول ، وقد يسمى هيولى أولى ، وحينا يكون هيولى قريبة ومتوسطة ، ويكون موضوعا ، ويكون طينة ومادة ، ويكون اسطقسا(٢٠) ٠

ويشير ابن ملكا الى قيمة المعرفة الحسية وأنها تؤدى بالتدريج الى معرفة المعقولات فيقول بأن العقول والأذهان الانسانية ، إنما يكون طلبها الأول ومطلوبها القريب ، الأعراض من حيث أنها تدركها إدراكا أوليا بالحس وطباع الحس ، لا بتكلف يطرأ ، وروية واختيار ومشيئة وتنبه منها على طلب أسبابها وعللها بما ، ولم ، وكيف ، فتعلم من المحسوس الأول وبه ، ما هو فيه من الهيولى وما معه من الصور ، فتعلم الماهية من ذلك .

---

(٢٠) أبو البركات ، المعتبر ، جـ ٢ ، ص ١٠ – ١٣ ٠

كما تعلم اللمية ، فتعلم المعلولات وتعرف العلل وعلل العلل بنظر الروية والمشيئة والبحث والتأمل العقلي(٢١) .

٤ ـ تحـــديد المصـــطلحات :

ويعتمد أبو البركات في منهجه على تحديد المصطلحات ومفاهيم الالفاظ التي يستخدمها حتى لا يقع القارىء في مغبة الغموض أو اللبس أو الخلط بين معاني المصطلحات بعضها وبعض . ومن أمثلة ذلك ما يذكره من تحديد لمفاهيم الادراك والشعور والتصور والحفظ والتذكر والذكر ، وبيان الفرق بينها جميعا . فيقول بأن الادراك لقاء ووصول من المدرك الى الشيء المدرك ، ويقال للفهم إدراك أيضا فيقـــال فلان أدرك معنى هـــذا اللفظ ، أى فهمه وتصوره . فمن الادراك ما هو وجودى حاصل بحركة جسمانية وهو الادراك الحسى غالبا ، ومنه ما هو ذهنى حاصـــل بتوجه النفس من غير حـــركة مكانية ، وكلاهما لقاء المدرك للمدرك لقاء الذات للذات(٢٢) .

وأما الشعور ، فهو إدراك ذهني بغير استثبات ولا تصور تام . فإن النفس إذا أدركت شيئا واستقرت على ادراكه واســـتثبتت الشيء المدرك وأدركت إدراكها ، كان ذلك تصورا للمعنى وفهما للفظ . لأن الصـــورة الذهنية إذا حصلت في النفس بدلالة لفظية قيل لذلك الحصول فهم بقياس ذلك اللفظ . والشعور أول مراتب وصول المعنى الى النفس أو النفس الى المدرك . فإذا ثبتت النفس على المدرك وأقامت عـــلى ادراكه بالتفاتها اليه واقتصارها عليه زمانا ما ، قيل لذلك تصور .

فإذا استقر المعنى في النفس حتى يبقى بعد الانشغال عنه ، وبحيث يجده الطالب في نفسه إذا طلبه بالتذكر ، قيل لهذا الاستقرار حفظ ، ولذلك الوجود ذكر .

وأكثر ما يقال التصور ، لما له صورة مرئية بالعين ذات شكل ولون ، ولا يقال لحصول الطعـــوم والأراييح وكذلك كل مالا شكل له ولا لون . تصـــور .

---

(٢١) أبو البركات : المعتبر ، جـ ٣ ، ص ٢١٠ ـ ٢١١ .

(٢٢) أبو البركات : المعتبر ، جـ ٢ ، ٤٠١ .

ومن قبيل اهتمامه أيضا بتحديد المصطلحات ، ما يوضحه من فرق فى المفهوم بين المعرفة والعلم ، والحكم والتصديق والتكذيب ، فيقول بأن المعرفة تقال على استثبات المحصول المدرك خصوصا إذا تكرر إدراكه فإن المدرك إذا أدرك شيئا فحفظ له محصولا فى نفسه ، ثم أدركه ثانيا ، وأدرك مع ادراكه له إنه هو ذلك المدرك الأول ، قيل لذلك الادراك الثانى بهذا الشرط ، معرفة · فالمعرفة تكرار التصور ، وتصور قار الادراك ، والادراك نيل المطلوب والفهم تصور المعنى من لفظ المخاطب ، والافهام إيصال المعنى باللفظ الى ذهن السامع ·

وأما العلم ، فإنه معرفة وتصور أيضا لكن مع زيادة تكون منها لمن سمع وفهم موضع مخالفة أو موافقة على ما قيل وقصد فى المعنى · وذلك القصد هو إلزام معنى لمعنى وإثباته له وابعاد معنى عن معنى ونفيه عنه · وإنما يثبت هذا لهذا ، وينتفى هذا عن هذا ، عند الذهن بعد تصور المعنيين ومعرفتهما ، ومعرفة معنى الاثبات والنفى · فذلك التصور وتلك المعرفة مع هذا النفى والاثبات تسمى علما · ويسمى الاثبات والنفى حكما · وكون ذلك فى الذهن موافقا لما عليه الوجود يسمى صدقا · فالصدق اسم لهذه الموافقة فى هذا الحكم بهذا المحكوم به لهذا المحكوم عليه · والتصديق هو الموافقة على هذه الموافقة(٢٣) ·

فالتصديق يكون فيه الحكم بإثبات المعنى للمعنى أو نفيه عنه مع الحكم بموافقة الوجود له فى الاثبات والنفى · والصدق هو الحكم بذلك مع موافقة الوجود · والكذب هوالحكم بذلك مع مخالفة الوجود · والتكذيب هو الحكم بمخالفة الوجود لذلك الحكم · وكلا الحكمين من التصديق والتكذيب فيما به صدق وكذب فيما له وعليه حكم ، يسمى علما ، فكل علم وحكم ، وتصديق أو تكذيب يكون مع معرفة وتصور ، ولا ينعكس . فليس كل معرفة وتصور يصاحبها بالضرورة حكم بتصديق وتكذيب ، ففى العلم والمعرفة تصور وإدراك ·

---

(٢٣) أبو البركات : المعتبر ، جـ ٢ ، ص ٣٩٤ ـ ٣٩٦ ·

٥ ـ ضرب الأمثال :

ويعمد أبو البركات كثيرا الى ضرب الأمثال إما لتبسيط فكرة أو إيضاح معنى أو شرح رأى له أو إثبات وجهة نظر . وسوف نرى فى مواضع كثيرة من هذا البحث كيف يؤثر فيلسوفنا ضرب الأمثال . ونسوق هنا مثالا واحدا يؤيد صحة ما نذهب اليه ، فهو فى نقده لنظرية الصدور المشائية عند الفارابى وابن سينا ، التى أثبتت فعلا واحداً لله تعالى هو المعلول الأول الذي هو العقل الأول فى سلسلة العقول العشرة الصادرة بعضها عن بعض ، وجعلت عملية الخلق ذات اتجاه واحد طولى ، نجد أبا البركات يثبت أن عملية الخلق مستمرة متعددة الأبعاد والاتجاهات بقبلية وبعدية وتقديم وتأخير ، وأن الله خلاق دائما فهو يخلق شيئا بذاته عن ذاته ، وشيئا من أجل ما عنه ، وشيئا لأجل هذا الشيء وهكذا تستمر عملية الخلق فلم يقتصر ايجاده على موجود واحد وإنما الكل منه وبخلقه .

ويضرب أبو البركات مثالا توضيحيا على ذلك فيقول بان مثل ذلك ـ ولله المثل الأعلى ـ كمثل الانسان منا ، حيث يريد السكن والستر فيتخذ من أجله بيتا ، ومن أجل البيت وتحسينه يتخذ نقشا وزينة وفرشا ، وكذلك يقتنى فرسا ويشترى لفرسه مركبا وزينة يزينه بها ، وهذه الأشياء هى للبيت والفرش لما له وهو البيت . والفرس له ، والمركب والزينة للفرس ، لكن ذلك كله للانسان ، والبيت والفرس والأشياء التى لهما هى لأجل الانسان أولا وبالذات ، وكذلك يخلق الله تعالى الموجودات ، فتوجد عنه ، وعما عنه ، والذى عنه : منه ما هو لأجله ومنه ما هو لأجل ما عنه . وعلى هذا الوجه يكون من أفعال الله تعالى ، القديم الذى هو أول الخلق ، ومنها الحديث المحدث فى الجزئيات المتجددة ، مثل إنزال الغيث من السماء ، فينبت النبات ، ثم ينزل فيسقيه ، ثم يثمر النبات فيبرز لحفظ نوعه فى شخصه ، فيكون الله تعالى بحسب ما وجب من مبدأيته الأولى وقدرته وحكمته ، أراد الخلق بأسره على طريق الجملة لايجاد كل ممكن الوجود ، ثم على طريق التفصيل لاخراج كل ممكن فى التصور والتقدير الى الفعل بحسبه فى تقديره وتوقيته أزليا وزمانيا(٢٤) .

---

(٢٤) أبو البركات : المعتبر ، ج ٣ ، ص ١٥٩ ـ ١٦٠ .

وفى ضربه الأمثال ، يتفق أبو البركات مع منهج القرآن فى هذا المنحى ، ذلك أن القرآن ملىء بالأمثال التى يضربها الله تعالى للتعليم والتذكير والتفكر والاعتبار • بل ان ابن تيمية يؤكد أن الأمثال المضروبة فى القرآن لابد أن تؤخذ مأخذ الأقيسة العقلية ، وأنه يدخل فيها ما يسميه المناطقة براهينا ، وهو القياس المؤلف من المقدمات اليقينية(٢٥) •

ويشير القرآن الى ضرب الأمثال وأهميتها فى قوله تعالى : « ولقد ضربنا للناس فى هذا القرآن من كل مثل لعلهم يتذكرون » (الزمر : آية ٢٧) ، وقوله سبحانه : « وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون » (الحشر : آية ٢) • وقوله تعالى : « وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون » (العنكبوت : آية ٤٣) • ومن هذه الأمثال قوله تعالى : « مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة ، والله يضاعف لمن يشاء ، والله واسع عليم » (البقرة : آية ٢٦١) ، ومنها أيضا قوله تعالى : « مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتا ، وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون • إن الله يعلم ما يدعون من دونه من شيء وهو العزيز الحكيم » (العنكبوت : آية ٤١ - ٤٢) • ومنها أيضا قوله : « مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد اشتدت به الريح في يوم عاصف لا يقدرون مما كسبوا على شيء ذلك هو الضلال البعيد » (ابراهيم : آية ١٨) • وأوضح دلالة على منهج القرآن فى ضرب الأمثال قوله تعالى : « الله نور السموات والأرض ، مثل نوره كمشكاة فيها مصباح ، المصباح في زجاجة ، الزجاجة كأنها كوكب درى يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية ، يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار ، نور على نور ، يهدى الله لنوره من يشاء ، ويضرب الله الأمثال للناس والله بكل شيء عليم » (سورة النور : آية ٣٥) • وقد خصص الامام الغزالى رسالة قائمة برأسها ، لشرح هذه الآية وفك رموزها واستخلاص دلالاتها ومعرفة معانيها ومقاصدها ، وهى رسالة « مشكاة الأنوار » •

---

(٢٥) ابن تيمية : موافقة صحيح المنقول ، جـ ١ ، ص ١٤ •

ثالثا ـ خصائص المنهج وضوابطه :

ستشير هنا الى أهم الضوابط وما يمكن اعتباره قواعد أقام عليها أبو البركات منهج الاعتبار . ومن هذه الضوابط والقواعد ما يلي :

١ ـ الموضوعية :

تعد الموضوعية من أخص خصائص الروح العلمية للمفكر أيا ما كان تخصصه ومجال اهتمامه ، وهي ألزم للمفكر ذى الاتجاه النقدى على وجه الخصوص ، لأن هذه الموضوعية هي التي تضفي على آرائه النقدية ما يمكن أن يقدر لها من قيمة وأهمية ، فضلا عن أنها تدعم مشروعية النقد وتضمن له أن يحظى لدى الآخرين بدرجة من التقدير أقل ما توصف به أنها تلزمهم بقبول هذه الآراء والاذعان لها .

ولنسوق الآن نصا يحمل دلالة على التزام فيلسوفنا بما يراه حقا واعتناقه له حتى وإن اقتضاه ذلك أن يتخلى عن رأى سابق له ظهر له بعد ذلك أنه خطأ ، وتلك هي الموضوعية في جوهرها أى اذعان العقل لما يثبت صحته بالدليل والبرهان من آراء وأحكام دون نظر الى مصدر هذه الآراء حتى ولو كانت صادرة عمن يخالفون مذهبنا . ففي دراسته لمسألة الجن والأرواح ، نجده يعرض لآراء ثلاثة فرق في الموضوع ، وينتقدها جميعا ، ثم يعرض رأيه الخاص الذى ينكر فيه وجود الجن ، لكنه يذكر أنه بعد أن أمعن التأمل والنظر ، عاد فرفض ما قال به واعتقده أولا ، ثم يقدم رأيه الذى انتهى اليه أخيرا . وهو لا يجد غضاضة في التصريح بأنه يتراجع عن رأيه الأول لما ثبت له بطلانه فيقول : « هذا كان محصول نظرى في قديم أنظارى وأفكارى ، وكنت أدفع به وأمنع ، واحتج به وأرفع وأبطل . وارى أنى أرجع من ذلك الى حبل متين ودليل بين يجهله من لم يصل نظره اليه ، وما سمعت لأحد حجة بغيره ولا به ، ولا ردا عليه . وها أنا الآن الذى أعارضه بنظر أعلى وتأمل مستقصى فأقول ... » ثم يعرض رأيه الأخير الذى يثبت فيه وجود الجن كأرواح يجوز أن تتشكل بأشكال وهيئات مختلفة(٢٦) .

---

(٢٦) أبو البركات : المعتبر ، ج ٢ ، ص ٢٨٩ ـ ٢٩٥ .

ولا يهمنا الموضوع الذى أبدى فيه رأيه قديما ثم تراجع عنه ، بقدر ما يهمنا موضوعيته والتزامه بالمنهج العلمى وضوابطه ، وكونه يصرح فى غير ما حرج بتراجعه عن رأيه الأول يمثل فى نظرنا قمة الموضوعية ، فكثيرا ما تاخذ بعض الباحثين العزة بالاثم فلا يتراجعون عن آراء لهم يثبت خطآها بالدليل ومنطق البرهان اعتقادا منهم بأن فى مثل هذا التراجع الى الحق ما يشين ٠

ومما يتصل بالموضوعية تلك القاعدة التى يرسيها أبو البركات فى النظر العقلى ، وهى أن من ناظر المناظر بما يسلمه ويسلم لزوم ما يلزم عنه ، فقد أفحمه فى الجدال على سائر المذاهب « وصناعة النظر تأمر المتأمل بأنه إذا حقق أصلا وتيقن معلوما حصله بنظره وحازه الى سوابق علمه ، وتأمل نسبته الى ما هو مجهول حتى يكتسبه ويحصله بذلك المعلوم السابق ، فإنه إن قدر على كسبه فذاك ، وإلا ثبت فى علمه على معلومة وترك المجهول فى مهمة الطلب ٠ أما إن نقض المعلوم بالمجهول ورد الحاصل بالمطلوب ، أى رد المعلوم الحاصل بالمجهول المطلوب ، فإنه لا يثبت له علم ولا يصح له يقين فى معلوم أبدا ، ويكون كمن ينقض الأساس لبناء الجدار فلا يبقى الأساس والجدار(٢٧) ٠

ثم يحدد لنا الطريق الموضوعى الأمثل الى معرفة الحق فيقول : « ٠٠٠ واعلم أن شفيعك الى علم الحق هو صدقك فى طلبه ، وانصافك فى حكمك فيما تنظر فيه مما تختلف عليك أطرافه وحواشيه ، وأقرب من الحق بالترقى اليه حتى تراه على ما هو عليه ، ولا تنتظر قربه منك بإنحطاطه عن ذروته الوجودية الى مقتضى رأيك الذى قصر عن أن يرتقى اليه ، فإن الحق لا ينحط الى مقتضى رأيك عن حقيته ، وإنما رأيك عقلك الذى يكمل بأن يرتقى اليه بعلمه ومعرفته(٢٨) ٠

٢ - التحليل والاستقصاء :

ويعتبر التحليل والاستقصاء قاعدة هامة من قواعد منهج الاعتبار عند أبي البركات ٠ ذلك أنه فى دراسته للمسألة المطروحه للبحث ، كثيرا

---

(٢٧) المصدر السابق ، جـ ٣ ، ص ٩٥ ٠

(٢٨) أبو البركات : المعتبر ، جـ ٢ ، ص ٣٥٠ ٠

ما يعرض لآراء السابقين عليه فى هذه المسألة ويقوم بتحليلها وبيان ما تتضمنه من حق أو باطل فى نظره ، وينتقد منها ما يراه حقيقا بالنقد والتفنيد ، كما يؤثر أن يستقصى مذاهب السابقين في المسألة وحججهم عليها بأمانة علمية تجعله أحيانا يتمحل بعض الأدلة والبراهين التى غابت عن صاحب المذهب والتى يمكن أن تدعم مذهبه ، لكنه بعد ذلك كله يحق الحق منها ويبطل الباطل بنظره الاعتبارى . وهو فى هذا كله يحاول أن ينأى بنفسه عن تقليد الآخرين من جهة ، كما يدعم مشروعية العقل فى أن يعتنق ما رآه بالنظر الحر والتأمل الذاتي جديرا بالاعتناق والتأييد .

ومن أمثلة ذلك بحثه لمسألة الزمان والعلية ، وإثبات العلة الأولى القديمة ، ووحدانية الله وغيرها من المسائل(٢٩) ، يستقصى الآراء والمذاهب المقولة فى كل مسألة ويحللها ويفندها بموضوعية وأمانة . وها هو فى مسألة العلم الالهى ، يشير الى مذهب أرسطو ، ومذهب المتكلمين وجمهور علماء الاسلام ، ثم يذكر مذهب الفلاسفة المشائين وخاصة الفارابى وابن سينا ثم يقول موضحا منهجه فى بحث هذه المسألة : « ... وقد ضعفت بينهم حجج القائلين بمعرفة الله للجزئيات لتدقيق النظر وتقرير أصول لم تتحرر ، ووافقهم السامعون عليها فالزمهم بتصديقهم من حيث لا يشعرون . ونحن الآن نقتص مذاهب الذين يقولون بانه تعالى لا يعرف الجزئيات وحججهم ، ثم نشرع فى اعتبارها والنظر فيها ، وفى مذهب القائلين بخلافها ، ونجرى على العادة فى توفية كل مذهب حجته مما قيل ومما لم يقل ، حتى ينتهى النظر الى الحجة التى لا مرد لها ، ولا حجة تبطلها ، فنعرف الحق منها »(٣٠) .

٣ — نبذ التقليد :

من الحق القول بأن التقليد فى مجال الفكر ، فضلا عن أن فيه إلغاء للعقل ومبادراته الممكنة ، فإنه فى الوقت نفسه يضع سلاسل وأغلالا

---

(٢٩) انظر المعتبر ، جـ ٣ ، ص ٤٩ ، ص ٣٥ — ٣٧ ، ص ٥٦ — ٥٧ ، ص ٥٨ .

(٣٠) أبو البركات : المعتبر ، جـ ٣ ، ص ٦٩ .

تحول دون فعاليات العقل فى التقدم خطوة نحو التجديد ، وهذا في ذاته يعد أكبر لطمة توجه الى العقل الانساني(٣١) ٠

وفي نظرنا ، فإن التقليد في الآراء والمذاهب الفكرية لا يتسق مع الاتجاه النقدى بحال من الأحوال ، لأن المقلد إذا كان قد ارتضى لنفسه التبعية دونما إعمال للعقل حتى فى فهم ما يعتنقه تقليدا ، فكيف يسوغ له عقلا ومنطقا أو يتحقق له اقتدارا ، نقد آراء الآخرين !٠

إن العمل النقدى ، فوق أنه يتطلب فهما دقيقا وتمثلا واعيا من جانب الناقد ، لمذهبه هو أولا ، فإنه يستوجب فهما واستيعاباً بنفس الدرجة لآراء ومذاهب الآخرين ممن يزمع توجيه انتقاداته اليهم ٠

وإذ يدرك أبو البركات عدم جدوى التقليد ، وتعارضه مع منهج الاعتبار القائم على النظر العقلى الحر ، نراه ينعى على المقلدين الذين عطلوا عقولهم وأجهدوا أنفسهم فى تقليد غيرهم وحججهم دون نظر وتأمل ، ويرى بأن ذلك كله لا طائل من ورائه ، وانه يجب على المفكر الحق أن يعمل ذهنه ويتأمل بعقله وينظر بعمق فيما يتعرض له من بحث للمسائل التى يهمه بحثها ، ولا يقلد غيره فيعتنق مالم يؤده اليه نظره العقلى وتأمله الذاتى ، وفى هذا يقول فى معرض دراسته لمسألة وجود العالم : « ٠٠٠ فهذه هى المذاهب المقولة ، والحجج المنقولة والمعقولة ، لا يحتاج المقلد الى شىء منها ، فإن الذى يقلد فى الحجة يتعب نفسه بسماع الحجة ، وتقليد المذهب دون الحجة يكفيه ، ويتساوى حاله من جهة التقليد لهما فكله تقليد ٠ والذى يعقل ما يسمع ، ويتأمله بذهنه ، ويتبعه بنظره ، فقد سمع الحجة وعرف الحجة »(٣٢) ٠

ويعتبر نبذ التقليد نقطة التقاء أخرى بين منهج الاعتبار عند أبى البركات والمنهج القرآنى القويم ٠ ذلك أن الاسلام ينبذ التقليد الأعمى والجمود الفكرى والتبعية البغيضة ، ويأمرنا القرآن بإعمال العقل فى الاجتهاد ليفتح الأبواب واسعة لادراك الحقائق ، وينعى على المقلدين

---

(٣١) د٠ عاطف العراقى : ثورة العقل فى الفلسفة العربية ، ص ١٦ ، ط ٤ ، القاهرة ١٩٧٨م ٠

(٣٢) أبو البركات : المعتبر ، جـ ٣ ، ص ٤٨ ٠

تقليدهم حتى لا يستنيم العقل الى اتبــاع قول أو رأى أو معتقد أو مذهب إلا أن يقوم عليه دليل .

وعلى ذلك يرفض الاسلام التقليد الأعمى لأنه يؤدى الى تعطيل العقل وملكاته ، ومسخ الشخصية الانســانية واستقلالها ، وشــيوع الضلالات والأباطيل فى المعارف والاعتقادات على السواء . والقرآن بنبذه التقليد ونهيه عنه إنما يدعم حرية الفكر واســتقلال النظر ومشروعية العقل فى فعالياته المتجددة ، وتحطيم كل القيود الاجتمــاعية والسلطوية التى تحــول دون معــرفة الحق واعتقاده . ومن ثم ينهى القرآن عن هذا التقليد سواء كان هذا التقليد إتباعا لآراء الأســلاف أو مجاراة لما درج عليه أهــل العصر ، أو خضوعا لسلطة أيا ما كانت ، أو كان هــذا التقليد نتاجا لظن خاطئ أو لاتباع الأهواء والميول الذاتية .

وتبدو لنا هــذه المعــانى جميعا فى آيات قرآنية عديدة . منها قوله تعالى : **« ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير . وإذا قيل لهم اتبعوا ما انزل الله قالوا بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا ، او لو كان الشيطان يدعوهم الى عذاب السعير »** (لقمان : آية ٢٠ — ٢١) ، وقوله تعالى : **« ... اولو كان آباؤهم لا يعلمون شيئا ولا يهتدون »** (المائدة : آية ١٠٤) ، وقوله تعالى : **« أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون »** (البقرة : آية ١٧٠) . هذا فيما يخص وجوب نبذ التقليد حتى ولو كان اتباعا للسلطة الأبوية التى هى أقرب السلطات وأشــدها تأثيرا فى نفس الأنسان .

وكذلك ينهى القرآن عن اتباع الهوى ، وذلك فى قــوله تعــالى : **« أرأيت من اتخذ إلهه هــواه ، افانت تكون عليه وكيلا ، ام تحســب ان اكثرهم يســمعون او يعقلون إن هم إلا كالأنعام بل هم اضــل ســبيلا »** (الفرقان : آية ٤٣ — ٤٤) . وكذلك ينهى عن اتباع الظن فى قوله تعالى : **« إن يتبعون إلا الظن وما تهــوى الأنفس »** (النجم : آية ٢٣) . وقــوله سبحانه : **« وما يتبع اكثرهم إلا ظنا ، إن الظن لا يغنى من الحــق شيئا »** (يونس : آية ٣٦) ، وكذلك قوله تعالى : **« ان يتبعون إلا الظن وان هم إلا يخرصون »** (يونس : آية ٦٦) .

وعلى هذا النهج القرآني في نبذ التقليد والنهي عنه مالم يدرك المقلد الأطر المرجعية والأصول التي استند اليها من يقلده فيما ذهب اليه ، أقول ، على هذا النهج سار أئمة الفقه وأصوله حيث استمسكوا بهذا المبدأ ومن ثم ظهرت الاجتهادات الكثيرة في الفقه وفي علوم الدين • فها هو الامام الشافعي (ت ٢٠٤ هـ) ينعى على المقلدين حتى لو أصابوا الحقيقة فيقول : « من تكلف ما جهل ولم تثبته معرفته ، كانت موافقته للصواب غير محمودة وكان بخطئه غير معذور إذا فطن فيما لا يحيط بالفرق بين الخطأ والصواب »؛ وقال الامام أحمد (ت ٢٤١ هـ) لأبي داود السجستاني : « لا تقلدني ولا تقلد مالكا ولا الأوزاعي ولا النخعي ولا غيرهم ، وخذ الأحكام من حيث أخذوا » • وها هو الامام أبو حنيفة (ت ١٥٠ هـ) يقول : لا يحل لأحد أن يقول بقولنا حتى يدرك من أين قلناه » • ويقول الامام مالك (ت ١٧٩ هـ) : « ليس كلما قال رجل قولا وإن كان له فضل ، يتبع عليه فإن الله عز وجل يقول : « **الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه** » • ويقول الامام ابن الجوزي (ت ٥٩٧ هـ) بأن « في التقليد إبطال منفعة العقل ، لأنه خلق للتأمل والتدبير • وخليق بمن أعطى شمعة يستضيء بها ألا يطفئها ويمشي في الظلمة » • ويقول الامام الغزالي (ت ٥٠٥ هـ) في « المستصفى » : « اطرح المذاهب ، فليس مع واحد منهم معجزة يترجح بها جانبه ، فاطلب الحق بطريق النظر لا بالتقليد » •

٤ ـ النزعة النقدية :

تمثل النزعة النقدية ملمحا بارزا من ملامح شخصية أبي البركات العلمية ، كما تعد خاصة من أهم خصائص منهج الاعتبار عنده من حيث إن الصلة بين هذه النزعة وبين الاعتبار وثيقة الى حد يمكن معه القول بأن التزامه بمنهج الاعتبار يلزمه بأن يسلك مسلكا نقديا تجاه المذاهب السابقة ، ذلك أن الاعتبار يحرر صاحبه من قيود الوراثة المذهبية من حيث يقوم على النظر العقلي الحر ، ويؤكد حرية العقل وطلاقته في التأمل والنظر دونما اكتراث بشيء إلا بالموضوعية وبما يؤدي اليه هذا النظر والتأمل من نتائج سواء جاءت موافقة أو مخالفة لآراء ومذاهب السابقين •

وإذا عرفنا أن مفهوم النقد لا يقتصر على مجرد الكشف عن السلبيات والأخطاء فى الآراء والمذاهب المستهدفة بالنقد ، وإنما يتسع هذا المفهوم ليتجاوز هذا الحد الى حيث اكتشاف الآراء والأفكار الايجابية وإبرازها أيضا ، أقول ، اذا عرفنا ذلك ، أدركنا كيف أن أبا البركات فى نقده لمذاهب السابقين من المتكلمين والفلاسفة ، كان يكشف عما فى هذه المذاهب من عورات وما تتضمنه بعض الآراء من أباطيل ، دون أن يغفل عن الاشارة الى الآراء التى اختبرها بعقله واعتبرها بنظره فوجد أنها صحيحة تحظى بدرجة من اليقين والحق تلزمه الاقرار بها والاعتراف بأحقيتها بالاعتقاد والتقدير .

ولا يتسع المجال هنا لضرب أمثلة لتجسدات هذه النزعة النقدية لأن ذلك يقتضى عرضا للرأى أو المذهب الذى ينتقده أبو البركات ثم عرضا لآراء أبى البركات التى انتقد بها هذا المذهب ، ولذلك فإنى أحيل فى هذا المجال الى ما سنراه فى مواضع كثيرة من هذا البحث حيث تظهر لنا جليا نزعته النقدية وتأديتها ، وحسبنا هنا الاشارة الى أن هذه النزعة تبدو أوضح ما تكون فى نقده لنظريه الصدور المشائية ونقده لمذاهب السابقين فى العقل الفعال ، وفى ماهية النفس وقواها وتبلغ هذه النزعة ذروتها ضد الفلسفة المشائية بزعامة ابن سينا بدرجة جعلت مفكرا فارسيا من أعيان القرن التاسع عشر يقول ما يفيد بأن مأثور ابن سينا أوشك أن ينهار تحت ضربات أبى البركات وفخر الدين الرازى قبل أن يحييه نصير الدين الطوسى(٣٣) .

وكذلك تبدو هذه النزعة لأبى البركات فى مباحثه الالهية الخاصة بوجود الله وصفاته وأفعاله وما يتصل أيضا بمشكلة الخلود .

تلك كانت فى نظرنا أهم خصائص منهج الاعتبار وضوابطه عند أبى البركات البغدادى ، وقد نلاحظ أن ما ذكرناه خاصا بهذا المنهج سواء من حيث مفهومه ودلالاته أو دعائمه أو خصائصه وضوابطه إنما يمثل منظومة منهجية تتكامل محاورها ومضامينها ودعائمها لتخرج لنا فى الأخير

---

(٣٣) نقلا عن بينيس : مادة « أبو البركات » بدائرة المعارف الاسلامية جـ ٦ ، ص ٤٢٨ ، كتاب الشعب .

نسقا واحدا ذات ملامح وخصائص تجعله منهجا خاصا بأبى البركات وهو الذى آثر أن يطلق عليه « الاعتبار » .

وقبل أن نترك هـذا المجال ، فإن هناك ملاحظة بخصوص هـذا المنهج لم أشأ أن أتركها تمر دون إثارتها ومحاولة تفسيرها . ذلك أننى لاحظت أن أبا البركات فى كل مباحثه قد احتفى بالدليل العقلى البرهانى احتفاء أقل ما يوصف به أنه وظفه لدعم وإثبات صحة آرائه التقريرية والنقدية فى كل مسألة من المسائل التى طرحها للبحث ، وهـذا فى ذاته أمر مقبول ولازم فى منهج فلسفى يضع العقل ومعطياته وأدلته على رأس الدعائم التى يقوم عليها ، وبالمقابل وعلى العكس من ذلك ما لاحظناه من اهمال أبى البركات استخدام الدليل النقلى الشرعى (السمعى) إهمالا تاما ، فلا نجد له دليلا نقليا واحدا فى أية مسألة ، فلم تتضمن مباحثه أية إشارة الى نصوص دينية من القرآن أو السنة المطهرة على سبيل البرهنة والاستدلال بها ، ولا حتى على سبيل مجرد الاتتناس ببعض هذه النصوص مثلما فعل الفلاسفة الاسلاميون قبله أمثال الكندى والفارابى وابن سينا واخوان الصفا والغزالى ، وان كان قد أشار أحيانا الى أن ما انتهى هو اليه بنظره واعتباره يتفق مع ما جاء به الوحى الالهى على لسان الرسل والأنبياء .

والرأى عندى ، هو أن هذا الموقف من جانب أبى البركات يرجع الى أحد احتمالين أو إليهما معا .

أما الاحتمال الأول ، فهو أنه ربما أراد أن ينأى بنفسه تماما عن منهج المتكلمين وهو المنهج الجدلى الذى يبـدو أنه لم يرق له ، ومن ثم انتهج نهجا فلسفيا خالصا هو الاعتبار الذى قوامه - كما ذكرنا - التأمل الذاتى والنظر العقلى الحر ، والقـراءة العقلية لكتاب الوجود . ولم يضـع فى حسبانه وهو الفيلسوف ، أن تجىء تأديات هذا المنهج موافقة أو مخالفة لمذهب كلامى أو حتى فلسفى سابق ، فحسبه ما أدى اليه اعتبـاره وتأمله ونظـره .

ولا يعني هذا ، أن التراث الديني والكلامي والفلسفي كان بعيدا عن ذهنه وفكره خلال مباحثه ودراساته تلك ، وإنما يعني أنه آثر حرية الفكر والنظر ، وإن لم يستطع أن ينأى بنفسه تماما عن التأثر بهذا التراث ، لأن التأثير والتأثر قد يقع بشعور وإرادة ، وقد يقع للمفكر لا شعوريا ولا شك في أنه مما يروق لأبي البركات كثيرا أن يجد منهجه الفلسفي قد ساقه أو أدى به الى آراء تتفق في أحيان كثيرة مع مقتضيات العقيدة الدينية الاسلامية التي اعتنقها ومات عليها ٠

وأما الاحتمال الثاني ، فيتمثل في القول بأن أبا البركات قد أهمل الدليل النقلي لأنه رأى أن هذا الدليل لا يفيد اليقين بل يفيد الظن ، أو أنه اعتبره دليلا اقناعيا لا برهانيا ٠ واذا صح هذا الاحتمال ، فإن أبا البركات لم يكن بدعا في هذا ، فقد سبقه الى مثل هذا التصور للدليل النقلي كثير من المتكلمين وخاصة المعتزلة ، وتابعهم في ذلك متأخرو الأشاعرة ، كما سبقه الى ذلك أيضا بعض فلاسفة الاسلام وخاصة الفارابي وابن سينا اللذين كانا أيضا يشيران أحيانا الى بعض ما جاء به الوحي من نصوص دينية دون أن يهتموا بإقامة أدلة شرعية في مباحثهم المختلفة ٠

وأخيرا ، فلعلي أكون قد وفقت فيما تصورته منهجا لأبي البركات وفيما ذكرته بخصوصه من أفكار استخلصتها من إشارات وتلميحات لأبي البركات في ثنايا كتابه « المعتبر » ٠ وأيا ما كان الأمر فإنه انتهج ـ كما قلنا ـ منهجا فلسفيا بكل ما يعتمد عليه مثل هذا المنهج من مقومات وما يتميز به عن غيره من المناهج الأخرى الكلامية والصوفية من خصائص تجعله جديرا بالتقدير وجديرا بأن ينسب الى فيلسوف كأبي البركات ٠

البــاب الثــانى

وجود الله (واجب الوجود)

ويشـتمل على ثلاثة فصول :

الفصل الأول : إثبـات واجب الوجود ووحدانيته •

الفصل الثاني : صـفات واجب الوجـود •

الفصل الثالث : الغائيـة فى الفعـل الالهى •

الفصل الأول

اثبات واجب الوجود

ويشـــتمل عـلى :

اولا : ادلة ابى البركات عـلى وجود الله

ثانيا : وحـدانية الله (المبـدأ الأول)

اولا ـ ادلة أبي البركات على وجود الله :

يمهد أبو البركات لأدلته على وجـــود الله بالحديث عن طرق معرفتنا بالله تعالى ويقول بأن هذه المعرفة تكون بطريقين :

احــدهما : طريق المعرفة الاستدلالية ، وهذه تتم بضربين : أولهمـــا النظر في المبادىء والعلل ووجوب تناهيها في البداية الوجودية والنهـــاية النظرية الى مبدأ أول وعلة أولى ، والثاني ، النظر في الوجود من جهـــة الواجب والممكن ، وما يلزم في النظر من وجود واجب الوجود بذاته وتقدم وجوده على وجود كل ممكن الوجود بذاته وواجب الوجود بغيره ؛

أما الطريق الثاني : لمعــرفة الله تعالى فهو طــريق المعــرفة الذاتية ، ويصرح أبو البركات بأن هـــذه المعرفة لم تحصـــل لنـــا حتى الآن بذاته ولا بذاتياته ، أما بذاته فلأنا لم ندرك ذاته الوحدانية ، وأما بذاتياته فلأنه واحد لا تركيب فيه ، فلا ذاتيات له ، واذا كنا نثبت لله تعالى أوصافا ذاتية كالعلم والقدرة والحكمة والجود وما إليها ، فليس معناها أنها أجزاء ذاته ، كالحيوان والناطق بالنسبة للانسان ، بل معناها أن هذه الصفات له بذاته وعن ذاته لا بغـــيره ولا عن غيره ، والشيء الذى له أوصـــاف ذاتية وفي حقيقته تركيب ، قد تدل عليه العبارة فيعرف بها معرفة ذاتية اذا وصفته بذاتياته التي له فيها نظائر ، كمن يعرف الشيء بجنسه وفصله أو مباينة فيه أو من بسيط هو نظيره ، والله تعـــالى لا شريك له ولا نظير ولا شـبيه ولا ضد حتى يمكن أن نعرفه بالممـــاثلة من الشريك والمشابهة من النظير والشبيه والمباينة من الضد ، فلم يبق إلا أن تكون معرفتنا بالله معـــرفة استدلالية(١) .

وعلى هذا ، يقدم لنا أبو البركات أدلة عقلية كثيرة لاثبات وجود الله تعالى ، وقبل أن نعرض لها تفصيلا ، نعرض لنقده لدليل المحـــرك الأول لأرسطو على وجود الله .

نقد دليل المحرك الأول لأرسطو :

يرفض أبو البركات دليل المحرك الأول الذى قال به ارسطو لاثبـات وجود الله ، ويصرح بأن الاستدلال على وجود المبدأ الأول من الحركة عـلى

---

(١) أبو البركات : المعتبر ، جـ ٣ ، ص ١٢٢ ـ ١٢٣ .

ما قاله أرسطو ليس بحق ولا هو الطريق الخاص الى معرفة الله تعالى .
وكان أرسطو قد أقام دليله على أساس أن الحركة والزمان قديمان أزليان باعتبار أن وجود الزمان متعلق بوجود الحركة وهو دائم لا يتصور له بداية ولا نهاية زمانيتـــان ، فالحركة التي يتعلق وجـــوده بوجودها دائمة غير متناهية أيضا ، وكل حركة لابد لها من محرك ، والمحركات لا تتسلسل الى مالا نهاية بل تنتهي الى محرك أول لا يتحرك وهو العلة الأولى لكل متحرك وهو الله تعالى • ويرى أرسطو أن المحرك الأول ليس محركا مباشرا لمـــا دونه من المحركات بمعنى أنه لا يباشر الحركة لكنه يحرك غيره كما يحرك العاشق المعشوق بشوقه اليه ، فالكل يتحرك عشقا وشوقا الى المحـــرك الأول لا بأن يحركه المحرك الأول حركة مباشرة •

وينتقد أبو البركات دليل أرسطو هذا من ثلاثة وجوه :

أولهـا : إن الزمان لا تعلق لوجـوده بالحـــركة في السببية ولا هو عرض لها بحيث يتبع وجوده وجودها وأنه كما أن الحركة في زمان ، كذلك السكون في زمان ، ولا يرتفع وجـــود الزمان بارتفـــاع الحركة ولا يجب وجوده بوجودها •

ثانيا : إن قول أرسطو بأن سبب الحركة في المتحركات من المحـرك الأول لا يكون بمباشرته الحركة بل بما هو معشوق للمتحركات ، فعشقها له هو علة حركتها ، هو قول باطل ، لأن المتحرك إنما يتحرك بشوقه الى معشوقه ليتقرب منه بحركته اليه ، ويطمع في إنتهائه الى مشاهدة معشوقه أو مجاورته في مكانه إن كان ساكنا أو يتبعه ان كان متحركا • والحـــركة الدورية للفلك لا تنقل الفلك من مكان الى مكان ، بل تحرك الى جهة وعنها ، بالدور • فإن كان المطلوب في الجهـــة التي اليها الحركة فلماذا يتحـــرك الفلك عنها ، وان كان المهروب منه ، فلماذا يتحرك اليها • إن الحــــركة تكون من والى ، وما من شيء هو (من) في الحركة الدورية إلا وهو (الى) بعينه وإلا لمـــا كانت حركة دورية • وعلى هذا يبطل القول بأن المحرك الأول يحرك المتحركات بالعشق والشوق من جانبها اليه • ولو أن أرسطو وأتباعه قالوا إن الفلك يتحرك لامتثال أمر المحرك الأول وطاعته في تقديره لكان أولى وأسهل ، فإن هذا يوضح لنا ونعرف منه لماذا يتحرك وكيف يتحـــرك ولا نعرف العلة في الحركة وكيفيتها مما قالوه •

ثالثا : إننا وإن سلمنا بأن الزمان قديم أزلى وأنه مقـــدار الوجود أى مقدار الحركة والسكون لا مقدار الحركة فقط ، فإن معنى ذلك أنه موجود سواء كانت هناك محركات ومتحركات أو لم يكن • ومن ثم فإن تعـــليق وجوده على وجود الحركة وتعليل لا تناهيها ودوامها بلا تناهيـــه ودوامه قياس خاطىء ، ولا يفيد وجود ارتباط سببى بينهما يفيد كون أحـدهما علة للآخر ، لأن قدم الزمان وأزليته لا يفيد بالضرورة قدم الحـــركة وأزليتها ولا تناهيها •

وعلى هذا ، لم تدل الحركة على المبدأ الأول كما قالوا ، خاصـــة وأن الزمان لا تعلق لوجوده بوجود الحركة فى السببية(٢) •

ونعرض الآن لأدلة أبى البركات على وجود الله وهى أربعة أدلة :

١ ــ دليـــل الممكن والواجب :

يمهد أبو البركات لهذا الدليـــل ببيان أن الموجود يقال على وجهـــين : أحدهما موجود الأعيان والآخر موجـــود الأذهان • أما موجود الأعيـــان فيعرف بالادراك ويدل بعض المدركين عليه بعضا ويهديه اليه حتى يشاركه فى إدراكه ، ويكون الشىء المدرك واحدا بعينه مشـــترك لكثير من المدركين كالشمس التى يراها الناس وغيرهم واحدة بعينها لا تتكثر بإدراكهم لها • وليس كذلك الموجود فى الأذهان ، فإن الانسان الواحد ينفرد بإدراك مافى ذهنه خاصة ولا يشاركه إنسان آخر فيه ، وإن شاركه فإنما يشاركه بأن يدرك فى ذهنه مثل الذى أدرك صاحبه فى ذهنه ، ولا يكون الشىء المدرك هو هو • وبهذا تفترق موجودات الأعيان وموجودات الأذهان •

ثم يعرض الدليل على أساس أن الموجود فى الأعيان : إما أن يـكون موجودا بذاته وعن ذاته ، وإما أن يكون وجوده وجب عن غيره ولم يجب عن ذاته • وهذه القسمة لا يخرج عنها أى موجود عينى • والموجود بغيره لا يخلو إذا اعتبرت ذاته بذاته ، إما أن يجب له وجود بذاته أو يمتنع أو يمكن • فإن امتنع وجوده بذاته استحال أن يوجد بغيره لأن معنى الممتنع هو الذى

---

(٢) أبو البركات : المعتبر ، جـ ٣ ، ص ١٣٠ ــ ١٣٢ •

لا يمكن أن يوجد البتة . وإن وجب وجوده بذاته ، لم يحتج فى وجوب وجوده الى غيره لأن الحاصل الموجود لا يستانف له الحصول والوجود ، وإذن فالموجود بغيره لا يكون وجوده بذاته واجبا ولا ممتنعا .

وما ليس بواجب ولا ممتنع ، فهو ممكن الوجود ، فالموجود بغيره ممكن الوجود بذاته . وعلى هذا ، فإن كل موجود ، إما واجب الوجود بذاته وإما ممكن الوجود بذاته . والممكن الوجود بذاته إذا صار موجودا ، فوجوده من غيره وبغيره . وذلك الغير الموجب لوجود الممكن الوجود إذا كان ممكن الوجود أيضا ، فحكمه كذلك أيضا فى وجوب وجوده بغيره ولا يوجد ما نسب اليه إلا بعد وجوده بعدية بالذات ، فكل آخير من الموجودات بالغير ، متأخر الوجود عما يوجد به ، ولا يوجد إلا بعد وجوده بعدية بالذات ، ووجود المتأخر منها يدل على وجود المتقدم ، ووجود المتقدم حاصل قبل حصول المتأخر من حيث أنه لا يوجد إلا بعده بعدية بالذات وان لم تكن بالزمان .

فإذا حصرنا جملة كل ممكن الوجود ، كانت كل الممكنات لا توجد إلا بعد غيرها ، وذلك الغير الخارج عن هذه الجملة لا يكون ممكن الوجود ، وكذلك لا يمكن أن يكون ممتنع الوجود لأن ممتنع الوجود مستحيل أن يوجد فكيف يوجد ويوجد غيره ، واذن فهو واجب الوجود . فكل ممكن الوجود بذاته إنما يوجد عن واجب الوجود بذاته . فثبت بهذا وجود واجب الوجود بذاته وهو الله تعالى(٣) .

ونلاحظ أن هذا الدليل لأبى البركات يستند الى نفس الفكرة التى أقام عليها ابن سينا من قبل دليل الواجب والممكن لاثبات وجود الله ، وهى فكرة الامكان والوجوب وتقسيم الموجود الى ما هو ممكن بذاته واجب بغيره وما هو واجب الوجود بذاته ، وأن الاقرار بوجود الممكن بذاته وجودا بالفعل يؤدى الى إثبات موجده وهو واجب الوجود بذاته .

ويثير أبو البركات ما قد يثار من اعتراضات على هذا الدليل ، ويدفعها ويبطلها واحدا بعد الآخر ليثبت أحقية دليله واستناده الى منطق البرهان . من أهم هذه الاعتراضات ما قد يقال من أنه لا ضرورة تلزم بأن الممكن

---

(٣) أبو البركات : المعتبر ، ج ٣ ، ص ٢١ — ٢٢ .

بذاته ينتهي بنا حتما الى الواجب الوجود بذاته ، إذ قد يكون ممكن عن ممكن آخر غيره وهكذا يتسلسل الأمر الى مالا يتناهى من الممكنات ومن ثم لا نصل الى ما هو واجب الوجود بذاته ٠

ويدفع أبو البركات هذا الاعتراض على أساس أن اللامتناهي إنما هو في الأوهام لا في الوجود ، وأن المعترض قد قدم الأواخر على الأوائل من حيث أدركها ووجدها ، لكن واقع الأمر هو أن الوجود تتقدم فيه الأوائل الأواخر فتبتدىء من أول وتنتهي الى ثان ، فذلك الأول هو الواجب الوجود بذاته ، فوجود الممكن دليل على وجود الواجب ٠ فإن زعم المعترض أنه لا أول هناك، قيل له ما ذكرناه قبلا من أن ممكنات الوجود كلها ، كل واحد واحد منها لا تحصل إلا بموجد ، وذلك الموجد لا يكون منها وإلا دخل في حكمها ، فليس هو منها ، فهو واجب الوجود بذاته ٠

فوجود الممكن الوجود أدل على وجود الواجب الوجود بذاته منه على وجود نفسه ٠ فالحوادث من الموجودات أدل على القديم منها على أنفسها ٠ وأيضا فإنه إذا كان وجود الثاني من وجود الأول ، فوجود الثاني دليل على وجود الأول ، ووجود الأول علة لوجود الثاني ودليل على وجوده أيضا إذا تمت عليته ، لأن كل علة تامة العلية تدل على وجود معلولها ، فلا يوجد الثاني إلا وقد وجد الأول ، فمن وجود الثاني يعلم وجود الأول علما يقينيا ، وكذلك في الثالث والرابع ٠ وكثرة الوسائط في ذلك بين الآخر والأول لا تقدح في العلم بوجود الأول من العلم بوجود الآخر ودلالته عليه ، فآخر المعلولات التي يعلم العالم بوجودها ، يدل كذلك على وجود أول العلل(٤) ٠

٢ ـ دليل العلية :

يقوم هذا الدليل على فكرة محورية هي فكرة العلية وتناهي العلل الوجودية الفاعلة القريبة والمتوسطة والبعيدة الى علة أولى لا علة لها هي الله تعالى ٠ ويعرض أبو البركات دليله هذا على أساس أن وجود المعلول يحصل مع وجود علته إذا كانت على تمام عليتها ٠ فإذا فرضنا للمعلول (ج) علة هي (ب) ، ولعلته علة هي (أ) ، فليس يمكن أن تتسلسل العلل الى غير نهاية في الوجود ، لأن المعلول ج وعلته ب وعلة علته أ إذا اعتبرت

---

(٤) أبو البركات : المعتبر ، ج ٣ ، ص ٢٤ ـ ٢٥ ٠

جملتها في القياس الذى لبعضها الى بعض ، كانت علة العلة التى هى آ . علة مطلقة للعلة ب والمعلول جـ وهما معـــلولان لها ، ولهما اليها نســبة المعلولية وان اختلفا فى كون أحدهما بواسطة والآخر بغير واســطة ، وان كثرت الوسائط ففيها لا محالة علة قريبة للمعلول الأخير ، وتكون هذه العلة علة لشىء واحد هو هذا المعلول الأخير وهو ليس بعلة لشىء .

وعلة العلة تتميز عن العلة ، لا فى كونهـــا علة ، بل لكونهـــا علة لشيئين هما : المتوسط الذى هو معلول آ وعلة جـ ، والأخير الذى هو جـ ، وكذلك علة علة العلة كلما ازدادت الوسائط كانت العلة الأولى علة للمعلول الأخير مع الوسائط بأسرها ، لا ترتفع عنها علية الأخير بعلية الوسـائط بل تكون هى بالعلية أحق من الوسائط التى وجودها عنها ، ووجود المعلول الأخير الذى يوجد عنها . فلا يمكن ولا يعقل وجود الأخير إلا بعد وجــود ما قبله ، فما قبله معقول الوجود قبل وجوده وما قبل القبل أولى بوجوده من وجود ما قبل . ولا يمكن القول بأن هذه العلل لا تتناهى الى علة أولى ، لأن ذلك معناه أن العلة الأولى غير موجودة ، ورفعها يوجب رفع الوسائط التى هى معلولات لها وعلل لما بعدها ، ورفع الوسائط يوجب رفع المعلول ، وهذا باطل لأن المعلول الأخير موجود بالفعل ، فثبت من وجود المعلول الأخير وجود العلة الأولى .

ويصوغ أبو البركات هذا الدليل زيادة فى الايضاح ، فى صورة قياس شرطى استثنائى مؤداه أنه إن كان المعلول الأخير موجودا ، فالعلل الوسطى موجودة ، وان كانت هذه الوسائط موجودة ، فالعلة الأولى موجودة ، وعلى ذلك فإن كان المعلول الأخير موجود فالعلة الأولى موجودة ، لكنه موجـــود بالفعل ، فالعلة الأولى موجودة لا محالة . ولما كان استثناء نقيض التـــالى يوجب نقيض المقدم ، فإن عكس الشرطية السابقة يكون هكذا : إن لم تكن العلة الأولى موجودة ، فالوسائط التى هى علل ومعلولات غير موجودة ، وان لم تكن الوسائط موجودة فالمعلول الأخير ليس بموجود ، فإن لم تكن العلة الأولى موجودة فالمعلول الأخير ليس بموجود ، لكنه موجود هذا خلف ، وهو باطل نتج عن قولنا إن العلة الأولى غير موجودة ، فثبت صحة النقيض وهو أن العلة الأولى موجودة ، وهى المبدأ الأول أو واجب الوجود بذاته(٥) .

---

(٥) أبوالبركات : المعتبر ، جـ ٣ ، ص ١١٧ — ١٢١ .

ويلفت أبو البركات نظرنا الى أن ما قيل فى تناهى العلل الفاعلية الى علة أولى هى الله ، يدعم ما يقال فى العلل الغائية ووجوب تناهيها الى غاية أولى هى الغاية القصوى التى هى الله تعالى . فمن جوزاللاتناهى فى العلل الفاعلية فقد أبطلها بإبطال وجود أول لها والثانى بعد الأول وهكذا حتى يبطل المفعول الأخـير وقد ثبت استحالة ذلك . ولا ينطبق هـذا الكلام ولا يصح بالنسبة للعلل الصورية ، لأنه وان كانت العلل الصورية متناهية ، إلا أنها لا تنتهى الى صـورة أولى لأنه لا صورة للصـورة حتى تنتهى الى صورة أولى ، وذلك بعكس الهيولى فهى تنتهى الى هبوط أولى عنها تكون هيولات كل ماله هيـولى من الموجـودات وهو ما أثبته أبو البركات فى الطبيعيات .

وتجدر الاشارة الى أن دليل العلية هـذا لأبى البركات ، يقترب فى مضمونه من دليل مماثل له عند الكندى الفيلسوف حيث أثبت وجـود علة واحدة للموجودات جميعا ليست داخل العـالم وإنما هى خارجه(٦) . غير أنا نرى أن فكرة العلية بمعناها ومدلولاتها عند أبى البركات من حيث ارتباط موجودات العالم كلها بسلسة من العلل والمعلولات تنتهى الى علة أولى ، لم تكن مما ورد بذهن الكندى على هذا النحو . وقد أشار أستاذنا الدكتور عاطف العراقى الى أن الكندى لم يكن بذهنه كل المعانى والمدلولات التى تتعلق بفكرة الرباط بين الموجودت عندما قدم دليله على وجـود الله استنادا الى فكرة العلية(٧) .

٣ ـ دليـل العـلم :

هذا الدليل يماثل فى نسقه دليل العلية بل ويقوم على فكرة العلية أيضا ، لكن ليس بمدلول العلية فى الوجود ، بل بمدلولها فى العـلم ومن

---

(٦) الكندى : رسالة فى وحدانية الله وتناهى جرم العالم ، ص ٢٠٧ ضمن « رسائل الكندى الفلسفية » ج ١ تحقيق د. محمد عبد الهـادى أبو ريدة ، القاهرة ١٩٥٠م .

(٧) د. عاطف العراقى : مذاهب فلاسفة المشرق ، ص ٨٣ ، ط ٧ ، القاهرة ١٩٨٣م.

جهته . وفي هذا يقول بأنه كما انتهى النظر في الوجود المعلول الى إثبات العلة الأولى غير المعلولة ، فكذلك ينتهي النظر العلمي من عالم يتعلم من غيره ، وهذا من غيره وهكذا حتى ينتهي بنا النظر الى العالم بذاته الذي علمه لذاته بذاته من ذاته وهو الله تعالى • والطريق فيه بعينه هو طريق العلة والمعلول في العلم من العلم حتى يكون الأول الذي هو علم الاول علة لكل علم بعده ، وهو غير معلول لعلم ما قبله • وقد قال بذلك الأنبياء والعلماء ، ومحجته واضحة في حدود العلة والمعلول •

ذلك أن المتعلم الذي نراه يستفيد علما من الناس ، إنما يصح أن يستفيده من عالم ، وذلك العالم يستفيد من عالم قبله ، ولا يمضي ذلك الى غير نهاية لما يلزم عنه من المحال الذي لزم من جهة العلة والمعلول ، واذن فإن سلسلة العالم والمتعلم لابد وأن تنتهي بنا الى عالم غير متعلم من غيره ، فذلك هو العالم الأول الذي علمه له بذاته ، كما كان وجوب وجوده له بذاته • ولسنا نقول ذلك في العلوم التي يتعلمها التلميذ من أستاذه على سبيل النقل ، بل على طريق التصور والعقل • لأن التعليم من الاستاذ يكون بإيراد ألفاظ يسمعها المتعلم ويتصور معانيها ويفهمها ، فالألفاظ من الاستاذ ، لكن السمع والتصور والفهم والتعقل ليس من الاستاذ • وكذلك التصديق والقبول والرد ، وهو التعليم الحقيقي لا يكون من الاستاذ •

ومعطي الفهم والتصور والتعقل والحكم بالتصديق والقبول والتكذيب والرد والاستدلال ، هو المعلم الحقيقي وهو الله • لأننا نرى أن الاستاذ المعلم من البشر لا يقدر على تعليم كل علم لكل متعلم إلا بمقدار ما لدى المتعلم من هذه القدرات الذهنية • ولا يمكن لأحد أن يزعم بأن هذه القدرات إنما هي من المعلم البشري ، لأنا نرى بعض الناس قد أوتي من هذه القدرات حظا وافرا بحيث يستغني بنفسه عن كل معلم من البشر ، وبذلك يتفوق كثير من التلاميذ على أساتذتهم ويصير ممن لا استاذ لهم فاضلا حكيما ، ولا يزعم أحد أن هذه القدرات لدى من أوتيها ، إنما هي له بذاته وعن ذاته ، وإلا لكان كل انسان قد منحها لنفسه باعتبار أن وجودها فيه وله أفضل من عدمها ، ومن جهة أخرى ، فقد ثبت أنه كان من الأنبياء من هو أمي ولم يتلق علما على يد أستاذ أو معلم ، ومع ذلك فاق علمه علم كل عالم من البشر ، وثبت أن علمه كان من لدن العالم الأول العليم الخبير •

وعلى هذا ، ثبت أن طريق النظر في العلم والعالم والمتعلم ، يؤدى بنا الى إثبات وجود العالم الأول الذى له الكمال في علمه وفي ذاته وفي وجوده وهو الله تعالى(٨) •

٤ - دليل النظام في الكون :

يقدم أبو البركات دليلا رابعا يصل اليه من طريق الحكمة العملية وهو دليل النظام في الكون • ويستند الدليل الى أن ما نراه من خلق المخلوقات من السماويات والكيانات أو الجمادات والحيوانات والنبات ، من النظام في الشخص الواحد والأشخاص الكثيرة والأنواع المختلفة ، إنما يدل على أن الأفعال فيها ترجع الى حكيم يسوق المبادىء الى غايتها ، والأوائل الى نهايتها ، ويجمع بينها على حالة يستبقى بعضها ببعض وينتفع بعضها ببعض • مثال ذلك ما نراه في النبات من أن العرق الناشب في الأرض لاجتذاب الماء والمواد المختلطة به لتصير غذاء للنبات ، ثم يحمله الساق ليكون واسطة بين النبات والأرض حتى يظهر الثمر من الشجر عن الأرض الى الجو الذى يلقى فيه النبات الهواء المنضج الملطف ، ويتلقى الأفعال السمائية من جهة القوى الروحانية ثم تتفرق الأغصان في الجهات حتى لا تتزاحم الثمار • فعرق النبات ناشب في الأرض لأخذ المادة الجسمانية ، وفرعه صاعد في الجو لاستمداد القوى الروحانية ، فيعيش هذا بإمداد هذا ، وهذا بإمداد ذاك ، أحدهما بالروح الهوائية النارية ، والآخر بالمادة المائية الأرضية ، ويجتمع لهما بذلك معا قبول القوى الفعالة السمائية •

فالعقل والنظر يشهدان بأن الخالق المصور جمعهما بحكمة ومعرفة بمبدأ حالهما ومآلهما وكذلك ترى الأشخاص للأنواع مسخرة في الايلاد باستثمار النبات واستفتاح الحيوانات ، من غير أن نعرف الأم والأب من الشجر ومن كثير من الحيوانات أيضا ، بل والناس كذلك سخروا له باللذة الموجودة في حركة الجماع للذكر في الاعطاء وللأنثى في القبول ، حتى إنك لترى الصدفة تتفتح على وجه الماء حتي يقطر فيها من الجو ما يقطر كالمنى من الذكر في الأنثى ، ثم تنطبق عليه وتغوص الى عمق الماء محكمة الانطباق حتى تكمله القوى الفعالة فتكون الدرة ، فمن علم الصدف ذلك وهي مما لا حس له ، فكيف أن يكون له علم •

---

(٨) أبو البركات : المعتبر ، جـ ٣ ، ص ١٣٣ - ١٣٤ •

فحافظ الأنواع بالأشخاص هو المسخر الملهم المصرف لهذه القوى في هذه الأفعال التي لا تعرفها ، كما يسخر الكاتب القلم في كتابة الحروف التي يكتبها ، ثم نعلم أن هذا النظام ليس يصدر عن كثرة الأشخاص وأجزاء الأشخاص من الأعضاء والأجزاء في الحيوان والنبات ، وإلا لكان فعل كل جزء منها وكل شخص لما يخصه • لكن الأفعال جميعها غرضها ومقصودها واحد هو بقاء النوع • وخالق النظام في أفعال الأنواع هو واحد للأنواع الكثيرة ، والجامع في ذلك بين الأفعال السمائية والأرضية هو واحد في السماء والأرض ، فهو ذلك الواحد الذي كان معلم المتعلمين بأسرهم وهو مسدد أفعال الفاعلين بأسرهم ، فهو عالم العلماء والعالم الأول بذاته ، وحكيم الحكماء والحكيم الأول والحكيم بذاته ، إذا قصدنا بالحكمة هنا إحكام العمل بالعلم(٩) •

وتجدر الاشارة الى أن دليل النظام أو الحكمة العملية عند أبي البركات ، ليس جديدا على الفكر الفلسفي الاسلامي ، فقد قال به بعض مفكري الاسلام من قبل ومنهم الكندي الفيلسوف(١٠) ، والقاضي أبو بكر الباقلاني المفكر الأشعري ، وان كان هذا قد أشار الى النظام والاتقان في موجودات العالم بوجه مختلف(١١) •

بعد أن يثبت أبو البركات وجود الله بهذه الأدلة ، تعاوده نزعته الصوفية الاشراقية ، فيجمل خلاصة ما فصله بالأدلة فيقول بأن المبدأ الأول واحد واجب الوجود بذاته ، ليس له في وجوب وجوده بذاته وكونه مبدأ أولا ، شريكا من ضد ولا نظير • فهو الموجود الأول الذي إذا لحظته

---

(٩) أبو البركات : المعتبر ، ج ٣ ، ص ١٣٥ — ١٣٧ •

(١٠) الكندي : رسالة في حدود الأشياء ورسومها ، ص ١٧٤ ، وانظر أيضا د• عاطف العراقي : مذاهب فلاسفة المشرق ص ٨٣ — ٨٤ ، ط ٧ القاهرة ١٩٨٣م •

(١١) انظر الباقلاني : الانصاف ص ٢٧ نشرة زاهد الكوثري القاهرة ١٩٥٠ ، التمهيد ص ٤٥ نشرة الاستاذين/ محمود الخضيري ومحمد عبد الهادي أبو ريدة ، القاهرة ١٩٤٧م •

بذهنك رأيته موجودا وليس معه موجود آخر من حيث كونه لا شريك له فى الوجود الأول المتقدم بالذات على وجود كل موجود ، فنراه فى الوجود والوجود له وليس معه غيره فنقول ما قاله كثير من الفضلاء المتأخرين فى الزمان المتقدمين فى المعرفة من أنه تعالى لاهو إلا هو ٠

وأنت إذا اعتبرته من جهة كونه غاية قصوى سميته إلها من حيث تتوجه بالنظر العلمى من معلولاته ومخلوقاته إليه فيكون هو الاله ، وإذا عرفت أنه وحده فى ربوبيته قلت : لا إله إلا هو ٠ واذا نظرت اليه من جهة وجوب وجوده بذاته ، فلم تر معه غيره فى مرتبة وجوب وجوده قلت : لا هو إلا هو ٠ وكما لا شريك له فى كونه إلها للكل ، كذلك لا شريك له فى كونه موجودا ، والموجود هو الذى يقال له هو ٠ فإذا كان من الموجودات ما هو موجود بغيره ومنها ما هو موجود بذاته ، فإن لفظة « هو » أولى بالموجود بذاته منها بالموجود بغيره ٠ واذا كان الموجود بذاته هو الذى منه وعنه وبه وجود الموجود بغيره كانت هوية الموجود بغيره له ٠ فله تعالى أنه هو الموجود ، وله أنه هو الموجد ، فهو هو من كل وجه ، ولا هو إلا هو ، أعنى ليس الوجود الحقيقى إلا له(١٢) ٠

ثانيا ـ وحدانية الله (المبدأ الأول) :

عن طريق النظر فى الممكن الوجود والواجب الوجود ، عرفنا حاجة الممكن الوجود بذاته الى واجب الوجود بذاته فى إيجابه وإيجاده ، كما وقفنا على حاجة الحادث الى المحدث والمعلول الى العلة ، وأن القديم بالزمان يمكن أن يكون معلولا ٠ واذا كنا قد أثبتنا وجود واجب الوجود بذاته وأنه العلة الأولى لوجود العالم وما فيه ، فإننا ننظر الآن هل هو واحد أم كثير ٠

وقبل أن يثبت أبو البركات وحدانية الله أو واجب الوجود بذاته ، يعرض المذاهب السابقين فى العلة الأولى القديمة أو الاله ، غير أنه لا يذكر أصحاب أى من هذه المذاهب ، وقد حاولنا من جانبنا ذكر أصحاب كل مذهب زيادة فى الشرح والبيان ٠

يقسم أبو البركات مذاهب الناس فى الألوهية الى قسمين رئيسيين :

---

(١٢) أبو البركات : المعتبر ، جـ ٣ ص ١٤٧ ٠

أولهما : يضم مذاهب القائلين بعلل كثيرة قديمة هي عندهم آلهة ، وهؤلاء فريقان : أحدهما يمثله القائلون بعلل كثيرة متضادة وهم شعب شتى حيث منهم القائلون بمبدأى المحبة والكراهية مثل أنبادوقليس الفيلسوف اليونانى القديم ، ومنهم القائلون بمبدأ الخير والشر أو النور والظلمة وهم الثنوية من قدماء الفرس ، ومنهم القائلون بالطبائع الكيانية أو العناصر الأربعة التى هى الحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة كمبادىء أولى للوجود وهم بعض فلاسفة اليونان القدماء مثل أنبادوقليس . والفريق الثانى ، يمثله القائلون بعلل كثيرة غير متضادة وربما قصد بهم الذريين من فلاسفة اليونان القدماء أمثال لوقيبوس وديمقريطس .

وأما القسم الثانى ، فيحتوى مذاهب القائلين بعلة أولى واحدة قديمة هى الاله ، وينقسمون قسمة أولى الى فريقين : أحدهما يمثله القائلون بان الاله مرئى ومدرك بالحواس هو النار أو الشمس وهم الصابئة . والثانى ، يمثله القائلون بأنه غير مرئى ولا مدرك بالحواس ، وهؤلاء شعبتان : فمنهم من يقول أنه يحل فيما يرى ، سواء كان يحل فى جماد كالأصنام والأوثان على مذهب الوثنيين ، أو يحل فى بشر ، على ما اعتقد الهنود والنصارى ، وأما الشعبة الثانية ، فقال أصحابها إن الاله لا يحل فى شىء وهو فى نظر بعضهم لا يرى البتة مثلما ذهب المعتزلة وبعض فلاسفة الاسلام أمثال الفارابى وابن سينا ، وفى نظر البعض الآخر ، يراه بعض الراءون بحالة تخص الرائى دون غيره من البشر مثلما قال الأشاعرة والصوفية وجمهور علماء الاسلام . وسوف نرى كيف أن أبا البركات يميل الى هذا المذهب الأخير وأن كان بوجهة نظر خاصة به(١٣) .

ثم يمهد أبو البركات لاثبات وحدانية الله الذى هو العلة الأولى والمبدأ الأول للوجود ، بأن يستعرض معانى الواحد المختلفة ، ويخلص منها الى أن الواحد يقال لما لاينقسم ولا كثرة فيه بوجه من الجهة التى قيل فيه إنه واحد بها . والواحد إما أن تكون فيه كثرة من جهة ، كالجيش الواحد بكثرة أشخاصه ، والجنس بكثرة أنواعه ، والنوع والصنف بكثرة أشخاصهما ، والشخص الواحد بكثرة أجزائه كأعضائه مثلا . وإما أن

---

(١٣) أبو البركات : المعتبر ، ج ٣ ، ص ٥٦ — ٥٧ .

لا تكون فيه كثرة بوجه من الوجوه . فإن كان فيه كثرة كما قيل ، فهو واحد من جهة وكثير من جهة أو جهات ، وان لم تكن فيه كثرة بوجه ، كان هو الواحد الحقيقى .

ومن جهة أخرى ، يقال واحد أيضا للشيء الذى ليس معه غيره من نوعه كالشمس مثلا ، فإنه ليس معها فى الوجود شمس أخرى ، لا كالكوكب فإن معه فى الوجود كواكب أخرى ، ويقال له فرد . والآخر الذى يكون مع الواحد فى الوجود ، إن كان مماثلا فى النوع قيل له ند ومثل ونظير ، وان كان مباينا له غاية المباينة قيل له ضد ، كالحار للبارد مثلا . والواحد الذى لا مثل له ولا ضد له ولا تركيب فيه ولا أجزاء له هو الواحد من كل جهة .

وعلى هذا ، فالموجود الأول من جهة كونه مبدأ أولا ، ومن جهة كونه واجب الوجود بذاته ، هو واحد ولا يجوز أن يكون إلا واحدا . والدليل على ذلك أنه لو كان فى الوجود مبادىء أول أكثر من واحدة واجبة الوجود بذاتها ، فإنها تشترك فى وجوب الوجود بالذات وفى المبدئية بالذات ، فتكون كثرتها بعد وحدتها ، فبماذا يكون اشتراكها فى وجوب الوجود بالذات ؟ لا يجوز أن يكون ذلك بالأيون والأمكنة المختلفة ، لأن مكان الأشياء الكثيرة التى هى واحدة بالطبيعة واحد بالطبع لا محالة إن كانت فيه بالطبع . وان كانت فيه بالقسر ، فمن القاسر لها على أن تكون فى هذا المكان ، والقسر يعود لى طبع أو إرادة أيضا ؟ . فإن كان القاسر الذى هو الطبع أو الارادة واجب الوجود بذاته ، فهو اذن من الجملة ، فكيف يقسر ذاته وكيف يقسر نظيره ومثله ، ولماذا يكون هو القاسر له ولا يكون المقسور ، أو لا يكون قاسرا ولا مقسورا ، وإن كان من غير الجملة الداخلة فى وجوب الوجود بالذات ، فهو ممكن الوجود ، وهو فى الوجود بعد واجبات الوجود ، فكيف صار علة الأيون والأمكنة المختلفة لها ، وصدوره عنها ووجوده بها ، فهى موجودة قبله وكثيرة قبله ، فقد يبطل القول بتكثر واجبات الوجود بالأيون والأمكنة ولا مكثر لها .

ومحال وباطل أيضا ، تكثر واجبات الوجود بالذات ، بصفات عرضية لها ، لأن العرضيات تكون بعد الذات ، والذات الواحدة بالذات لا تصير

كثيرة بالعرضيات • وباطل كذلك أن يكون تكثر واجبات الوجود بذاتها ، بصفات ذاتية ، لأن الذاتية ها هنا إن كانت ذاتية لواجب الوجود من حيث هو واجب الوجود ، فلا وجه لتكثره بها إذ إن الواحد بالواحد واحد ، يعنى بصفات وجدت له بذاته ومن ذاته لا من غيره ، وإنما بتكثر الواحد بالكثرة والغيرية ، كما يكون في غيره من الأنواع تحت الفصل عن علة غير العلة الموجبة للطبيعة الجنسية • وكما كان واجب الوجـــود بذاته لا علة له ، فلا وجه إذن لكثرته بعد وجوب وجوده بالذات ، لا بالذاتيات ولا بالعرضيات• وإذ بطلت وجوه التكثر كلها ، فقد ثبت أن واجب الوجود بذاته هو واحـد بالشخص لا مثل له أي ند •

وكذلك لا ضد له ، لأن الضد شريك في الموضوع والهيـــولى الذى يوجدان فيه وبه ، فإن موضـــع الأعراض هو علتها الهيـولانية ، وواجب الوجود بذاته لا علة له فلاهيــولى له ، فلا ضد له يشاركه في الموضـــوع ولا ند له •• وكذلك لا تركيب في ذاته من أجزاء • لأن الأجزاء ، إن كان بعضها واجب الوجود وبعضها ليس واجب الوجود ، فواجب الوجود هـو ذلك البعض الواجب دون ما ليس بواجب ، فهو واحد منها ، والباقية غير واجبة الوجود • وكل ماليس بواجب الوجـــود بذاته فهـو معلول واجب الوجود ، فهو بعده في الوجود • والأجزاء تكون في الوجـــود قبل المركب ، فواجب الوجود بذاته لا جزء له ، وإلا لكان علة علته وكان سابق سابقة الى الوجود ، وهذا محال • فذاته لا تركيب فيها من أجزاء مختلفة من أعضـــاء أو غيرها ، فهو صمد أي بسيط ، وواحد لا غيرية فيه •

وعلى هذا ، فقد صح وثبت أن المبدأ الأول واحـــد الذات والحقيقة والماهية • فهو واحد أحد فرد صمد ، فهو واحـــد من حيث لا كثرة فيـــه مطلقا • وأحد من حيث لا كثرة فيه كما في العسكر الواحد وهو فرد من حيث لا ند ولا ضد له • وصمد من حيث لا تركيب في ذاته • فالأحـــدية فصل متمم للواحدية والفرد فصل متمم للأحدية • والصمد فصل متمم للفردية • لأن الواحد قد يكون كالجيش الواحد ولا يكون أحد ، والأحـــد قد يكون له نظير وضد فلا يكون فردا • والفـــرد قد يكون فيـه تركيب

فلا يكون صمدا • فواجب الوجود بذاته واحد أحد فرد صمد ، فهو واحد من كل وجه وجهة ، وهو خالق الخلق وعلة العلل ، وحده لا شريك له(١٤) •

وواضح مما ذكرناه ، أن رأى أبى البركات فى وحدانية الله تعـــالى وإثباته الوحدانية بدليل عقلى ، إنما يتفق مع وجهة النظر الدينية والكلامية كما يتسق مع وجهة النظر الفلسفية التى نجدها عند من سبقه من فلاسفة الاسلام أمثال الكندى والفـــارابى وابن سينا والغـــزالى • ونلاحـظ أنه لا يغالى فى إثبات صفات سلبية لله تعالى مثلما فعل المتـكلمون من المعتزلة والأشاعرة ، وإنما يثبت من هذه الصـــفات ما رآه ضروريا لاثباته كنفى الشريك والضد والمثل والند • وهو يدرك ذلك ويعيه بدليل قوله : « إن الغلو فى السلب للتنزيه مما لا أقول به • بل أقول منه ما يلزم فى النظر المحقق ، لأن قوما قد قالوا من ذلك بما أخرجهم عن المحجة وأحوجهم الى تنزيه عن التنزيه »(١٥) •

---

(١٤) أبو البركات : المعتبر ، جـ ٢ ، ص ٢٥ ، جـ ٣ ، ص ٥٨ ـ ٦٢ •
(١٥) المصدر السابق ، جـ ٣ ، ص ٦١ •

الفصل الثانى

صفات الله (واجب الوجود)

ويشـــمل :

البعد الأول : الصفات الذاتية الايجابية

البعد الثانى : التنـــزيه

البعد الثالث : العـــلم الالـــهى

اولا : نقض مذهب ارسطو وحججه

ثانيا : نقد مذهب ابن سينا

ثالثا : مذهب ابى البركات فى العلم الالهى

البعد الرابع :رؤية الله (نور الأنوار)

تعقيب :

اقتضت طبيعة البحث فى مسألة صفات الله تعالى والوقوف على آراء أبى البركات التقريرية والنقدية بخصوصها أن نعرض لها من خلال أربعة أبعاد ، أولها إثبات أبى البركات للصفات الذاتية الايجابية لله تعالى والثانى ، إثباته التنزيه ، والثالث ، إثباته العلم الالهى ، أما البعد الرابع فنتناول فيه موقف فيلسوفنا من مسألة رؤية الله تعالى . ثم نتبع ذلك كله بتعقيب من جانبنا .

البعد الأول ـ الصفات الذاتية الايجابية :

بعد أن أثبت أبو البركات وحدانية الله واجب الوجود بذاته ، نراه يثبت الصفات الذاتية الايجابية الأخرى له تعالى وهى الارادة والعلم والحكمة والقدرة والجود والكمال ، ويرى أن هذه الصفات الذاتية إنما هى له تعالى بذاته عن ذاته ولا ترتفع عنه إطلاقا . وهو يمهد لذلك بتقسيم الموجودات الى ثلاثة أصناف : أولها ، ذوات موجودة حاصلة فى الوجود ، وجودها حاصل لذواتها حصولا أوليا ، كالانسان ، فإنه ذات موجودة ، وجودها حاصل لها حصولا أوليا . والثانى ، أفعال تصدر عن هذه الذوات وتوجد فى المفعولات والمعلولات ، فوجودها لا يحصل لها فى ذواتها بل يوجد بوجود الفاعل ويحصل فى المفعول ، وبه لها وجود ، مثل الحركة . فإنها فعل يصدر عن محرك ، كالانسان فى متحرك كالقلم . أما الصنف الثالث . فصفات هى حالات فى الذوات الموجودة ، وجودها فيها وبها ومعها ولها ، لكن ليس لها فى ذواتها ، مثال ذلك خلق من أخلاق الانسان كالحياء ، فإنه حالة موجودة فى نفس الانسان ، وجودها فى النفس وبها ومعها ولها ، ولا يتصور لها وجود بذاتها وفى ذاتها .

والحاصل فى الوجود أولا هى الذوات ، ثم الصفات التى فى الذوات ولها ، ثم الأفعال الصادرة عن الذوات بالصفات والحالات . وقد سبق إثبات أن الذوات الوجودية لا تكون بأسرها واجبة الوجود بذاتها ، بل وجود كل موجود ، من ذات وصفة وفعل ، إنما هو عن واحد واجب الوجود بذاته هو الله تعالى .

ومن الصفات والحالات ما يكون للأشياء بذواتها من ذواتها ، تصدر عنها فيها وتوجد لها منها أى للشىء من ذاته ، مثل الحرارة للنار من حيث هى نار ، والبرودة للثلج من حيث هو ثلج ، ومثل مساواة الزوايا الثلاث من كل مثلث بقائمتين ، فإنها للمثلث بذاته ومن حيث هو مثلث ، ومثل نور الشمس للشمس من ذاتها • ومن الصفات والحالات ما يكون للشىء عن علة معطية وسبب موجب ، فهى ليست له من ذاته بل من غيره ، مثل حرارة الماء عن النار المجاورة لها ، وبرودة الهواء عن برد الثلج المجاور له ، ومثل نور القمر من الشمس • والصفة التى للشىء بذاته وعن ذاته يقال لها طبيعة وخاصية إذ هى له عن ذاته والأفعال تصدر عن الذوات بحسب الطبائع والخواص التى هى الحالات والصفات الأوائل الذاتية للذوات(١) •

والذى يعلم حقا ويقينا من الصفات والحالات التى للذات بالذات من الذات ، هى صفات الأول تعالى ، فإنه ليس معه فى الوجود مساوق ، بل كل موجود هو غيره بعده فى الوجود بعدية بالذات ، وإيجاد الموجودات بأسرها هو فعله الصادر عن ذاته ، وقد قلنا ان الفعل يصدر عن الذات بحسب الحالات والصفات ، فالجود يصدر عن الجواد ، والقدرة عن القادر ، والحكمة عن الحكيم ، فهو تعالى جواد قبل أن يجود وإلا لما جاد ، وحكيم قبل أن يحكم ويحكم وإلا لما أحكم وحكم •

وليس لقائل أن يقول إن جاعلا جعل الاثنين زوجا ، ولا الثلاثة فردا ، ولا زوايا المثلث مساوية لقائمتين ، بل يقول إن موجدا أوجد الاثنين والثلاثة والمثلث ، وحيث أوجد الاثنين فقد أوجدها زوجا ، وأوجد الثلاثة فردا ، والمثلث بزوايا ثلاثة تساوى قائمتين ، ولا يحتاج أن يوجد ذلك لكن منها بعد أن أوجدها ، فإن ذلك لها بها ومنها من حيث هى كذلك •

بعد هذه المقدمات الايضاحية ، يحاول أبو البركات إثبات الارادة الالهية ، فيعرض لمعنى الارادة ثم يثبت إرادة الله تعالى بالدليل • وفى هذا الصدد يقول بأن الأفعال تصدر عن الذوات بالطبع والخاصية ، لكن ذلك ليس مطردا فى كل فعل عن كل فاعل ، بل من الأفعال ما يكون مصدرها الارادة المخالفة للطبيعة أو الموافقة لها ، أو التى هى غير مقتضاها

---

(١) أبو البركات : المعتبر ، ج ٣ ، ص ١٠٠ •

وان لم تخالف ولم توافق . والارادة تكون من صــــفات الذوات الفعالة ، ولا تكون هذه الارادة بإرادة أخــرى فيتسلسل الأمر الى غير نهاية أو يدور دورا ، كما قلنا فى العلل والمعلولات واتضحت استحالته فيها . فإن كانت إرادة بإرادة ، فالارادة الأولى بغير إرادة ، ولابد من ارادة أولى اذ لا تذهب الأسباب والمسببات الى غير نهاية .

فالارادة الأولى تكون بذاتها لا بإرادة أخرى ، أى تصدر عن الذات من ذاتها لا من مؤثر وفاعل فعل فيها ولها . وكل فاعل متفنن الأفعال ، تنساق أفعاله الى نظام واتفاق على غرض مقصود ونهاية محدودة لها بأسرها ، فهو فاعل بالروية . ومعنى الروية هنا هو أن يتقدم العلم على الفعل ، ثم بعـد العلم تكون الارادة والعزيمة ، وهى حالة بها يكون الفاعل فاعلا بعد مالم يكن ، بعدية إما بالذات أو بالزمان ، ولو خلا الفاعل عنها لما فعل(٢) .

وعلى هذا يستدل أبو البركات على الارادة الالهية ، مســتندا الى أن واجب الوجود بذاته أو المبدأ الأول هو العلة الأولى الفاعلة . وهو تعـالى لا يفعل بالعــرض ولا بالقسر ، بل بالذات أى بالارادة ، لأن كل فاعـــل بالعرض والقسر ، قبله فاعل بالذات سواء كان بطبع أو إرادة ، ولما كان المبدأ الأول لا قبل له ، فهو إذن فاعل بالذات . ولا يمكن أن يكون فاعلا بالطبع ، لأن الفاعل بالطبع يفعل ما يفعله على سنن واحدة وفن واحد وعلى جهة واحدة ، والمبدأ الأول هو مبدأ واحد لسائر الموجودات من الأفعـــال والذوات المختلفات الطبائع والجهات والأنحاء والغـــايات . وأيضا ، فإن الفاعل بالطبع ، يفعل دون أن يشعر بفعله ولا يقصده ولا يريده باختياره ، كالنار فى الاحراق ، والثلج فى التبريد ، ولا يجوز أن يكون فعل المبـــدأ الأول على هذا النحو ، وذلك لما نراه فى أفعاله وموجوداته من الغـــايات والنظام والاحكام الحافظ لبعضها ببعض ، والمعين بعضها ببعض ، والمسبب بعضها لبعض . ولا يصدر النظام والاحكام فى الفعل عن مالا شعور له بما يقصده ويريده ، بل يصدر عن عالم حكيم آمر مسخر ، مريد . فالمبـــدأ الأول عالم بما يفعل ، مريد وقاصد لما يفعل ، راض بفعله . وإذن فهـو

---

(٢) أبو البركات : المعتبر ، ج ٣ ، ص ١٠٣ .

ليس فاعلا بالعرض.ولا بالقسر ، ولا بالطبع ، وإنما هو فاعل بعلم وإرادة وقصد(٣) .

ويتضح من هذا ، تلك الصلة الوثيقة بين العلم والارادة في نظر أبي البركات من حيث يرى أن العلم بالشيء يسبق الارادة الى فعله ، ثم يأتي الفعل ليكون لاحقا للارادة ونتيجة لها ، ولا يعنى تقدم العلم على الارادة ، أنه سبب للفعل ، لأن السبب الحقيقي للفعل هو الارادة ويكون العلم السابق هنا معين ومرشد للارادة الى ما يجب أن تفعله ، فالفاعل يعلم أولا ثم يريد ثم يفعل ما يريد . فحين يحصل له علم سابق ، يتبع ذلك العلم حالة يشعر بها عن ذاته في ذاته توجب الفعل وتكون سببا لصدوره عنه ، وهي الارادة . فالارادة هي السبب الموجب للفعل بعد علم سابق بالمراد . مثال ذلك إرادة الكاتب لما يكتب بعد علمه بما سيكتب ، وإرادة القائل فيما يقول بفكره ورويته .

وكما أن الأفعال الحسية والطبيعية والطباعية والارادية من الانسان تتفق على غاية واحدة هي حياته وبقاؤه الذى قدر له ، بحيث إنه بشهوته يطلب الغذاء ، وبطبعه يهضمه ، وبإرادته يحصله ويأكله ، وبرويته يختاره ويميزه ويقدره ويوفيه ، وبحسه يدرك موافقه وملائمه ، فكذلك الحال في الأشخاص المختلفة ، كل واحد يفعل فعلا أو أفعالا تخصه ، وتتكامل أفعالهم جميعا وتتسق على نظام يسوق الى غاية واحدة هي بقاء الناس وحسن حياتهم ، فالزارع والطحان والخباز والبناء والنساج وغيرهم ، كل يفعل بطبعه وإرادته لأجل ذاته ولأجل غيره ، وتتكامل أفعالهم وتتسق لتحقيق غاية واحدة تؤمهم جميعا هي البقاء والحياة .

بل إنك ترى الأوقات المختلفة والفصول المتباينة الطباع كذلك أيضا ، تنساق الى غاية واحدة تعد الشتاء وتمد الربيع وتظهر الصيف وتكمل الخريف ، وكذلك الحال في النبات والحيوان بأعضائه المختلفة وأفعالها المتفننة ، وفي الأشخاص المختلفة من النوع الواحد ، والأنواع من الجنس والأجناس في الوجود كله ، على ما ترى من الحكمة الدالة على سابق العلم الآخذ من المبادى ولبدايات ، السابق الى الغايات والنهايات ، وتلك أفعال

(٣) أبو البركات : المعتبر ، جـ ٣ ، ص ٦٦ .

تجتمع الى فعل ، وفعل يجتمع الى فعل بعد أفعال ، تتسابق جميعا الى فعل آخر هو غاية لها ، وكل ما نلحظه فى الخلق من نظام وحكمة ، وما نجده فى الموجودات من تكامل واتساق وإحكام ، إنما هو عن علم سابق وعن حكيم عالم مريد وعارف ، فللأفعال الارادية والارادات فى الموجودات مبدأ أول . وكما أن مبدأ وجود كل موجود هو الموجود الأول ، فكذلك مبدأ كل علم هو علم الأول ومبدأ كل حكمة حكمة أولى هى حكمة الأول ، وكذلك مبدأ كل ارادة ، ارادة أولى هى ارادة الأول .

وعلى ذلك ، فالمبدأ الأول مريد بدليل وجود الارادات فى خلقه ، وعالم بدليل وجود العلم فى خلقه ، وحكيم بدليل وجود الحكمة فى خلقه ، وجواد بدليل جوده بخلقه ، وقادر بدليل قدرته فى خلقه ، وعارف بأنواع العرفان بدليل المعرفة الموجودة فى خلقه . فذاته مبدأ أول لوجود الذوات ، وفعله مبدأ أول للأفعال ، وصفاته مبدأ أول للصفات . فهو المبدأ الأول العام المبدئية لسائر الموجودات . وليس لصفاته الذاتية هذه مبدأ سوى ذاته ، فليس له فى علمه معلم ، ولا فى معرفته معرف مرشد ، ولا فى إرادته الأولى سبب موجب غير ذاته . وليس يمكن أن يصدر عنه فعل لا يعلم به مثلما يصدر عن بعض مخلوقاته . ويتضح من هذا أن للمبدأ الأول إرادة وعلما هما له صفتان ذاتيتان أو صفة واحدة ترجع الى نسبتين مختلفتين ، وذلك له بذاته من ذاته ، به خلق ما خلق من مخلوقاته ، وأوجد ما أوجد من مبدعاته ، وهما له بالذات عن الذات(٤) .

ثم يثبت أبو البركات ، صفتى التمام والكمال لله تعالى باعتبارهما أيضا صفتين ذاتيتين له تعالى بذاته من ذاته ، لا بغيره ولا من غيره ، لأنه لا غير معه فى الوجود المساوق لوجوده الواجب بذاته ، بل كل مافى الوجود ، إنما هو منه وعنه ، وجد بعد وجوده ، فليس له فى وجوده مع ولا قبل حتى يستفيد منه حالا أو يكتسب منه تماما أو كمالا .

والكامل يقال على ذى التمام والكمال إذا كان من طبيعته ونوعه أن تكون له صفات هى بأسرها له من غير أن يعوزه منها شىء . فحينئذ يقال له تام وكامل بقياس شخص آخر من نوعه لم تجتمع له تلك الصفات

---

(٤) أبو البركات : المعتبر ، جـ ٣ ، ص ١٠٣ .

التي من شأنها أن تكون له بطبيعته ونوعه . وذلك مثل الانسان الذي من شأنه أن تكون له بطبيعته ونوعه الكمال الذى فى صحة مزاجه وتناسب أعضائه وقدرته على حركاته وتحريكاته . وفطنته بقوة ذهنه ، وكماله بعلمه ومعرفته لسائر العلوم التى من شأنه أن يعلمها والصناعات التي من شأنه أن يعملها ، فيقال له حينئذ كامل ، من جهة اجتماع هذه الأوصاف فيه أكمل وأتم بالقياس الى شخص آخر من نوعه له بعض هذه الصفات فقط لا كلها .

والأول تعالى ، له من صفاته عن ذاته وبذاته كل ما من شأنه أن يكون له . لأنه بذاته ومن ذاته لا ينتظر فيه سببا خارجا عن ذاته حتى يوجبه له ، كما ينتظر المتعلم العالم ، والمريض الطبيب . وقد علمنا ان كل ما للشيء بذاته لا يصح أن يرتفع عنه فى وقت من الأوقات التى توجد فيها ذاته . وعلى هذا ، فالكمال له تعالى صفة له بذاته عن ذاته لا ترتفع عنه إطلاقا . بل ان الموصوفات وصفاتها ، والتامات الكاملات ، وتماماتها وكمالاتها موجودة فى الوجود عن المبدأ الأول الواجب الوجود بذاته لأنها تكون إما عنه وإما عن ما عنه . فكل صفة لموصوف ، انما هى له منه تعالى ، وهو معطيها له ، لا على طريق النقل ، بل على طريق الايجاد والتسبب . فكل جمال وبهاء وتمام وكمال لموصوف ، إنما هو مع الموصوف به من عند العلة الأولى ، التى لها من هذه الصفات أكثر مما لكل موصوف ، ولا يمكن أن يكون أقل . فله تعالى الحسن الأحسن ، والتمام الأتم ، والكمال الأكمل ، والخير الأخير ، والفضيلة الأفضل بمعنى أنه تعالى الغاية فى ذلك بأسره(٥) .

البعد الثاني - التنزيه :

بعد أن أثبت أبو البركات الصفات الذاتية الايجابية لله تعالى نراه يعرض للصفات السلبية التى تعنى التنزيه والتقديس لله تعالى . ويرى أن الصفات السلبية أعدام ونقائص ومباينات ومضادات تمثل سلوبا فى العقل والمعقول وليست أشياء موجودة مرفوعة عنه تعالى . وإنما ارتفاعها فى عقل العاقل وتصور المتصور ، فهو تعالى منزه مقدس عن الأعدام

(٥) أبو البركات : المعتبر ، جـ ٣ ، ص ١٠٥ .

والنقائص فى أن يوصف بها وتنسب اليه من حيث هى أعدام ، وذلك لأن الذى عنه هو الوجود لا العدم • وأما الأضداد والمباينات فينسب اليه منها ما يليق بالتنزيه والتقديس ، وهو كونه بمنأى عن خسائس الموجودات التى هى عنه فى الوجود فى طرفه الأقصى ، بحيث إنه إن قال قائل إنها عنه ومنه على أنه علتها الأولى التى بالذات من غير واسطة ، فقد قال بما يخالف التقديس والتنزيه •

وعلى هذا ، فإنه تعالى إذا كان يوصف بأنه الحى القادر المريد الآمر ، الغنى الجواد ، العلى العظيم ، القدوس الطاهر ، العارف العالم ، على التحقيق وبالحقيقة ، فإن التنزيه والتقديس له تعالى ، يوجب نفى أضداد هذه الصفات جميعا عنه ، وذلك لسببين : أحدهما ، أن هذه الصفات إنما هى له تعالى بذاته وعن ذاته ولذاته ، فهى واجبة له بذاته • أما من يوصف بشىء منها سواه ، فإنما يوصف بها على سبيل المجاز والاستعارة وبعض المعنى والحقيقة • أما تمام المعنى والحقيقة فهى لله تعالى وحده • والسبب الثانى ، هو أن كل صفة من هذه الصفات إن وجدت فى غيره ، فلا توجد له بذاته وعن ذاته ، ومن ثم فإنها قد توجد فيه ثم يفقدها ويوصف بضدها ، فالانسان يموت بعد أن يكون حيا ، ويعجز بعد قدرة ، ويفتقر بعد غنى ، ويبخل بعد جود ، ويفقد علمه بعد إذ علم ، ويتردد فى مراداته بين الفعل واللافعل • وإذا كان الانسان الجواد مثلا يجود بغير جزاء مشروط ولا عائدة مطلوبة ، فإنه يتوقع الحمد والثناء والمجازاة ممن يعرفه بذلك فيجزيه على خلقه وجميل أفعاله • أما الجود بالنسبة لله تعالى فهو منه وله ، وهو غير محتاج الى شىء ، لأن الكل له ومن عنده ، ولا يخاف شيئا فإنه لا ضد له ولا يتوقع حمدا ولا ثناء ، فليس لجوده سبب سوى الجود الذى هو منه وله • فهو الجواد حقا • وإذا كان جود الجواد من الناس ينقص شيئا مما يجود به ، فإن الجود الالهى لا ينقصه شيئا ، فخزائنه لا ينقصها عطاؤه كما ينقص خزائن الملوك من البشر •

البعد الثالث — العلم الالهي :

في دراسته لمسألة العلم الالهي نجد فيلسوفنا يعرض لها بمنظورين : أحدهما منظور نقدي يتناول من خلاله آراء أرسطو وابن سينا بالذات في هذه المسألة بالنقد والتفنيد ويكشف عن تهافتها وما تحتويه من باطل في نظره ، وهو في هذا يتابع من حيث التوجه النقدي كثيرا من مفكري الاسلام السابقين عليه(٦) الذين واجهوا مذهب ابن سينا خاصة بالنقد العنيف حيث أنكر هذا علم الله بالجزئيات الحادثة ، وبلغ النقد ذروته عند الغزالي حيث حكم بالكفر على ابن سينا فيما ذهب اليه خاصا بالعلم الالهي ، وأيضا في قوله بقدم العالم وإنكار البعث الجسماني(٧) ٠ والثاني : منظور تقريري يثبت فيه رأيه في العلم الالهي وكيف أنه علم شامل محيط بالكليات والجزئيات على سواء ٠

وقد يجدر بنا أن نشير الى أن المذاهب التي ذاعت وشاعت بخصوص العلم الالهي في الأوساط الدينية والفلسفية حتى عصر أبي البركات . كانت ثلاثة مذاهب : أحدها ، مذهب أرسطو الذى أنكر علم الله بأى شيء سوى ذاته ، فهو لا يعلم شيئا من العالم وموجوداته لا كليا ولا جزئيا ، وكان لأرسطو في ذلك حجج حاول بها الاستدلال على صحة مذهبه ، والثاني ، مذهب المتكلمين وجمهور علماء الاسلام ، وهو يتناقض تماما مع مذهب أرسطو ، من حيث ذهبوا الى أن الله تعالى يعرف ذاته ، ويعلم ويعرف سائر مخلوقاته وموجودات العالم في سائر الأوقات على اختلاف الحالات ، ما كان منها وما هو كائن وما سيكون فلا يعزب عن علمه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ، وهو يعلمها علما حقيقيا يقينيا لا شك فيه ، وأما المذهب الثالث ، فهو مذهب فلاسفة الاسلام المشائين أمثال الفارابي وابن سينا ٠ وقد عبر ابن سينا عن هذا المذهب وكان أشهر ممثليه ، فقد ذهب الى أن الله تعالى يعرف ذاته بذاته ، ويعلم الصفات الكلية من مخلوقاته

---

(٦) من هؤلاء القاضي عبد الجبار : شرح الأصول الخمسة ، ص ١٥٦ — ١٦٠ ، الباقلاني : التمهيد ص ٢٠٣ — ٢١٢ البغدادي : أصول الدين ، ص ٩٥ — ٩٦ ، ابن حزم : الفصل ، جـ ٢ ، ص ٩٩ — ١٠٨ ، الجويني : الارشاد ص ١٢ — ١٤ ، ص ٦١ — ٦٣ ٠

(٧) الغزالي : تهافت الفلاسفة ص ٢٩٣ — ٢٩٥ ، ط ٢ القاهرة ١٩٥٥ م ٠

والذوات الدائمة الوجود من معلولاته ، لكنه لا يعرف الجزئيات ، ولا يعلم الكائنات الفاسدات المتغيرات المستحيلات ، ولا شيئا من الحوادث من الحوادث من الأفعال والذوات • وكان لابن سينا عدة أدلة حاول بها إثبات صحة مذهبه • ونلاحظ أن هذا المذهب حاول التوسط بين مذهب أرسطو ومذهب جمهور المسلمين ، فهو لا يقصر علم الله على ذاته فقط وينكر علمه بكل شيء مثلما قال أرسطو ، لكنه يثبت علم الله ببعض الموجودات وينكر علمه بالحوادث ، ومهما تكن محاولة ابن سينا فى إرضاء نزعته الفلسفية وعاطفته الدينية بمذهبه هذا ، فقد باء بالفشل على الأقل من وجهة النظر الدينية الاسلامية •

وسوف نرى كيف كان أبو البركات أقرب الى روح الاسلام وأصوله المقررة فى هذه المسألة من ابن سينا ، ولذلك سيوجه نقده العنيف الى كل من أرسطو وابن سينا ، قبل أن يعرض مذهبه هو فى المسألة • وسوف نسير معه خطوة خطوة لنتعرف على أبعاد موقفه بجانبيه النقدى والتقريرى •

أولا ـ نقض مذهب أرسطو وحججه :

قلنا ان أرسطو فى قصره علم الله على ذاته ونفى علمه بما سواه من الموجودات ، قدم عدة حجج حاول بها أن يثبت صحة مذهبه ، وقد فندها ودحضها أبو البركات جميعا على النحو التالى :

١ ـ نقض الحجة الأولى لأرسطو :

استند أرسطو فى نفيه علم الله بالموجودات الى حجة تقوم على أساس أن تعقل الله لغيره يفيد أن كماله يتم بغيره اكتمال العقل بالمعقولات ، كما يفيد أنه ناقص بذاته فيكمل بتعقله لغيره ، ولما كان هذا وذاك مخالين فى حق الله الكامل بذاته ، فقد بطل كونه عالما بشيء أو عاقلا لشيء آخر سوى ذاته •

ينقض أبو البركات هذه الحجة بطريقين : أحدهما جدلى والآخر برهانى ••

أما على سبيل الجدل ، فإنه اذا كان أرسطو قد أقر بأن الله مبدأ أول وموجد الكل ، فإن القول فى علمه وتعقله للغير كالقول فى خلقه وإيجاده للغير • فإن قال أرسطو إن الخلق لزم عن ذاته ، قلنا وكذلك تعقله لغيره

لزم عن ذاته ، فإن منع تعقله لغيره حتى لا يكون فى تعقله كمال له ، فليمنع خلقه وإيجاده لغيره أيضا حتى لا يكون له به كمال ، ولئن منع ذلك فقد أبطل كونه مبدأ أولا للموجودات وخالقا لها ، لأن الذى لزم فى علم المعلوم يلزم مثله فى خلق المخلوق أو إبداع المبدع • فإن أوجب رفع إيجاده للموجودات نقصا له ، فكذلك يوجب رفع علمه بها نقصا له ، وإجلاله عن ذاك كإجلاله عن هذا ، وقدرته على هذا كقدرته على ذاك ، فلم ينزهه أرسطو عن علم غيره وتعقله ، ولا ينزهه عن خلق غيره وإيجاده ؟• ولماذا خشى أرسطو على الله التعب والكلال فى أن يعقل غيره ، ولم يخشى مثل ذلك عليه فى أن يفعل ويوجد •

وأما على سبيل البرهان ، فنقول بأنه تعالى ليس كماله بفعله بل فعله بكماله • ومن أفعاله تعقله ، فتعقله إنما هو عن كماله الذاتى الذى لا وجه لتصور النقص فيه • فالنقص لا يتصور فى ذات المبدأ الأول لأنه واحد ، والنقص إنما يتصور فى موضع الزيادة والنقصان اللذين هما من صفات الكثرة والغيرية • وهو تعالى واحد وحدة محضة فلا يتصور فيه نقص البتة • ثم ان النقص من الصفات الاضافية حيث يقال نقص كذا عن كذا ، كما يقال زاد كذا على كذا ، فكيف يتصور فى الذات الأحدية نقص ما ، وهو الكمال المطلق • وعلى هذا فكماله وقدرته له بذاته ويلزم عنها ما له بالقياس الى موجوداته ، فهو تعالى لا يكمل بإيجاد مخلوقاته بل وجدت مخلوقاته عن كماله ، وكذلك لا يكمل بتعقل موجوداته ، بل تعقله لها عن كماله • وكما لم يشرف الله بمخلوقاته بل خلق بشرفه ، بمعنى أنه لم يخلق فشرف ، بل شرف فخلق ، فكذلك ما علم وتعقل فكمل ، بل كمل فعلم وعقل •

ومن جهة أخرى ، فإن كمال الأفعال وشرفها ، يصدر عن كمال الذوات الفاعلة وشرفها ، وليس العكس ، فشرف الذوات وكمالها علة لشرف الأفعال وكمالها ، وليس شرف الأفعال علة لشرف الذوات بل دليل على شرف الذوات • فوجود فعل أفضل فى ذاته وأشرف من فعل آخر ، دليل على وجود جوهر أشرف فى ذاته من جوهر ، وذات أشرف وأفضل من ذات • والدليل إذا ارتفع لم يرتفع المدلول عليه فى ذاته ، بل ربما ارتفع علم العالم المستدل بذلك الدليل عليه ويكون الأمر حينئذ على ما هو

عليه سواء علم أو لم يعلم • فالله تعالى لا يكمل بأنه عقل ، بل يعقل لأنه كمل • فقد بطل القول بأنه لا يعقل غيره حيث بطلت الحجة على أنه لو عقل لكان اكتماله بما يعقله • بل انه تعالى لا يكمل بتعقل ذاته ، بل فعل ذاته وكمال فعلها إنما هو عن كمالها الذاتى ، فليس هو ناقصا حتى يكمل بفعله ، بل هو تام بذاته وتمام أفعاله لزم عن تمام ذاته ، فبطل القول بأنه يكمل بعقل غيره أو بتعقل ذاته(٨) •

نقض الحجة الثانية لأرسطو :

ومما احتج به أرسطو على نفى علم الله بغيره ، قوله أن تعقل الله لغيره يوجب تغيرا فى ذاته بسبب إدراكه الأغيار المتغيرات ، كما يوجب تكثرا فى ذاته بكثرة مدركاته ومعقولاته •

ويرى أبو البركات أن هذه الحجة داحضة والقول باطل • لأن كثرة المدركات والمعقولات لا توجب كثرة فى ذاته تعالى ، بل فى إضافاته ومناسباته ، وهذه مما لا يفيد الكثرة فى هويته وذاته ولا فى وحدته التى وجبت له فى وجوب وجوده بذاته ومبدئيته الأولى التى بها عرفناه وبحسبها أوجبنا له ما أوجبنا وسلبنا عنه ما سلبنا • وأما أنه تعالى يتغير بإدراك المتغيرات فذلك أمر إضافى لا معنى فى نفس الذات • وقد ناقض أرسطو نفسه بهذا القول لأنه ذكر فى كتاب القاطيغورياس أن الظن الواحد لا يكون موضوعا للصدق والكذب بتغيره فى نفسه بل من حيث تتغير الأمور المظنونة عما هى عليه من موافقته الى مخالفته ، لأن ذلك التغير ليس للظن فى ذاته ، بل للأمر المظنون حيث وافق تارة ثم تغير فخالف ، فإذا كان ذلك لا يغير الظن والاعتقاد ، فكيف يغير العلم ثم يتأدى الى تغير العالم •

ومن جهة أخرى ، فإن أرسطو نفسه يقرر بأن التغير ان كان يقع لبعض الأجسام وما هو جسمانى فإنه لا يقع فى النفوس التى تتجدد لها المعارف والعلوم ، لأن التغير حركة ، والنفوس لا تتحرك فى المكان ، بل إنها فى نظره ليست فى مكان البتة فكيف أن تتحرك فيه • ويرى أبو البركات أنه حتى لو لزم ذلك التغير فى بعض الأجسام فإنه لا يلزم فى البعض الآخر ، فقد يسود الجسم ويبيض وقد يسخن ويبرد وهو فى مكانه •

---

(٨) أبو لبركات : المعتبر ، جـ ٣ ، ص ٧٤ ـ ٧٦ •

لم يتحرك ولا يتحرك قبل الاستحالة ولا بعدها ، وإذا لزم ذلك فى بعض الأجسام فإنه لا يلزم في النفوس ، وحتى لو لزم فى التغيرات النفسانية فإنه لا يلزم انتقال الحكم فيه الى التغيرات فى المعارف والعلوم والارادات ، لأن الحكم الجزئى لا يلزم حكما كليا ، وصدق القضية الجزئية لا يوجب صدق الكلية المتداخلة معها ، فلا يتعدى الحكم بالتغير من البعض الى الكل ، ولا الى البعض ، وإلا لكانت الأشياء كلها على حال واحدة . انه إن كان ذلك التغير المرتبط بالحركة يصح فى الأجسام الداخلة تحت الكون والفساد بالتغيرات المحدودة فى الكيفيات المبصرة والملموسة والأشكال والمقادير وما يتبعها ويتعلق بها ، فإنه لا يصح فى النفوس والعقول والذوات ، وأولى الا يصح في ذات الله تعالى ، فلا يلزم شيء مما قاله أرسطو . وبطل بذلك قوله وحجته(٩) .

نقض الحجة الثالثة لأرسطو :

وأما حجة أرسطو على إنكار علم الله بغيره والقائمة على أساس أن ذلك العلم يسبب لله الكلال والتعب باتصال المعقولات وتتابعها وكثرتها ، فهى حجة باطلة فى نظر أبى البركات من وجهين :

أحدهما : أن أرسطو قرر فى كتاب السماء ، أنها لا تتعب بدوام حركتها المتصلة ، لأن الحركة طبعها الذى لا يخالف إرادتها . فجعل علة التعب هناك مخالفة الطبيعة للارادة ، وجعل علة التعب هنا بالنسبة للاله كثرة الأفعال واتصالها والخروج من القوة الى الفعل ، وليس الأمر كذلك . لأن القوة قوتان هما استعداد وقدرة . والاستعداد إذا كمل بالخروج الى الفعل صار قدرة ثم عن القدرة تصدر الأفعال . والاستعداد نقص يحتاج الى الكمال ، والقدرة كمال تصدر عنه الأفعال . وقدرة الله تعالى لا يسبقها فيه استعداد يصير بالخروج الى الفعل قدرة ، بل قدرته دائمة أزلية قارة على حد لا ينقص ولا يزيد ، وليست بمعنى الاستعداد الذى يخرج الى الكمال . وحتى لو كانت من هذا القبيل — فرضا — لما جاز أن يحكم عليها بالتعب والكلال ، بل باللذة والكمال لأن ما بالقوة يشتاق الى كماله الذى بالفعل ، ومن قبيله تكون اللذة والسعادة .

---

(٩) أبو البركات : المعتبر ، جـ ٣ ، ص ٧٧ — ٧٨ .

ومن جهة أخرى ، فإن الكلال والتعب إنما يعرضان لنا نحن البشر لا من جهة اتصال أفعالنا ولا من جهة كثرتها وازدحامها ، بل من جهة تحريك أعضائنا وأرواحنا بتقلبنا وتفكرنا حركة تخالف مقتضى الطبيعة التي في جواهرنا • لأن الحركة تحل جوهر الروح (الحيواني) منا أعني من أعضائنا لتركبها من لطيف وكثيف ، واللطيف عرضة للانحلال بالحركة ، فإذا انحلت الروح التي بها تعلق القوة المحركة ضعفت هذه القوة فينا وعجزت ، فنسمي ذلك تعبا وكلالا • فإذا كان التعب والكلال قد ارتفع - فيما قال أرسطو - عن السماء ، فإن ذلك لارتفاع التركيب فيها والانحلال ، وليس لأن الطبيعة لا تضاد الارادة فيها أو تضادها ، فإذا ارتفع ذلك عن السماء لبساطتها ، فإنه بالأحرى يرتفع عن سماء السماء وبسيط البسائط الذي لا تركيب فيه بوجه ، الوحداني الذات ، الواحد الفرد الصمد(١٠) •

نقض الحجة الرابعة لأرسطو :

تقوم حجة أرسطو هذه على أساس القول بأن عدم إبصار بعض الأشياء أفضل من إبصارها ، وعلى هذا فإن عدم علم الله ومعرفته بالأشياء أفضل من علمه ومعرفته بها •

ويرى أبو البركات أن هذا القول باطل في حق الله تعالى ، وأنه إن صح بالنسبة لنا نحن البشر ، فإنه لا يصح بالنسبة لله تعالى • ذلك أننا على ضيق وسعنا وقصر أعمارنا ، يصح القول بأن إبصار الأفضل أولى من إبصار الأخس ، لأن الخسيس خسيس بالنسبة لنا أيضا ويكون في أشياء مباينة لطباعنا ، منافرة لحواسنا ، وليس خسيسا بإطلاق وبالقياس الى كل حساس • فطعم الشيء القذر في فم الخنزير مثلا كطعم العسل في فم الانسان • واذا دققت النظر الى الكل ، لم تجد فيه شيئا خسيسا تعر معرفته أو يضر علمه ، أو يكون لا إدراكه ولا تعقله أولى وأفضل من إدراكه وتعقله ، لا في الروحانيات ولا في الجسمانيات ، ولا السماويات ولا في الأرضيات • وذلك لأن مافي الأرض وتحت السماء ، ليس شيئا آخر

---

(١٠) أبو البركات : المعتبر ، ج ٣ ، ص ٧٩ •

غير الأسطقسات الكيانية وما يتولد عنها بامتزاجها وليس فى الممتزج منها إلا قوى سمائية ، وليس منها ما يضر إدراكه أو تعر معرفته اللهم إلا لشخص ينافيه ويضاده ، لا على الاطلاق .

ومن علا وسما عن المضادة والمباينة ، فلا يكون ذلك بالنسبة اليه مكروها . فالله تعالى وملائكته أجل من أن ينالهم الأذى بضد أو مباين فى لون أو طعم أو رائحة ، وكيف يكون ذلك وكل مافى الوجود صادر عنه تعالى وعن ما عنه وهو عنه بالحقيقة . فما لا يأنف منه تعالى ان يخلقه ويوجده ، لا يأنف منه أن يدركه ويعقله . وما لم يضره ويعره فى أن فعله ، لا يعره ولا يضره فى أن يعلمه ، وليس لذاته كيفية مناسبة من لون أو طعم أو رائحة فيؤثرها ، وأخرى مباينة فيكرهها مثلنا ، فقد بطلت هذه الحجة وما استندت اليه وما تؤدى اليه أيضا(١١) .

نقض الحجة الخامسة لأرسطو :

يستند أرسطو فى هذه الحجة الى القول بان تعقل القديم التام الدائم لابد أن يكون قديما تاما دائما ، فإن كان يعقل غيره من الموجودات المتجددة ، فإنه يعلمها واحدا بعد آخر ، وفى هذا ما يوجب تجدد الأحوال عليه ، وهذا باطل فى حقه ، فثبت إذن أن معلومه واحد تام قديم هو ذاته لا غير .

وينقض أبو البركات هذه الحجة بقوله إن الله يعقل ذاته ويعقل غيره فهو يعقل الدائمات دائما ، ويعقل المتجددات عقلا قديما دائما من حيث قدمها النوعى والمادى . وأما العلل الفاعلية والغائية فيتعقلها فى تغيرها على وفق تغيرها ، ولا يكون ذلك التغير فيه بل فيها ، وهو يعقلها كلها على ماهى عليه كما نعقل نحن بعضها فنعلم أعيانها وأنها ستكون ، وشهادتنا وأنها كائنة ، ونعلم معدومها بعد كونه ، ولا يضيق وسعه عن ذلك ولا يتغير به ولا ينقص ولا يكمل . بل هو له كما يشاء ، وعلى وفق قدرته وإرادته فى خلقه ، ولا يمتنع ذلك عليه بأية جهة لا من جهة العجز ولا من جهة التنزيه .

---

(١١) المصدر السابق ، ص ٧٩ ـ ٨٠ .

أما عدم استحالة ذلك عليه من جهة العجز ، فيدل عليه دليل الخلق من حيث أن قدرته على الخلق دليل قدرته على العلم ، إذ هو خالق الكل • والخلق أكبر وأعظم فى القدرة من العلم ، فإذا لم يصح التعجيز فى الخلق ، فاولى به وأحرى أن لا يصح فى العلم ، فلا عجب أن يسع كل شىء علما • وأما من جهة التنزيه ، فإنه تعالى لا تضره معرفته بشىء من خلقه ، ولا ضد له فى خلقه ولا مباين ، وليس كماله بخلقه ــ كما قلنا ــ بل خلقه بكماله ، فالكل منه وعنه ، والكمال له بذاته فى الحقيقة(١٢) •

هكذا أمكن لفيلسوفنا أبى البركات أن يدحض حجج أرسطو على انكاره علم الله بالموجودات ، ولعلنا لاحظنا أن نقض أبى البركات لبعض هذه الحجج كان مستندا الى تناقضات أرسطو فى أقواله وآرائه ، نجد ذلك فى نقضه للحجج الأولى والثانية والثالثة ، ثم استند فى نقضه للحجج الأخرى الرابعة والخامسة ، الى ما يسمى بقياس الأولى وهو قياس ترجع أصوله الى المنهج القرآنى ، واستخدمه كثير من المتكلمين والفقهاء قبل أبى البركات •

ثانيا ــ نقد مذهب ابن سينا فى العلم الالهى :

قبل أن نعرض لنقد أبى البركات لمذهب ابن سينا ، يجدر بنا أن نلخص مذهب ابن سينا أولا ، اعتقادا منا أن فى ذلك ما يلقى مزيدا من الضوء على مضمون هذا النقد ومعطياته ومدى نجاحه أو فشله فى إبطال ما ذهب اليه ابن سينا من آراء وما قدمه من أدلة يدعم بها مذهبه • وسوف نلاحظ تأثر ابن سينا ببعض افكار وآراء أرسطو وان كان لم يذهب مذهبه •

يتلخص مذهب ابن سينا فى العلم الالهى فى النقاط الآتية :

١ ــ ان واجب الوجود بذاته (الله) يعلم ذاته ويعقل غيره من الموجودات ، ولكن لا يجوز أن يعقل الأشياء من الأشياء ، لأن ذلك يوجب أن تكون ذاته متقومة بما تعقل أو متقومة بالأشياء فيكون لغيره فيه تأثير ، وهذا محال • أو يكون تعقلها عارض للذات فلا تكون واجبة الوجود من كل جهة ، لأنه يكون له حال لا تلزم عن ذاته ، وهذا محال فى حقه تعالى

---

(١٢) أبو البركات : المعتبر ، ج ٣ ، ص ٨١ • • • • •

أيضا ، وإذن فتعقله لغـيره من الموجـــودات يكون عن ذاته وبذاته لا عن الأشـياء المعقولة •

٢ ـ ان تعقل واجب الوجود بذاته للأشياء الخارجة عن ذاته ، يؤدي الى تغير في ذاته وتأثره بغيره ، وهذا باطـــل ، بل انه بما هو مبـــدأ كل وجود ، فإنه يعقل من ذاته ما هو مبدأ له ، وهو مبدأ للموجودات التـــامة بأعيانها ، وللكائنات الفاسدات بأنواعها أولا وبتوسط ذلك بأشـخاصها ولا يجوز أن يكون عاقلا لهذه المتغيرات مع تغيرها ، فتارة يعقل منها ، حال وجودها ، أنها موجـــودة غير معدومة ، وتارة يعقـــل أنها ، حال عدمها ، معدومة غير موجـــودة ، ولكل واحد من الأمرين صـــورة عقلية على حدة ، ولا تبقى إحدى الصورتين مع الأخرى ، فيكون واجب الوجود متغير الذات وهذا باطل أيضا(١٣) •

٣ ـ ثم ان الفاسدات ان عقلت بالماهيـــة المجردة وبمـا يتبعها مما لا يتشخص ، فلم تعقل اذن بما هى فاسدة ، وان أدركت بما هى مقارنة للمـــادة وعوارض المادة ، لم تكن معقولة ، بل محســـوسة أو متخيـلة ، والمحسوس المتخيل لا يدرك إلا بآلة جزئية جسمانية ، لأن مدرك الجزئيات لا يكون عقلا بل قوة جسمانية ، وكلا الأمرين محالان فى حق الله تعـــالى بما هو عقل محض وذاته مجردة عن المادة وليس لها قوى جسمانية •

وعلى هذا ، فإن واجب الوجود بذاته ، إنما يعقل كل شيء على نحـو كلي ، ومن ثم فإنه لا يعلم الجزئيات الحادثة بالحقيقة وإنما على وجه كلي تبعا لعلمه بالكليات التى تندرج هذه الجزئيات تحتها ، ومع ذلك يقرر بأن الله لا يعزب عنه شيء ولا مثقال ذرة فى السموات والأرض(١٤) •

---

(١٣) انظر ابن سينا : الاشارات ، ما بعد الطبيعة ، ص ٢٠٢ ـ ٢٠٥ ، الشفاء ، الالهيات ، جـ ٢ ، ص ٣٥٨ ـ ٣٥٩ ، التعليقات ، ص ٩٧ ، ٥٨ ، ص ١١٦ ـ ١١٧ •

(١٤) انظر ابن سينا : الشفاء ، الالهيات ، جـ ٢ ، مقالة ٨ فصل ٦ ، ص ٣٥٦ ـ ٣٥٨ ، النجاة ، ص ٢٤٣ ـ ٢٤٥ ، الاشارات ، القسم الالهى ، ص ٢٠١ ـ ٢٠٢ •

وقد آثرنا أن يكون عرضنا الموجز لمذهب ابن سينا متضمنا لأهم أدلته على صحة مذهبه ، لكننا فى عرضنا لنقد أبى البركات لهذا المذهب سنفصل القول حجة حجة لابن سينا ثم نتبعها بنقد أبى البركات لها واحدة بعد الأخرى .

نقد الحجة الأولى لابن سينا :

يرى أبو البركات أن قول ابن سينا بأن تعقل الله لغيره يفيد أن ذاته متقومة بهذا الغير المعقول ، أو أن يكون تعقله أمر عارض لذاته ، وفى كلتا الحالتين لا يكون واجب الوجود بالذات ، إنما هو قول باطل ومحال . ويستدل على ذلك بأن العاقل لا يتقوم بما يعقله ، لأن معنى يعقل أنه يفعل ، وفعل التعقل هذا إنما يحصل بعد أن يكون قد أوجد بعدية بالذات ، فكيف يتقوم الوجود بما هو بعد الوجود بالذات . وأما أن يكون ذاته عارض لها أن تعقل ، فلا يكون واجب الوجود من جميع جهاته ، فهو قول فى نظر أبى البركات أقرب الى مدح الشعراء ومحسنى الألفاظ بالتخيلات فى الخطب والمدائح ، لأن معنى كونه مبدأ أولا بل مبدأ مطلقا ، يلزم فيه كونه متقوما بذاته واجب الوجود بذاته ، ومعنى تقومه بذاته هو أن تعقله انما هو له بذاته ومن ذاته ، فلا يكون التعقل عارضا لذاته(١٥) .

نقد الحجة الثانية لابن سينا :

وأما قول ابن سينا بأن وجب الوجود بذاته لو عقل غيره لكان له حال لا تلزم عن ذاته بل عن غيره ، وأن ذلك يوجب تغيرا فى الذات وتأثرها بغيرها ، وهو قول أرسطو من قبل ، فهو قول باطل أيضا . لأن العلم إضافة لزمت عن ذاته بالنسبة لمخلوقاته ، ومخلوقاته لزمت عن ذاته ، ولازم لازم الذات ، لازم الذات ، فما لزمت عن غيره كما قال . ولو لزمت لما لزم المحال ، لأنه لا حجة لهم على ذلك بل ذكروه كأنه بين بنفسه وهو غير بين بنفسه بل مردود باطل بما قلناه . وأما أن يكون لغيره فيه تأثير ، فهو باطل أيضا ، لأنه لا يمكن أن يكون التأثير فى وجوده تعالى ووجوب وجوده ، إذ هو واجب الوجود بذاته وهو مبدأ كل وجود . ولا يمكن كذلك

---

(١٥) أبو البركات : المعتبر ، ج ٣ ، ص ٨٢ .

أن يكون التأثير بالاضافة والنسبة ، وانما وقعت المغالطة بلفظ التأثير من حيث يتوهمه السـامع متأثرا مستحيلا ، وليس العلم اسـتحالة على ما ذكرناه •

وأما قول ابن سـينا بأن واجب الوجود ، بما هو مبدأ كل وجـود ، فإنه يعقل من ذاته ما هو مبدأ له ، فهو قول حق وغير مردود ، إلا أنه تعالى يعقل ويدرك على كل وجه من وجوه التعقل وكل جهة من جهات الادراك ، فهو سميع بصير ، وبالجملة هو مدرك عالم حكيم مقدر مدبر ، يسع كل شيء علما غيبا وشهادة ، قبل وبعد ، ومع وبعد(١٦) •

وأما قول ابن سينا بأنه تعالى لا يجوز أن يكون عاقلا للمتغيرات مـع تغيرها بحيث يعلم تارة وجودها عندما تكون موجـودة ، ثم يعلم عدمها وفسادها ، وأن ذلك يوجب تغيرا فى ذاته ، فقد نقضه أبو البركات بما نقض به الحجة الخامسة لأرسطو مما عرضناه له من قبل ، حيث قال ان التغير لا يكون فى ذاته تعـالى بل فى المتغيرات ، وهو يعقلها على ما هى عليه ، ولا يمتنع ذلك عليه لا من جهة العجز ولا من جهة التنزيه(١٧) •

نقـد الحجة الثالثة لابن سـينا :

ومما احتج به ابن سينا على إنكاره علم الله بالموجودات من الكائنات الفاسدات والجزئيات قوله إنها إن عقلت بالماهية المجردة وبما يتبعها مما لا يتشخص ، فلم تعقل بما هى فاسدة ، وان أدركت بما هى مقارنة للمادة وعوارض المادة لم تكن معقولة بل محسوسة أو متخيلة ، والمحسوس المتخيل لا يدرك إلا بآلة جزئية وقوة جسمانية ، وفى كلتا الحالتين فهى لا تدرك ولا تعقل لأن ذات واجب الوجود ماهية مجردة وعقل محض • ومن جهـة أخرى ، فإن العلم هو انتقاش صور المعلومات فى العالم وارتسامها فيه ، فكيف يكون واجب الوجود بذاته محلا وهيولى للصور العلمية •

ويرى أبو البركات أن هذه الحجة باطلة ، ودليل بطلانها ما نجده فى أنفسنا من أن مدرك الجزئيات فينا من المبصرات والمسموعات وسـائر

---

(١٦) المصدر السابق ص ٨٣ •

(١٧) انظر ص ١١٠ ــ ١١١ من هذا البحث •

المحسوسات ليس بقوة جسمانية ، بل المدرك فينا لكل المدركات بكل أنواع الادراكات هو النفس التى هى ماهية مجردة • وقد أفاض أبو البركات فى شرح ذلك فى الجزء الخاص بعلم النفس من كتابه « المعتبر » ، حيث أبطل ما نسبه ابن سينا الى القوى الحسية الجسمانية الظاهرة والباطنة من إدراكات بآلاتها الجسمانية ، وما خصصه لكل قوة منها من مكان فى الدماغ ، وأرجع كل الادراكات والتعقلات وكل المدركات الكلية والجزئية والعقلية والحسية الى النفس المجردة • فالنفس عنده هى المدركة السامعة لما يسمع ، الباصرة لما يبصر ، المتخيلة لما يتخيل ، المتصورة الذاكرة العاملة ، وهى جوهر مجرد روحانى فإذا كان ذلك حقا بالنسبة لنفوسنا ، فأولى به أن يكون حقا بالنسبة لله تعالى ، فهو يحيط بكل شىء علما ، وذاته مجردة فلا هو جسم ولا قوامه فى جسم(١٨) •

وكذلك ، فإن العلم ليس انتقاش صور المعلومات وارتسامها فى العالم كما قال ابن سينا ، دليل ذلك أننا ندرك ونعلم من الموجودات مالا يسعه فينا مكان ولا الجسم بأسره ، مثل ادراكنا للسماء والأمكنة والبلدان والنبات والحيوان والبشر ، مما لايمكن تصور مكان ومحل يسع صور هذه المعلومات المدركات لافى النفس ولا فى أى جزء من أجزاء الجسم من الدماغ أو غيره ، بل ولا فى تالجسم بأسره ، ومع ذلك ندركها ونعلمها ، فإذا كان ذلك بالنسبة لنا حقا فأولى به أن يكون حقا بالنسبة لذات الله تعالى المجردة دون أن يوجب ذلك كونه محلا وهيولى للصور العلمية •

نقد الحجة الرابعة لابن سينا :

ويدعم ابن سينا مذهبه فى العلم الالهى وانكاره علم الله بالجزئيات الحادثة ، على أساس أن علمه تعالى بهذه المعلومات يوجب تكثرا فى ذاته • ولما أدرك أن وصفه لواجب الوجود بذاته بأنه عقل وعاقل ومعقول قد يوهم تكثرا فى الذات ، قال بأن هذه المعانى كلها هى بمعنى واحد فيه لا يوجب تكثرا فى ذاته ، فهو عقل من حيث هو ذات مجردة ، وعاقل من

---

(١٨) أبو البركات : المعتبر ، جـ ٣ ، ص ٨٤ - ٨٧ ، جـ ٢ ، ص ٤١٣ - ٤١٦ •

حيث يعقل ذاته ، ومعقول من حيث أن ذاته معقول ذاته ، فلا يوجب ذلك تكثرا في ذاته بوجه من الوجوه(١٩) .

ويتقض أبو البركات هذا القول لابن سينا ، بالكشف عما فيه من خلط وتناقض ، اذ كيف يكون المدرك الذى هو فاعل ، هو نفس الادراك الذى هو فعل ، وهو نفس المدرك الذى هو مفعول . واذا اعتبرت هذه المعانى والوجوه كلها بمعنى واحد ، فما الفرق اذن بين ادراكه ولا ادراكه وكيف يصدق الادراك ويكذب سلبه ، وما الموجب وما المسلوب ، وما الصادق وما الكاذب . واذا كان الأول تعالى يدرك ذاته بذاته من غير ادراك هو فعل صادر عن ذاته وصفة من صفاته ، فما الفرق بينه وبين مالا يدرك ذاته ، فإن الادراك قد سلب عنه ولم يبق إلا ذات بمجردها ، وذات مالا يدرك ذاته كذلك أيضا ، فما الفرق بينهما اذا رفع الادراك ؟. أبكونه قد سمي بثلاثة أسماء ، أو قيل عليه ثلاث كلمات (عقل وعاقل ومعقول) لا يغادر معناها معنى الواحدة منها ، فلا تكون إلا ألفاظا مترادفة لا يدل أحدها على غير ما دل عليه الآخر ، وكل من يتصور ويعقل ما يقول . يعلم أن الفعل غير الفاعل ، والادراك غير المدرك ، والعلم غير العالم .

وعلى هذا ، فمعرفة الأول تعالى بذاته غير ذاته ، وكذلك معرفته بمعرفته بذاته . وما دامت ذاته شيء ومعرفته بذاته شيء ولم يوجب ذلك تكثرا فى ذاته ، فكذلك معرفته بمخلوقاته لا توجب تكثرا فى ذاته . وكما أثبتنا للنفس معلومات ومعارف كثيرة متنوعة ، ونفينا عنها كونها هيولى أو مكانا أو محلا لهذه المعلومات ، فأولى بنا أن ننفي ذلك عن واجب الوجود بذاته ، ونثبت له العلم والمعرفة بذاته وبغيره من مخلوقاته دون أن يوجب ذلك تكثرا في ذاته(٢٠) .

---

(١٩) انظر ابن سينا : الشفاء ، الالهيات ، جـ ٢ ، مقالة ٨ ، فصل ٦ ، ص ٣٥٨ ، النجاة ، ص ٢٤٥ ، التعليقات ، ص ٧٨ ــ ٧٩ ، الرسالة العرشية ص ٨ .

(٢٠) أبو البركات : المعتبر ، جـ ٣ ، ص ٩٧ ــ ٩٩ .

ثالثا ـ مذهب أبى البركات فى العلم الالهى :

لعله قد اتضح لنا كيف رفض أبو البركات مذهب أرسطو فى أن الله لا يعلم إلا ذاته وكيف نقض حججه جميعا ، كما اتضح لنا كيف رفض مذهب ابن سينا فى قصر علم الله على ذاته وعلى كليات الأشياء ومباديها منكرا بذلك علم الله بالجزئيات الحادثة علما حقيقيا ، فهو يعلمها لا من حيث هى حادثة متجددة فى ذاتها ، وانما يعلمها على وجه كلى تابع لعلمه بمباديها وعللها ، وكذلك انتقد أبو البركات حجج ابن سينا التى استند اليها فى دعم مذهبه .

وقد لاحظنا أن أبا البركات قد بث بعض آرائه فى العلم الالهى فى تضاعيف آرائه النقدية لمذهبى أرسطو وابن سينا . وأشار الى أن الله يعلم ذاته ويعلم الموجودات كلياتها وجزئياتها دون أن يؤدى ذلك الى تغير أو استحالة أو تكثر فى الذات الالهية . لكنه لا يكتفى بذلك بل يعود فيؤكد مذهبه ويدعمه بقوله ان المدركات صنفان : مدركات وجودية تشاهد فى الأعيان ، ومدركات ذهنية تدرك بالأذهان . وأن الوجودية ، منها ما هو مادى كالمبصرات والمسموعات ، وما هو روحى نعلمه ونعرفه معرفة استدلالية . ونفوسنا تدرك هذه وتلك بذاتها ، ومن ثم فلا مانع يمنعنا ولا حجة توقفنا عن أن نقول بأن الله تعالى يدرك سائر الموجودات ويعلمها كذلك أيضا من حيث لا يحتجب عنه منها شىء بشىء ولا يضيق وسعه عن ادراك كل شىء كما لم تضق قدرته عن ايجادها بأسرها . وادراكه لها مثل ادراك نفوسنا لمبصراتها على الوجه الذى لا يلزم منه حلول المدرك فى المدرك على قال به ابن سينا وتابعوه . ولا التشكل بشكل وجسد كما قال المجسمون ، ولكن على الوجه الذى تدرك به نفوسنا لما تدركه من بعيد وقريب ، وصغير وكبير ، خصوصا من المبصرات ، فإنه فيها أبين ، وقد أوضحنا أن حكم غيرها من المحسوسات هو حكمها أيضا .

وأما المدركات الذهنية ، فإنها صور كالمثل ، تتصور للأذهان وعندها من موجودات الأعيان بحيث تنتسب اليها بما هو هوية فى حضور المدركات الوجودية المنسوبة اليها عند المدرك وغيبتها عنه ، حتى إنه اذا أدرك المدرك عينا من الأعيان الوجودية وتمثل لها عنده صورة من ذلك الادراك تبقى

بعد غيبة المدرك عند الذهن ، ثم تكون فى بعض الأوقات خاطرة بالبـــال حاضرة عند الذهن ملحوظة منه ، كما تخطر ببالنا صورة زيد مـع غيبتـه فى بعض الأوقات • وأكثرها غير خاطرة بالبال ، ومتى أراد الانسان برويته إحضارها وإخطارها بباله أحضرها • وربما حضرت له سنوحا من غـير طلب ، وبذلك يعرف النـــاس ما يعرفونه ومن لا يعرفونه من الصـــديق والعدو ، والنسيب والقريب ، واللذيذ والمؤذى ، والأماكن والمنازل ونحوها مما يصير معروفا(٢١) •

فالمعرفة تحصـــل من الادراك وبالادراك ، أعنى من إدراك ســابق وبإدراك ثان وهكذا • وهذه الصور الذهنية المدركة محفوظة عند النفس دون أن تكون منتقشـة متصورة بالأشـــكال والمقادير المعـــروفة المذكورة المحفوظة الملحوظة فى آلة هى جزء من البدن ، بل ولا فى البـــدن بأسره ، ولا فيه وفيما يلوذ به من الهواء المحيط وغيره • والذى يحفظ هذه الصور هو الذى يلحظها وهو النفس لا غير • والأشياء المحفوظة لا يزاحم بعضها بعضا فى الحفظ ، ولا يعوق بعضها عن حفظ بعض ، أما الملحوظة فيزاحم بعضها بعضا ولذلك تلحظ النفس منها شيئا بعد شىء وشيئا قبل شىء لأن الملحوظ يشغلها عن غيره والمحفوظ لا يشغلها • ولا يجوز أن يقال ذلـك بالنسبة لادراك النفس لذاتها بحيث تدرك ذاتها حينا ولا تدركها حينـــا آخر ، لأن الانسان يدرك ذاته ويشعر بذاته مع كل حالة وادراك وعـــلم ومعرفة ، كما يشعر بذاته مع كل لذة وألم وعلم ومعرفة وادراك وتأمل يصدر عن ذاته • والمدركات الذهنية صـــور حاصلة عند النفس هى مثـــل محاكية للمدركات الوجودية ، محفوظة عند النفس مع نسبتها الى ما هى صـــور له • وبهذه النسب يعرف العارف أن هذا هو هذا • وليست هذه المثل من نوع ما هى صور لها ولا من جواهرها ، لأن النار المعقولة مثلا لا تحرق ، والثلج المعقول لا يبرد ، والضد منها لا يمنع الضد •

وإذا كان هذا هكذا فى عالم النفس الانسانية ، فإنه كذلك فى عالم الربوبية على ما قال به أفلاطون • فالمعلومات والصـــور الذهنية فى عالم الربوبيـة هى أسباب للموجـــودات ومثل لها لا مسببات للموجـــودات ،

---

(٢١) أبو البركات : المعتبر ، ج ٣ ، ص ٨٨ •

فالموجودات أمثال ونسخ لمعلومات الله • واذا كنا نعلم أن من الصور الذهنية ما يكون سببا للموجود ، كصورة الخلخال فى نفس الصائغ ، وصورة السرير فى نفس النجار ، ومنها ما يكون الموجود سببا لها كصورة الشمس وصورة القمر فى ذهن العارف بهما ، فإن الصور العلمية فى عالم الربوبية تكون بأسرها من قبيل الصائغ والخلخال والنجار والسرير ، لا من قبيل الشمس والقمر بالقياس الى الانسان • بمعنى أن الصور العلمية أو العلم الالهى يكون فى عالم الربوبية أسبق فى الوجود من تجسداتها فى الموجودات فى الواقع وسببا لوجود هذه الموجودات أيضا • ولذلك قال أفلاطون بالمثل والقواليب ، وكيف لا وهى المثل الحقيقية ، بل الموجودات مثلها ونسخها وهى أم الكتاب ، فهكذا يجب أن تتصور فى معرفة الله تعالى وعلمه(٢٢) •

ومن اليسير ملاحظة الأثر الأفلاطونى فى فكر أبى البركات فى مسألة العلم الالهى ، وكيف أن معلومات الله تعالى هى صور ومثل ذهنية سابقة فى وجودها على وجود الموجودات التى هى نسخ وأمثال تطابق هذه الصور ، بل إن هذه الصور العلمية أسباب لوجود ما يوجد ، وليست صورا لما يوجد تتحقق للذات بعد الوجود ، بل إن ما يوجد هو نسخ لهذه الصور أو المثل العقلية الالهية ، ولذلك قال أبو البركات فى مواضع كثيرة ذكرناها قبلا ، إن الله تعالى علم فأراد فأوجد ، فعلمه تعالى يسبق ارادته ، وارادته تسبق ايجاده ، وعلى هذا يدخل العلم فى السببية الى جانب الارادة التى تكون السبب المباشر لايجاد ما يوجد ، ولما أن كانت الموجودات عللا ومعلولات ، ومبادىء وكليات وجزئيات ، فإن ذلك يدل على أن علم الله يشملها جميعا فلا تخرج الجزئيات الحادثة من دائرة العلم الالهى •

ولما كان الله تعالى مبدأ أولا لكل وجود وموجود ، فهو مبدأ أول لكل علم ومعرفة ، وكيف يكون مبدأ صدور علوم العالمين ومعارف العارفين هو من لا علم له ولا معرفة • إن ذلك يوجب تناقضا ومحالا • ومن جهة

---

(٢٢) أبو البركات : المعتبر ، جـ ٣ ، ص ٩٠ — ٩١ •

أخرى ، كيف يكون الانسان عالما بالجزئيات المحسوسة والكليات المعقولة ، ويكون الاله الواجب الوجود بذاته والمبدأ الأول منزها عن ذلك ، ويكون علمه مقصورا على ذاته وعلى الكليات فقط • إن ذلك يوجب كون علم الانسان أكمل وأشمل من علم الله تعالى وهو مالا يقول به عاقل • وكما انه تعالى مبدأ كل وجود ، فهو مبدأ كل علم ومعرفة ، ومبدأ العلم عالم ، ومبدأ كل معلوم لابد أن يكون عالما بهذا المعلوم سواء كان هذا المعلوم موجودا فى الأعيان أو موجودا فى الأذهان •

ويؤكد أبو البركات علم الله بالجزئيات وصلة العلم الالهى بالحكمة والقدرة الالهية ، فى موضع آخر من دراساته الطبيعية • فهو بعد دراسته للنبات والحيوان يشير الى أن هذه الدراسة تفيدنا فى معرفة وجود فاعل واحد قادر عالم حكيم • أما أنه تعالى فاعل واحد ، فبما هو ناظم أفعال الفاعلين الكثيرين ، ورابط بعضها ببعض ، ومعين بعضها ببعض ، وجاعل بعضها غاية لبعض • وأما أنه قادر فلكثرة أفعاله وتفنن تصرفاته فى كثرة مخلوقاته ، وتسخير القوى الكثيرة وتمليك بعضها لبعض •

وأما أنه عالم حكيم ، فلكون كل صغيرة دقيقة ، وكبيرة جليلة ، داخلة فى النظام الحكمى ليس منها ما هو سدى ، حتى مسام الشعر فى الجلد ، ومراشح اللعاب فى الفم ، ومجارى الشعب الدقيقة من العروق فى صغير الحيوان التى تعجز أبصارنا عنها فكيف أن تنالها قدرتنا • هذا فيما عز لدقته ، وما جل لعظمته وقوته كالرياح الحاملة للسحب الى أراض تمطر عليها ، فتنبتها نباتا ويحيى بها حيوانا ، بل وتحريك الشمس والقمر ، وتمييل فلك البروج عن فلك معدل النهار ليخالف بين أحوال الفصول وتصلح بعضها ببعض ، ويقوى كل ضد فى وقته على ضد لو استولى عليه لأبطل نوعه وسلب وجوده •

وأما الحكمة ، فإن الحكيم يقال على مراعى غايات افعال فى مباديها حتى لا يفعل عبثا ، ويرى غايات الأفعال المحكمة فى جزئيات الأشخاص وأجزائها ، فيرى معدة تعد لكبد ، وكبدا لقلب ، وقلبا لعين ، وشخصا لشخص ، وأشخاصا لنوع ، ونوعا لأنواع ، وهكذا فى كل ما نراه فى العالمين السماوى والأرضى(٢٣) •

---

(٢٣) أبو البركات : المعتبر ، جـ ٢ ، ص ٢٨٨ •

وتجدر الاشارة ، الى أن أبا البركات يثبت صفتي السمع والبصر لله تعالى مثلما فعل الأشاعرة من حيث ورد بهما القرآن الكريم ، لكنه يلحقهما بالعلم الالهى ، باعتبار أن ادراك المسموعات والمبصرات يفيد العلم بها . وفى ذلك يقول بأن الانسان اذا خاطب صاحبه بأن قال له وسمع منه وسأله وأجابه ، فإن الخطاب والمسألة والجواب يكون باللفظ الذى يكون بالصوت المسموع وبحركة اللسان والشفتين . وهذه الألفاظ بمثابة إشارات تدل على المعانى المقصودة من نفس القائل لنفس السامع ، وبها يعرف المسئول سؤال السائل ومطلوبه ، ويعرف السائل جواب المسئول ، فكذلك يكون لأهل الفطنة والمعرفة ما يعرفون به ربهم معرفة أتم من المعرفة برؤية العين ، حيث يدعوه الداعى فيجيبه ، لا بصوت مسموع بل بمطلوبه المقصود . ولو أجابه بكلام ليس فيه الغرض المطلوب ، لقد كان أنقص فى إجابته له ومعرفته به من إجابته بغرضه وللعارفين من ذلك من يقظتهم ومنامهم وما يتأملونه من حال أنفسهم فى يومهم ما تصح به المعرفة وتتم به المعاملة فى السؤال والجواب .

ويستدل أبو البركات على ثبوت صفتي السمع والبصر لله تعالى وأنهما بمعنى العلم على أساس أن الانسان قد يدعو ربه ويسأله مطلوبات دون أن ينطق بلفظ أو يحرك لسانه وشفتيه ، فيستجيب الله لدعائه ويحقق له مطلوبه . فإن قيل : كيف يعرف السائل الداعى أن الله هو السميع المجيب قلنا بأن ذلك يعرف على سبيل معرفة العلم من العالم فيعرف أن العالم بحاله عالم ، والذى سمع مقاله ودعاءه سميع ، والذى لبى دعوته سميع الدعاء ، والذى أنصفه ممن ظلمه عادل منصف بصير بأحوال عباده ، والذى أعانه على من هو أقوى منه ، قوى قادر عالم بما فى السرائر مطلع على الضمائر ، فيعرف من هذه الأحوال فاعلها ، وأنه ليس من البشر الذين يراهم ويسمع كلامهم من حيث لم يتوجه بالسؤال الى أحد منهم ولا دعا أحداً منهم ولا استعان به .

- فيعلم من ذلك بدليل العقل أن الداعى فى الأرض والمجيب فى السماء ، كطالب المطر للسقيا والغيم لرى الجنان ، والصحو للتخلص من شدة المطر فى السفر ونحوه ، فمن يسمع من فى الأرض ويقدر على ما فى السماء هو

ملك الأرض والسماء وهو السميع العليم . ولا أدل أيضاً على أن الله سميع ، من أننا نجد أناسا في مناطق متنائية من بقاع الأرض لم يعرفوا نبيا ولا علم لهم . ومع ذلك نجد عندهم معرفة بتجارب يعملون بحسبها ، فيوفون بالنذور ، ويصدقون فيما يحلفون عليه ويعدون به ، ويدعو المظلوم منهم على الظالم ، ويخاف الظالم التبعة في ظلمه ، بل إن الحيوانات غير الناطقة أيضا نجد فيها مثل ذلك ، حيث تستسقى الوحوش المياه في الصحراء ، وتضج الأيائل من العطش فترفع رؤوسها الى منزل القطر من السماء كما ألفت نزوله من هناك ، وتتحرك اليه بالطبع ، ويصيح المتأذي منها صيحة تدل على الأذى كصيحة من يفترسه وحش ، والخائف من المخوف منه ، والهارب من طالبه ، وان كان كل واحد من هؤلاء لا يعرف كيف يدعو والى من يدعو ، كل ذلك يدل على أن الخالق الموجد العالم بأحوال مخلوقاته وموجوداته سميع بصير مجيب لدعائهم(٢٤) .

البعد الرابع - رؤية الله (نور الأنوار) :

رأينا فيما سبق كيف أثبت أبو البركات صفات ذاتية ايجابية لله تعالى ، هي له بذاته من ذاته ، وكيف أنه وافق فيها بعض المتكلمين وخاصة الأشاعرة ، ووافق الفلاسفة في بعضها وخالفهم في البعض الآخر .

أما فيما يخص أسماء الله تعالى ، فكان له موقف آخر نلحظ فيه نزعة صوفية إشراقية يخالف بها المتكلمين عامة فيما عدا الغزالي المتصوف السني الأشعري حيث يتفق معه بوجه ، ويخالف الفلاسفة المشائين مخالفة تامة . وهو من خلال دراسته لهذا الموضوع يعرض موقفه من رؤية الله تعالى فيثبتها بطريقة خاصة أقرب ما تكون الى الصوفية الاشراقية وأبعد ما تكون عن المجسمة الذين أثبتوا الرؤية الحسية ، وعن المعتزلة الذين نفوا الرؤية ، وعن الأشاعرة بدرجة ما ، وعن الفلاسفة المشائين الذين أنكروا الرؤية أيضا .

ذلك أن أبا البركات يرى أن لله تعالى أسماء تسمى بها بحسب المعاني التي تعرف بها هذه الأسماء مثل الخالق الرازق الموجد القادر القاهر الرحيم الجواد ، لكنه يرى أن ليس في هذه الأسماء اسم يدل عليه تعالى

---

(٢٤) أبو البركات : المعتبر ، ج ٣ ، ص ١٣٧ - ١٣٨ ، ص ١٥٦ .

بذاته ، وأن أكثر الأسماء ملاءمة لذات المبدأ الأول من جهة معرفتنا بها إنما هو « نـور الأنـوار » ، فهذا الاسم هو اسم الذات على الحقيقة ، فهو أخص الأسماء من أخص المسمين لأخص مسمى ٠

ويوضح لنا ذلك ، بأن النور يصح أن يقال باشتراك الاسم على النور الذى نراه ونرى به ، وعـلى علته ومبدئه الذى عنه يصـدر وهو محض حقيقته ، فنفوسنا ترى الأشياء وتريها ، وتظهـرها وتبديها ، فهى نور أيضا ٠ وعلتها وسببها الذى عنه صدر وجودها أحق منها باسم النـور ، ونسبته اليها كنسبة نور الشمس الى نور القمر ٠ ونور الشمس ليس علة أولى بل هو معلول ، وعلته لو كانت قريبة لأبصارنا لظهرت لنا أكثر من ظهور الشمس ، لكنها غير ظاهرة لنا لأنها أبعد عن أبصارنا ، فعلة نـور الشمس أحق بمعنى النـور من نور الشمس ٠ وهكذا تتسلسـل العلل النورية حتى تنتهى الى نور يصـدر عنه وجـود الأنوار بأسرها ، خفيهـا وظاهرها ، وعلتها ومعلولها ، هو نور الأنوار كما هو مبدأ المبادىء ، وهو أبعد من أن يرى بالعين ، وأحق بأن يرى من أى شىء آخر ، لكونه الأظهر فى الوجود والأسبق والأحق بالوجود ، ونوره له بذاته ومن ذاته ولذاته ٠

وبعد أن يثبت أحقية الله تعالى باسم نـور الأنـوار ، يوضح لنـا أبو البركات نظريته فى رؤية الله فيقول بأن النفس إذا تطلعت بذاتها نحو مباديها وعادت بنظرها الى جهة بدايتها ، انتهت بنظرها الى ذلك النـور ٠ واستعانت بمباديها القريبة عليه ، كما يستعين نور البصر بنـور الشمس على الابصار فهو تعالى الأظهر فى وجوده ولمن هو اليه أقرب ، والأخفى على ابصـارنا التى نورها من نوره أبعد ٠ والادراك انما يكون للموجـود لأن المعدوم لا يدرك ٠ والذى وجوده أقدم وأثبت هو فى نفسه أظهر ، ولمن هو بادراكه أولى وعليه أقوى ، وهو أبعد ممن يضعف عن ادراكه ، كما تضعف عيون الخفاش عن ضوء النهار ٠ والذى ندركه بأذهاننا فى يقظتنا ومنامنا هو من هذا القبيل ، وتدركه نفوسنا بذاتها اذا تخلت فى المنام عن حواسها ومحسوساتها ٠ والصورة المدركة بالذهن موجودة فى الذهن وعنده ، ولولا ذلك لما أدركها مدرك ٠ فالنفس تدرك بذاتها ما يخفى مثله على حواسـها وآلاتهـا(٢٥) ٠

---

(٢٥) أبو البركات : المعتبر ، جـ ٣ ، ص ١٢٥ ٠

ذلك أن الموجودات التى لا تنالها الحـــواس من النفوس ، وهى التى عرفناها بأفعالها ، والعلل التى استدللنا على وجودها من معلولاتها ، يكون إدراك نفوسنا لها على احتمالين : أحدهما ، أن يكون لنفوســـنا أن تدركها بذواتها اذ التفتت اليها بالكنه عن محســـوساتها ، كما التفتت عنهـا فى المنام . وقد يتم هذا الادراك لبعض النفوس دائما أو فى وقت ما أو حالة من أحوالها بآلة تدرك بها هذا النور ، مثلما تدرك بالروح البصرى ما تدركه من الادراكات البصرية ، وبالروح الدماغي ما تدركه من الادراكات الذهنية .

وأما الاحتمال الثانى ، فهو أن لا يكون من شأن نفوسنا أن تدرك هذه الموجودات ، وهو احتمال بعيـد عن الامكان لأن هـــذه المدركات الروحانية أنسب الى جوهـر النفس وأقرب اليها بالطبع من حيث إن النفس مجردة روحانية مثلها ، فهى بإدراكها لهذه الروحانيات أولى خاصة وان هـــذه الروحانيات فى الحقيقة أظهر وجودا من معلولاتها المحسوسة ، فهى أولى بان تدرك ، والنفس أولى بأن تدركها من هذه المدركات الأخرى .

وعلى هذا ، فإن حكم العقل والنظر الاعتبارى يحكم بأن النفس تدرك بذاتها هذه الموجودات الروحانية ولكن بشرط تجرد النفس وتخليها عن كل ما يعوقها عن هذا الادراك ، فتلتفت عن القريب الى النسيب ، وعن الأبعـد عن طبيعتها الى الأقرب ، وعن الأخفى الى الأظهر ، لأنه قد ثبت لنا أن العلل أظهر وأقدم وجودا من المعلولات عند من يقوى على الادراك ، كقوة البصر على نور الشمس الذى به يتجلى لمن قوى بصره ويحتجب عمن ضعف بصره ، فكذلك الحال فى هذه الموجودات النورانية الذوات التى تنالها النفس كنها بكنه غير محجوب عنه ، فهى إذا التفتت الى هذه المدركات ، رأت عللها ومباديها الأقرب منها اليها بذاتها ، والأبعد عنها بســـفارة الأقرب ومعونتـه ، كما تستعين فى الأنظار الفكرية بالأقرب الى الفطرة على الأبعد عنها .

ومن قبيل هذه الموجـودات الروحانية النـــورانية ، الملائكة ، وهى وهذه الموجودات تسمى أرواحا وروحانيـــات ، وهى أنوار من حيث ترى وترى ، وتبصر وتبصَر ، وهى مراتب فى النورية ، فكل ما هو منها أعـلى فهو نور النور ، والله تعالى الذى هو مبدأ المبادى وعلة العلل والغاية القصوى،

فهو نور الأنوار ، ومن ثم فهو أحق بأن يرى ، ولكننا لسنا أحق بأن نراه لبعد نوعنا عن مقام منظـــره ومداه ، فهو الظـاهر الخفي • أما ظهـوره فبذاته وصفاته ووجوده الواجب بذاته ، وما وجب عنه في سائر مخلوقاته • وأما خفاؤه ، فعند من ضعف بصره الذاتي عن إدراكه كضعف عين الخفاش عن ضوء النهار الذي يخفى عليها ، لا لكون الضوء غير موجود ، ولكن لكونه أظهر وأقوى ، فيعجز العين ويبهرها(٢٦) •

والله تعالى من حيث ان وجوده أوجب وأتم في الوجود ، فإنه يـكون أظهر من كل ظاهر ، وقد يكون الظهور عند بعض المدركين حجابا • وكما انه إذا أنست العين بالنـور الأضعف ، قدرت على إبصـــار النور الأقوى ، وتدرجت من الأقوى الى الأقوى فالأقوى حتى ترى ما كانت تعجز عن إدراكه في أول بروزها من الظلمة ، فكذلك تـكون النفس الانســانية إذا أنست بالمدركات الظاهرة من عالم الربوبية ، قويت باقربها منها على إدراك أبعدها عنها حتى تنتهي بمعونة الأقرب وإدراكه ، الى ادراك الأبعد ، وبمعونة الأدنى الى ادراك الأقصى ، وتظل النفس تترقى في مراتب الادراك وأنواع المدركات حتى تنتهي الى إدراك نور الأنـوار اذ توجهت الى ذاته بكنههـــا ، والتفتت بذاته اليه تعـالى ، وهي تدرك في هذه الحالة بإدراك تتيقن به ومعه أنها مدركة لله نور الأنوار • وليس لنفوسنا أن تدركه وهي منغمسة ومشغولة بأي شيء آخر سواه ، وبما هي مجردة روحانية فهي نور ، ومن ثم فإنهـــا تدرك الموجودات المجردة الروحانية بما هي أنوار ، والله تعـالى هو نور الأنوار فأولى بالنفس في حالة التجرد التام والتوجه اليه بالكلية أن تراه وتدركه(٢٧)

تعقيـــب :

ويستفاد مما سبق ، أن أبا البركات يعني بالرؤية أنهـــا إدراك من نوع خاص ، وهو بهذا يتفق مع ما قال به أبو الحسن الأشعري في أحـد آرائه من أن الرؤية ادراك خاص وراء العـــلم لا يقتضي تاثيرا في المـــدرك ولا تاثرا عنه(٢٨) • وهو بهذا ، يختلف مع جمهور المعتزلة الذين أنـكروا

(٢٦) أبو البركات : المعتبر ، ج ٣ ، ص ١٢٦ ــ ١٢٩ •
(٢٧) المصدر السابق ص ١٤٠ •
(٢٨) انظر الشهرستاني : الملل والنحل ، جـ ١ ، ص ١٠٠ ــ ١٠٥ ، ١٠٨ ــ ١٠٩ •

الرؤية تماما ، تنزيها لله عن معانى التشبيه والتجسيم واتساقا مع مذهبهم فى نفى الصفات ، وان كان قليل منهم قد أثبتوا الرؤية بمعنى العلم(٢٩) ٠

وإذا كان أبو البركات يتفق بوجه عام مع الأشاعرة فى إثبات الرؤية ، فإنه يختلف عنهم من وجوه ٠ ذلك أنهم أثبتـــوا الرؤية فى الآخرة شرعا وعقلا ، حيث يراه المؤمنـون الأخيار بالأبصــار ، وان كانوا قد قالوا بأن البصر هناك ليس كالبصر هنـــا ، وإنما يكون بكيفية تتناســب والرؤية الالهية ٠ وذهبوا الى أن المصحح للرؤية هو الوجود ، وبنوا على هذا دليلهم العقلى القائم على أساس أن كل موجود يصح أن يرى ، وما دام الله موجودا ، فإنه يصح أن يرى(٣٠) ٠ أما أبو البركات ، فقد أثبت إمكان الرؤية بمعناها عنده ، وان كان قد قصرها فى الدنيا على العارفين بالله المتجردة نفوسهم عن كل ما يشغلها ويعوقها عن هذا الادراك ٠ ثم إنه لا يرى بأن المصحح للرؤية هو الوجود فقط ، وإنما هو درجة النورية الحاصلة للموجود أيضا ٠ ولما كان الله تعـالى هو نور الأنوار من حيث ان نوره أكمل وأتم ، ومصدر كل نور فى الوجـــود والموجودات النــــورانية ، فهو أحـق بوجـــوده ونوريته بأن يـرى ٠

ويؤكد أبو البركات نفيه لامكان رؤية الله تعـالى بالابصار ، متفقا فى هذه الجزئية مع المعتزلة ، بقوله إن من يعتقد فيه تعـالى أنه يرى بالعـين التى هى هذه الجارحة فقد أخطأ ، وبعد عما أوضحناه جدا ٠ لأن العـــين حجاب بقياسه يستعان بتركها على إبصاره لا بها ، بل هو على ما قيل أظهر فى وجــوده ، وأخفى من أن يدرك بالعــــين ، فإنها آلة للنفس فى إدراك ما دونها من المحســوسات لا فى إدراك ما فوقها من المجــــردات الروحانية النورانية ، والادراك لما فوقها أولى بأن يكون لها بذاتها منه بآلاتها(٣١) ٠

---

(٢٩) انظر عبد الجبار : المغنى ، جـ ٤ ، ص ٢٣٣ ــ ٢٣٤ ، شرح الأصول الخمسة ، ص ٢٣٢ ، ٢٦٢ ٠

(٣٠) انظر الشهرستانى : الملل والنحل ،جـ ١ ، ص ١٠٠ ــ ١٠٥ ، الباقلانى : الانصاف ، ص ٤٢ ، التمهيد ، ص ٢٦٦ ــ ٢٦٧ ٠

(٣١) أبو البركات : المعتبر ، جـ ٣ ، ص ١٢٩ ٠

وأخيرا ، فإن موقف أبى البركات فى اثبات رؤية الله تعالى يضاد موقف هؤلاء الذين نفوها بإطلاق مثل النجارية والجهمية من الجبريين ، والشيعة الزيدية والخوارج وبعض المرجئة والمعتزلة(٣٢) .

ولا يفوتنا فى هذا المقام أن ننوه الى أن أبا البركات فى مذهبه الذى اثبت فيه أن الله تعالى نور الأنوار ، وأنه أحق من ثم بأن يرى ، كان متأثرا ببعض أفكار الغزالى وآرائه خصوصا تلك التى أودعها هذا رسالته « مشكاة الأنوار » وهى الرسالة التى ضمنها الغزالى تفسيره الصوفى لآية النور التى وردت بالقرآن فى قوله تعالى : « **الله نور السموات والأرض** ... » (سورة النور : آية ٣٥) .

وإنى لأزعم أن أبا البركات كان متابعا للغزالى فى كل ما ضمنه هذه الرسالة من آراء وافكار متابعة تكاد تكون تامة ، وكل ما هنالك من فروق بينهما ، هو أن الغزالى يربط آراءه وأفكاره بآيات القرآن الكريم يستدل بها على ما يقول ، وهو ما لم يفعله أبو البركات .

فإذا كان أبو البركات قد أثبت أن الله هو نور الأنوار ، استنادا الى أن الموجودات الروحانية أنوار مترتبة ، بعضها علل لما بعدها ، ومعلولات لما قبلها وفوقها ، وأن هذه العلل النورانية تتسلسل تصاعدا لكن ليس الى غير نهاية ، وإنما تنتهى الى علة الأنوار ومنبعها جميعا الذى هو الله نور الأنوار ، وان هذا الاسم هو أحق الأسماء وأخصها دلالة على الله تعالى ، فإن الغزالى قد صرح بذلك كله بوضوح وجلاء حيث يقول : « الأنوار السماوية التى تقتبس منها الأنوار الأرضية إن كان لها ترتيب بحيث يقتبس بعضها من بعض ، فالأقرب من المنبع الأول أولى باسم النور لأنه أعلى رتبة ... فاعلم أنه قد انكشف لأرباب البصائر أن الأنوار الملكوتية إنما وجدت على ترتيب كذلك ، وان المقرب هو الأقرب الى النور الأقصى » ، « وإذا عرفت أن الأنوار لها ترتيب ، فاعلم أنه لا يتسلسل الى غير نهاية ، بل يرتقى الى منبع أول هو النور لذاته وبذاته ، ليس يأتيه نور من غيره ، ومنه تشرق الأنوار كلها على ترتيبها ، فانظر الآن كيف ان اسم

---

(٣٢) انظر الشهرستاني : الملل والنحل ، جـ ١ ، ص ٨٨ - ٨٩ ، ص ٤٥ .

النور أحق وأولى بالمستنير المستعير نوره من غيره ، أو بالنير فى ذاته المنير لكل ما سواه • فما عندى أنه يخفى عليك الحق فيه ، وبه يتحقق أن اسم النور أحق بالنور الأقصى الأعلى الذى لا نور فوقه ، ومنه ينزل النور الى غيره ••• فإذن النور الحق هو الذى بيده الخلق والأمر ، ومنه الانارة أولا والادامة ثانيا ، فلا شركة لأحد معه فى حقيقة هذا الاسم ولا فى استحقاق هذا الاسم »(٣٣) •

وإذا كان أبو البركات قد أثبت أن الملائكة وموجودات العالم العلوى الروحانية أنوارا مترتبة بعضها فوق بعض ومع بعض ، فقد سبقه الغزالى الى ذلك حيث قال : « ••• فاعلم أنه قد انكشف لأرباب البصائر أن الأنوار الملكوتية إنما وجدت على ترتيب كذلك ، وأن فيهم الأقرب لقرب درجته من حضرة الربوبية التى هى منبع الأنوار كلها ، وأن فيهم الأدنى ، وبينهما درجات تستعصى على الاحصاء وإنما المعلوم كثرتهم وترتيبهم فى مقاماتهم وصفوفهم ••• »(٣٤) •

وإذا كان أبو البركات قد أثبت أن نور الأنوار ، إنما نوره له بذاته ومن ذاته ولذاته ، فقد سبقه الغزالى أيضا الى هذا حيث يقول : « ••• فلا ينبغى أن يخفى ذلك عليك بعد أن عرفت أنه النور ولا نور سواه وأنه كل الأنوار ، وأنه النور الكلى • لأن النور عبارة عما ينكشف به الأشياء ، وأعلى منه ما ينكشف به وله ، وأعلى منه ما ينكشف به وله ومنه ، وأن الحقيقى منه ، ما ينكشف به وله ومنه ، وليس فوقه نور ، منه اقتباسه واستحداده ، بل ذلك له فى ذاته من ذاته لذاته لا من غيره ، ثم عرفت أن هذا لن يتصف به إلا النور الأول »(٣٥) •

وإذا كان أبو البركات قد أثبت إمكانية رؤية النفس وادراكها لنور الأنوار بشرط تجردها وتخليها عن كل ما سواه وتوجهها بالكنه والكلية

---

(٣٣) الغزالى : مشكاة الأنوار ، ص ٥٣ ـ ٥٤ تحقيق د• أبو العلا عفيفى ، القاهرة ١٩٦٤م •

(٣٤) الغزالى : معراج السالكين ، المعراج الرابع ، ص ١٥١ ـ ١٥٤ ، مشكاة الأنوار ، ص ٥٣ •

(٣٥) الغزالى : مشكاة الأنوار ، ص ٥٩ •

اليه ، فكذلك قال الغزالى قبله ، وإن كان قد نسب ذلك الى العقل باعتباره نورا من الأنوار ، ولا فرق لأن العقل عند أبى البركات قوة من قوى النفس وكذلك عند الغزالى(٣٦) .

وأخيرا ، تجدر الاشارة الى أن هذه الآراء التى تشيع فيها روح التصوف ، سواء عند الغزالى أو عند أبى البركات البغدادى ، قد لاقت قبولا عند فيلسوف إشراقى ظهر فى النصف الثانى من القرن السادس الهجرى هو فيلسوف الاشراق شهاب الدين السهروردى (ت ٥٨٧ هـ) فقد أخذ بها وعمقها ووسعها وهذبها وأضاف اليها أفكارا وآراء من عنده بنى عليها وبها نسقا مذهبيا جديدا يمثل بحق فلسفة صوفية إشراقية ذات بناءات ومضامين تقوم أساسا على فكرة النور ، باعتباره الحقيقة الوجودية المتمثلة فى نور الأنوار (الله) والذى هو أساس ومبدأ كل وجود ، وقد أودع السهروردى مذهبه هذا فى كثير من مؤلفاته وخاصة فى كتابيه « حكمة الاشراق » و « هياكل النور » ورسائل أخرى صوفية له .

وقد عرض أستاذنا الدكتور محمد على أبو ريان لفلسفة السهروردى الاشراقية عرضا مستفيضا فى كتاب له بعنوان « أصول الفلسفة الاشراقية عند شهاب الدين السهروردى » لا غنى عنه لكل باحث فى فلسفة التصوف على وجه خاص(٣٧) .

تعقيب :

لعله قد اتضح لنا خلال مسيرتنا مع أبى البركات فى هذا الفصل الخاص بصفات الله تعالى ، أن مذهبه فى الصفات يتميز عن مذهب السابقين عليه من المتكلمين والفلاسفة بما له من ملامح خاصة أهمها :

١ — إنه يثبت صفات ذاتية إيجابية لله تعالى فيصفه بأنه الحى القادر المريد الواسع العليم الحكيم وأنه الأول والآخر ، الغني الجواد ، العلى

---

(٣٦) الغزالى : المصدر السابق ، ص ٤٦ — ٤٨ .

(٣٧) انظر د. محمد على أبو ريان : « أصول الفلسفة الاشراقية » ، ط بيروت ١٩٦٩م .

العظيم القدوس ، كما يصفه بالكمال والجلال وأنه سميع بصير • وهو فى إثباته لهذه الصفات يقر بما ورد به القرآن والسنة من هذه الصفات ، وبما أثبته المتكلمون وخاصة الأشاعرة • ويرى أن هذه الصفات جميعا إنما هى لله تعالى بذاته يتفرد بها دون غيره من الموجودات ، ولئن وصف بعض الموجودات بها ، فإنها توجد فى هذا البعض بوجه آخر وبصورة مغايرة • أما كونها فى بعض المخلوقات بوجه آخر ، فلأنها لا توجد فيها بذاتها وعن ذاتها ، بل توجد فيها عنه تعالى ، فوجودها ليس على سبيل الحقيقة وبالمعنى التام بل على سبيل المجاز والاستعارة • وأما كونها فى بعض الموجودات بصورة مغايرة ، فلأن هذه الموجودات تتصف بها وبأضدادها ، فالحى منها يموت ويفسد ، والقادر يعجز ، والغنى يفتقر ، والمريد يتردد فى مراداته أما الله تعالى ، فإنه يوصف بها ولا يوصف بأضدادها فهو المنزه عن الأضداد والمقدس عن كل نقيصة •

٢ ـ ان هذه الصفات الايجابية الذاتية ، ليست هى عين الذات كما قال المعتزلة ، لأن أبا البركات لا يوحد بين الذات والصفات بما يفيد نفى الصفات مثلما فعل المعتزلة ، وإنما يرى أن هذه الصفات إنما هى صفات وحالات للذات وان كانت للذات بذاتها وعن ذاتها ، فالذات شىء وصفاتها التى لها شىء آخر ، ولذلك لا يجوز فى نظره أن يقال إن الله حياة أو قدرة أو علم أو ارادة ، وانما يقال إنه حى قادر عليم مريد بذاته ، فهذه الصفات واجبة له بذاته • ولا يعنى ذلك تكثرا فى الذات الالهية بالرغم من أن هذه الصفات له فى الأزل •

ولا يتوقف وصفه تعالى بهذه الصفات على الأفعال المتصلة ببعض هذه الصفات مثلما ذهب المعتزلة ، وإنما هو موصوف بها قبل وبعد صدور هذه الأفعال عنه • فهو تعالى يوصف بأنه جواد قبل أن يجود ، وخالق قبل أن يخلق ، فلولا أنه جواد لما جاد ، ولولا أنه خالق لما خلق وأوجد • وأبو البركات يخالف فى ذلك المعتزلة الذين ذهبوا الى أن صفات الأفعال لا يتصف الله بها إلا بعد صدور الأفعال عنه ، فهو تعالى ـ فى نظرهم ـ لا يوصف بأنه خالق قبل أن يخلق العالم ولا بأنه رازق قبل أن يرزق مخلوقاته ، ولا بأنه جواد قبل أن يجود بما جاد به على خلقه •

٣ ـ واذا كان الفلاسفة المشاؤون وخاصة ابن سينا ، قد ذهبوا الى أن واجب الوجود بذاته لا صفة له ولا حال ولا اعتبار ، ولا حيث ولا وجه لذاته بحيث يكون أحد الوجهين والاعتبارين غير الآخر ، ومن ثم اعتبروا الصفات كلها : إما سلبية كصفات الواحد والعقل والعاقل والواجب بذاته ، وإما إضافية كالصانع والعلة والمبدع والحكيم والقدير ، وأن أضداد هذه وتلك مسلوبة عن ذاته تعالى ، واما صفات مركبة من سلب واضافة كالمبدأ الأول والمريد والجواد والكريم ، ولا توجب هذه الصفات تكثرا فى ذات واجب الوجود(٣٨) •

أقول إذا كان المشاؤون قد ذهبوا هذا المذهب ، فإن أبا البركات وافقهم فى وجهين وخالفهم بوجهين • وافقهم فى إثبات بعض الصفات التى قالوا بها وان اعتبروها سلوبا واضافات ، كالواحد والمبدع والحكيم والقدير والمريد الجواد والكريم ، غير أنه زاد عليها صفات أخرى مما ذكرناه له • ووافقهم أيضا فى أن هذه الصفات لا توجب تكثرا فى ذات الله تعالى • غير أنه خالفهم بما ذهب اليه من أن هذه الصفات يوصف بها الله على الحقيقة وأنها صفات ثبوتية ذاتية وليست سلوبا واضافات كما قالوا • وخالفهم أيضا من حيث رفض بعض الصفات التى قالوا بها مثل أن واجب الوجود بذاته عقل وعاقل ومعقول ، وعشق وعاشق ومعشوق ، وفى هذا يقول بأنهم ان كانوا قد أثبتوا بعض الصفات وأهملوا الصفات الأخرى ظنا منهم أن ما أثبتوه لا يفيد تكثرا فى الذات ، وأن ما أهملوه خشية التكثر فى ذاته ، فإنهم أخطأوا فى ذلك لأن ما تركوه من الصفات إن كان إثباتها يفيد تكثرا فى الذات ، فإن ما أثبتوه منها يفيد تكثرا أيضا اتساقا مع وجهة نظرهم ، فليس العقل الذى هو فعل ، هو العاقل الذى هو فاعل ولا هو المعقول الذى هو مفعول ، وكذلك الحال فى العشق والعاشق والمعشوق •

٤ ـ ومذهب أبى البركات فى العلم الالهى مذهب يقربه من الدين ومذهب جمهور المتكلمين وخاصة الأشاعرة على وجه الخصوص بقدر ما يبعده

---

(٣٨) انظر ابن سينا : الشفاء ، الالهيات ، جـ ٢ ، مقالة ٨ ، فصل ٤ ، ص ٣٤٣ ـ ٣٤٤ ، فصل ٦ ، ص ٣٥٥ ـ ٣٥٨ ، التعليقات ، ص ٦١ ، ٧٠ ، ١٨٠ ـ ١٨٣ •

عن أرسطو ومذهب الفلاسفة المشائين المسلمين ، من حيث أثبت هو علم الله تعالى بكل شيء وانتقد مذاهب أرسطو والمشائين أيضا مبطلا كل حججهم التي ساقوها لاثبات ما ذهبوا اليه سواء في إنكار علم الله بكل شيء سوى ذاته على ما ذهب أرسطو ، أو في إنكار علم الله بالجزئيات الحادثة على ما ذهب الفارابي وابن سينا •

٥ ـ وإذ يثبت أبو البركات صفات الله تعالى ـ كما قدمنا ـ فقد نأى بنفسه عن الوقوع فيما وقع فيه السابقون عليه من شبهات التعطيل والتجهيل والتعجيز والضرورة بالنسبة لذات الله تعالى وأفعاله • فإذا كان جمهور المتكلمين بقولهم بحدوث العالم أى وجوده بعد زمان لم يكن فيه موجودا ، قد وقعوا في نظر الفلاسفة في شبهة تعطيل الله عن الفعل والجود مدة ما قبل حدوث العالم ، فإن أبا البركات قد تجاوز هذه الشبهة حين قال بقدم بعض موجودات العالم التي وجدت عن ذاته تعالى وبذاته بجوده القديم حيث أنه تعالى « جاد فأوجد ، وأوجد فجاد » •

واذا كان الفلاسفة المشاؤون المسلمون قد أنكروا علم الله بالجزئيات وقالوا إنه يعلمها على وجه كلي فوقعوا في شبهة التجهيل لله تعالى ، فإن فيلسوفنا أبا البركات قد نأى بنفسه عن ذلك حين أثبت علم الله التام الشامل المحيط بالكليات والجزئيات ، واعتبر علمه علة في الخلق والايجاد من حيث أنه تعالى « علم فخلق ، وخلق فعلم » ، وأن علمه بالجزئيات لا يفيد تكثرا ولا تغيرا في ذاته مثلما توهموا •

واذا كان المعتزلة والفلاسفة المشاؤون السابقون على أبي البركات قد نفوا الصفات الالهية حين اعتبرها المعتزلة عين الذات ، واعتبرها الفلاسفة سلوبا وإضافات ، فعطلوها جميعا وأنكروا فعالياتها فوقعوا في التعطيل والتعجيز ، فإن أبا البركات لم يقع فيها من حيث أثبت القدرة لله تعالى وأن الصفات له تعالى بذاته وعن ذاته ولذاته ، وانها تتمايز بحقائقها ومعانيها وبالأفعال المرتبطة بكل منها ، وقد أوضحنا كيف أن اتصافه بصفات الأفعال كالخالق والرازق والمصور وغيرها انما يوصف بها قبل صدور الأفعال المرتبطة بها عنه وبعد صدورها أيضا •

واذا كان الفارابى وابن سـينا فيما ذهبـا اليه فى نظرية الصدور (أو العقول العشرة) قد قالوا بصدور الموجودات عن واجب الوجود بذاته صدورا وجوبيا ضروريا لازما ، فقد وقعوا فى شبهة الضرورة فى أفعال الله ونفى الارادة والمشيئة الالهية وإنكار أثرها فى عملية الخلق والايجاد ، فإن أبا البركات قد تجاوز هذه الشبهة أيضا حين أثبت الارادة الالهية وفاعليتها من حيث اعتبرها علة فى الايجاد والخلق . فالله تعالى « أراد فخلق ، وخلق فأراد ، شيئا من أجل شىء .. وهكذا » .

الفصل الثالث

الغائيــة فى الفعــل الالهى

ويشـــمل :

أولا : الفعــل الالهى فعــل غائى

ثانيا : الله هو الغاية القصوى

اولا - الفعل الالهي فعل غائي :

رأينا فيما سبق كيف أثبت أبو البركات أن الله تعالى يفعل بعلم وإرادة وقصد ، والقول بالغائية في أفعال الله يدعم القول بالارادة والقصد في أفعاله • وعلى ذلك يرى أبو البركات أنه لا يجوز أن يكون الله فاعلا لما يفعله لغير ما غاية ، بل فعله لغاية لا محالة ، لأن العالم المريد الحكيم لا يفعل عبثا ، فانتفاء الغاية في الفعل الصادر عن العالم الحكيم المريد يثبت عبثية الفعل والفاعل معا • ومن ثم فإن أفعال الله لها غايات يقصدها ويريدها • ويشير أبو البركات الى ما أثبته في الطبيعيات من أن الأفعال العبثية التي تصدر عن العابثين انما تكون لغاية ، واذا كان الأمر كذلك ، فكيف لا يكون هناك غايات لما ليس بعبث من الأفعال المحكمة التي تصدر بمقتضى العلم والحكمة مثلما هو ظاهر لكل معتبر •

وغاية الله من أفعاله إما أن تكون هي ذاته أو تكون غيره ، أما أن تكون الغاية هي ذاته ، فمثلها - ولله المثل الأعلى - كمثل الطبيب الذي يتداوى ليصح ، وكالانسان السخي الكريم يجود ليلتذ • وأما أن تكون الغاية غيره ، فكمثل الطبيب يداوي ليشفي المريض ، وكالسخي الكريم يجود ليغني الفقير عن الحاجة • ولا يجوز أن تكون غاية الله من أفعاله هي غيره ، لأن هذا الغير إما أن يكون من مخلوقاته ومعلولاته أو لا يكون • فإن كان من مخلوقاته ، فالغاية في خلقه تسبق وجوده وتتقدم عند خالقه ، فليس هو الغاية الأولى المقصودة في فعل الله تعالى ، فقبله غاية أخرى ، وهكذا تتسلسل الغايات الى مالا نهاية ، وهذا باطل ، وان لم يكن من مخلوقاته ومعلولاته ، فهو مبدأ أول أيضا واجب الوجود بذاته وهذا باطل أيضا ، لأنه قد ثبت أن واجب الوجود بذاته واحد أحد فرد صمد ، لا ضد له ولا ند له ولا شريك في بداية الخلق والجود والايجاد • وإذ بطل هذا وذاك ، فلم يبق إلا أن يكون هو الغاية القصوى ، كما كان هو الفاعل الأول ، فالغاية من أفعاله تعالى هي ذاته •

وكما أن الفاعل الأول هو فاعل كل فاعل بعده ، كذلك الغاية الأولى هي غاية كل غاية قبلها ، فهو الأول وهو الآخر • هو الأول من جهة كونه فاعلا ، وهو الآخر من جهة كونه غاية • لكن لا ينبغي القول بأنه غاية بالوجه

الذى يقال به على الطبيب إنه يتداوى ليشفى ، لأن التــداوى يكون لمنـع الأذى قبل حصـوله أو لازالته بعد حصوله ، وهو تعـالى لا آذى له لأنه لا مؤذى له من حيث أنه لا ضد له ولا آخر معه فى الوجود الواجب السابق لوجود كل موجود . ففعله لا يكون لدفع ضرر أو أذى واذا لم يكن كذلك ، فهو لحصول منفعة .

ولما أدرك أبو البركات أن القول بأن الغاية من أفعال الله هى لحصول منفعة ، يثير حفيظة أكثر العلماء والنظار ، ويوقع فى الظن ما يتعارض مع التنزيه والاجلال الواجبين له تعـالى من حيث أن الجواد القديم لا يجـوز أن يكون فيه بذاته ووجوده الواجب نقص يحتاج الى تمام واجتلاب نفع لتكميل نقص ، فقد سارع أبو البركات بإيضاح ما يقصده ، وهو أن جود الجواد الأول ليس من جملة الأشياء التى استفادها من غيره أو أحدثها بعد أن لم تكن ، بل هو فيما لم يزل جواد ، فهو فيما لم يزل ملتذ بجوده ، وهـذا الجود له ومنه ، فلذته منه وله وبه ، وليست له بغيره حتى يقال إنه كان على حال نقص فكمل بغيره .

ولا يصح القول بأنه لا فرق عند الجواد القـديم بين أن يخلق الخلق وأن لا يخلقه ، لأن ذلك يعنى أنه لا فرق عنده بين كونه جوادا ولا كونه كذلك ، فيكون كأنه قال لا فرق بين ربوبيته ولا ربوبيته ، وهذا محال . بل إنه لولا الفرق ، لما وجب الجود والايجاد عنه تعالى . ولولا الفرق بين الجود واللاجود ، لما اختار القديم تعالى الجود ، ولا رضى به دون مقابله ، لأنه تعالى يفعل بمعرفة وعلم واختيار ، لغاية هى جوده ، فجوده هو مقصوده وغايته فى فعله والموجودات لزمت عن جوده ، فما جاد لأجـل الايجاد فى ذاته ، ولكنه أوجد لأجل الجود فغايته هو جوده الذى له بالذات ومن صفات الذات التى يشعر بها الموصوف فيسر بها ويفرق بين كونها ولا كونها فرقا يختار فيه الكون على اللاكون(1)

وتجدر الاشارة الى أن القائلين بالغائية فى الفعل الالهى هم القائلون بالتعليل فى الفعل الالهى ، وان الذين يرفضـون هذه الغـائية هم الذين يرفضون العلة فى أفعـال الله تعالى . وعلى هـذا ، نلاحـظ ان موقف

١- أبو البركات: المعتبر ج٢ ص١٦٦-١٦٩

أبى البركات الذى يثبت فيه الغائية فى الفعل الالهى ، موقف يتفق فيه مع ما ذهب اليه جمهور الفقهاء ، كما يتفق مع مذهب المعتزلة بوجه ويختلف عنه بوجه آخر • ولكنه يختلف بالكلية عن مذهب الأشاعرة والفلاسفة خاصة أصحاب نظرية الصدور الاسلامية أمثال الفارابى وابن سينا •

أما اتفاق أبى البركات فى إثباته الغائية فى الفعل الالهى ، مع رأى جمهور الفقهاء ، فلأن هؤلاء يقولون بالتعليل فى الفعل الالهى ، ويرون أن إثبات العلة فى الفعل الالهى يرتبط ارتباطا وثيقا بتقرير الحكمة الالهية فى أفعال الله تعالى ونفى العبثية عنها • فالله عندهم خالق كل شىء بقدرته ومشيئته ، ولكنه تعالى لا يخلق سدى ولا يفعل عبثا وإنما أفعاله تابعة لمصالح العباد تفضلا وإحسانا لا وجوبا كما قال المعتزلة • ومن ثم يثبتون للحوادث أسبابا تقتضى التخصيص • وقد شاركهم المعتزلة فى هذا الرأى ، وإن كانوا أكثر منهم استخداما للفظ « غرض » فى التعبير عن توجه الفعل الالهى لعلة غائية ووجوب التعليل فى الفعل الالهى(١) •

ويتفق رأى أبى البركات فى الغائية مع رأى المعتزلة بوجه يتمثل فى قولهم إن الله تعالى يفعل لعلة وغرض أو غاية ، لأن الحكيم لا يفعل فعلا إلا لعلة وغرض أو غاية يعلمها ، لأن الفعل الذى لا يهدف الى غاية أو غرض إنما هو سفه وعبث ، ولا يصدر مثل هذا عن عالم حكيم مريد • أما اختلافه مع المعتزلة بوجه آخر ، فلأنه أثبت أن الغاية من الفعل الالهى هى ذاته تعالى وجوده الفياض ، فليست الغاية خارجة عن ذاته • أما المعتزلة فقد أثبتوا غاية خارجية حيث قالوا ان الله لم يخلق المخلوقات بقصد ضررها ، ولما كان تعالى غنيا بذاته ويستحيل عليه المنافع والمضار ، فإن الغرض فى فعله عائد لنفع المخلوقات ، وكونه تعالى منعما يستلزم أن يكون قاصدا فى فعله لوصول الخير للمخلوقات بقصد الاحسان للغير ليتحقق معنى النعمة التى يستحق عليها الشكر ، فهو تعالى يفعل ما فيه صلاح العباد ومنفعتهم بل وما هو الأصلح لهم • وكون الغرض أو الغاية فى الفعل عائد الى الغير ،

---

(١) انظر ابن تيمية : منهاج السنة ، جـ ١ ، ص ٢٣٩ - ٢٤٠ ، ص ٣٢٠ ، وانظر أيضا ، نوران الجزيرى : الغائية عند الأشاعرة ص ٢٨٦ ، ط ١ القاهرة ١٩٩٢م •

ينفي كونه تعالى مستكملا بغيره ، إذ إن المستكمل هو من يفعل لغـرض نفسـه(٢) • وقد نقض أبو البركات وجهة نظرهم هذه بقوله ان جوده تعالى انما هو له ومنه وليس شيئا مستفادا من غيره ليستكمل به ، فلذاته بجوده هي منه وله وبه وليست له بغيره أو من غيره ، فلا وجه للقول باسـتكمال له من غيره •

وأما أن رأى أبي البركات في الغائية يخالف رأى جمهور الأشـاعرة فلأن هؤلاء رفضوا التعليل في أفعال الله تعالى وقالوا بأن أفعـاله لا تعلل بمصلحة أو غرض ، ومن ثم رفضوا الغائية في الفعل الالهي • فالله تعـالى في نظرهم خلق العالم بجواهره وأعراضه ، خيره وشره ، لا لعلة ولا غرض يتوقف عليه الخلق ، فلم يدعه داع ولم يبعثه باعث على الفعل أو الخلق ، فلا علة لفعله سواء كانت نافعة أو غير نافعة للخلق ، لأنه تعالى يتنزه عن النفع والضرر ، وأن يكون فعله تابعا لغرض يوجبه ، بل الخلق واللاخلق ، أو أن يخلق وأن لا يخلق جائزان وسيان بالنسبة له ، فهو تعالى خلق لمحض المشـيئة لا لتحقيق نفـع ومصلحة ذاتية أو خارجية ولا لدفـع ضرر ، ولا استكمالا لحاجة ولا تلبية لباعث وداع ، لأن ذلك كله يتعـارض مع التنزيه الواجب لله تعالى(٣) •

وقد نقض أبو البركات هذه الآراء جميعا للأشاعرة ، على أساس أن انتفاء الغاية في الفعل الصادر عن العالم الحـكيم المريد يؤدي الى عبثيـة الفعل والفاعل وهي محالة في حق الله تعالى • وأيضا فإن قولهم بأنه لا فرق بين أن يخلق وأن لا يخلق منقوض عقلا ومنطقا ، لأنه يعني أنه لا فرق بين كونه تعالى جوادا ولا كونه كذلك ، وهذا يفيد انعدام الفـرق بين ربوبيته وعدم ربوبيته ، وهذا محال وباطل أيضا • ثم ان كون أفعاله تعالى بجـوده من ذاته وبذاته ولذاته لا يعني اطلاقا استكمال له بغيره ، فبطـل بهـذه

---

(٢) انظر ، عبد الجبـار : شرح الأصـول الخمسة ، ص ٧٧ ، ٧٩ ، ٨٣ — ٨٤ ، ٣٠٧ ، ابن أبي الحديد : نهج البلاغة جـ ٥ ، ص ٣٧٤ — ٣٧٥ ، الشهرستاني : نهاية الاقدام ، ص ٢٩٧ — ٣٩٨ •

(٣) انظر ، الباقلاني : التمهيد ، ص ٣٠ — ٣١ ، الجويني : الشامل ص ٦١٩ ، الشهرستاني : نهاية الأقدام ص ٣٩٧ ، الآمدي : غاية المرام ، ص ٢٢٤ •

الوجـــوه نفيهم للتعليل وإنكارهم الغائية فى الفعـــل الالهى . وقد ذهب ابن قيم الجوزية ـ فيما بعد ـ الى قريب مما ذهب اليه أبو البركات ، حيث قال بأن العقل الصريح يقضى بأن من لا حكمة له فى فعله ولا غاية له فى مراداته ، أولى بأن يوصف بالنقص ، ويستنكر ابن القيم قولهم بأن تقـرير الحكمة يستلزم النقص ، وأن الفعل لا لحكمة هو مالا نقص فيه ، ويرى أن العكس هو الصحيح . كما يرى أن المريد لا يعقل كونه مريدا إلا اذا أراد لغرض وحكمة وإلا انتفت الارادة وصار فعله موجبا بالذات فيكون مفعوله الذى هو معـــلوله معه فى الأزل فيثبت قدم العـــالم ، وهو ما يرفضـه ابن القيم(٤) .

وأما مخالفة رأى أبى البركات فى إثبات الغائية ، لرأى الفلاســفة المشائين ، فلأنهم نفوا التعليل والغائية فى أفعال الله تبعا لرأيهم فى الخلق بالفيض والصدور ، فالله عندهم فاعل بالضرورة ، والارادة الالهيـة ليست ارادة ترجيح واختيار لايجاد ممكن دون ممكن آخر وانما هى ارادة لوجوب الذات المريدة ووجوب صدور ما يصدر عنها . فالعالم صدر عن الله وجوبا عن ذاته لا عن قصد وارادة اختيـــار حقيقيتين ، ومن ثم فإن قولهم بإن الله لا يفعل لغرض ولا لغاية ، قول متسق مع مذهبهم فى الصدور ، وأن الله هو الكمال الكمال المطلق ، والذى يفعل لغرض انما يطلب بفعله استكمالا ، سواء كان غرضـه وغايته لنفسه أو لغيره ومن هنـا فإن الله العـالى الكامل لا يفعل لأجل السافل الناقص . وفى ردود أبى البركات على الأشـــاعرة والمعتزلة ، ما يكفى للرد على هؤلاء الفلاسفة ، فلا حاجة بنا الى تكراره .

والحق فى نظرنا هو أن إثبات الغاية فى الفعل الالهى أولى بالاعتقـاد من نفيها . ذلك أن إثباتها يفيد فى إثبات الارادة والحكمة الالهية فى أفعاله تعالى . وكما قال أبو البركات ان الأفعال التى نصفها بالعبثية ، والتى تصدر عن بعض الناس انما تكون لغاية هى اللهو والتسلية والمتعة ، انما تجعلنا نتيقن من أن الفعل الارادى القصدى الذى يصدر عن عالم حكيم مريد لابد وأن يكون بالأولى لغاية وغرض ، واذا انتفى الفرق بين الفعل الذى لا غاية

---

(٤) انظر ابن قيم الجـــوزية : شفاء العليل ، ص ٤٣٥ ـ ٤٤٠ ، ص ٤٩٩ .

له والفعل الذى له غاية فقد انتفى الفرق بين الحكمة واللاحكمة فى الأفعال ، والارادة واللاإرادة ، وهو مالا يقول به عاقل ٠

ثانيا - الله هو الغاية القصوى :

بعد أن أثبت أبو البركات الغائية فى الفعل الالهى ، وأن الغاية من أفعال الله ليست شيئا آخر غير ذاته ، وانما غايته من أفعاله هى ذاته ٠ نجده يدعم ما ذهب اليه ، بإثبات ان الله ليس غاية لأفعاله فحسب ، وانما هو الغاية القصوى لكل موجود فاعل سواه ٠

وفى هذا الصدد يقول بأنه قد ثبت أن الغاية هى التى لأجلها يفعل الفاعل ، فلكل فعل ومفعول غاية ٠ ولكن هل تنتهى الغايات كلها الى غاية واحدة قصوى أو الى غايات كثيرة ٠ قد يتبادر الى الظن والوهم أن الغايات لا تتناهى ، وأن لكل غاية غاية ، وهكذا تتسلسل الغايات الى مالا نهاية إما طولا وإما دورا ٠ مثال ذلك أنا نرى الابن غاية الأب ، وابن الابن غاية للابن ، ولا يتناهى طولا ٠ وغاية المطر نداوة الأرض ، وهذه غايتها البخار الصاعد ، وهذا للمطر ، فيكون المطر غاية لصعود البخار ، وصعود البخار غاية لنداوة الأرض ، ونداوة الأرض غاية للمطر ، فتذهب الغايات فى ذلك دورا ٠ فهل هناك غاية حقيقية على الاطلاق تكون هى الغاية القصوى التى يكون اليها منتهى الغايات جميعا ، أم لا ٠

إنه كما أن كل فاعل هو علة وجود فعله ، ومعلول فى وجوده لفاعل آخر من جهة أخرى ، ولا تتسلسل العلل الفاعلة الى غير نهاية ، بل تنتهى الى الفاعل الأول الذى هو المبدأ الأول ، فكذلك تنتهى الغايات الى غاية حقيقية أولى هى الغاية القصوى ، مثال ذلك ، انه إذا كانت غاية البناء هى بناية البيت ، وغاية بناء البيت هى السكنى ، فهل تكون السكنى هى الغاية القصوى من بناء البيت ، كلا ، إنها مجرد غاية قريبة ، لأن غاية السكنى اعتدال الهواء والوقاية من الحر والبرد ، ولذلك غاية أخرى هى اعتدال مزاج الساكن وصحته ، ولهذه غاية أخرى تكون له فى العقبى والمآل ، ولذلك كله غاية هى العلة الأولى ٠ فالعلة الأولى هى الفاعل الأول وهى الغاية القصوى ، والفعل الأول انما هو بالقدرة والجود ، والغاية القصوى

هى وجود الجود ، ووجود ما يوجد عنها بالجود ، والجود من الصفات التى تفعل بها الذات ، فالفاعل هو الذات والغاية هى الذات ، والقدرة والجود أسباب هى صفات الذات • فما خرجت العلة عن الذات لأن الصفات فيها عنها ولها ومن أجلها لا لغيرها(٥)

فالغاية العامة للموجودات هى الوجود ودوام الوجود ، وحصول ما هو بالقوة ليكون بالفعل وبذلك ينتسب المعلول الى علته ويتشبه بها بحسبه ، فيكون له من مشابهتها بالوجود والكمال ما من شأنه أن يكون له • كل ذلك من المبدأ الأول فى الموجودات ، ومما عنه منه ، وهو منه لأجله ، فهو فى الكل لأجله ، فهو الغاية القصوى كما كان هو الفاعل الأول • وذلك لكونه تعالى غايته فى فعله جوده وكمال وجوده ، أعنى وجوده الكامل التام الذات والصفات • فكماله وتمامه ، وجد عنه ما يوجد ، فما تم المبدأ الأول بإيجاده ، ولكن أوجد بتمامه ، وصدر عنه ما صدر لذاته ، ولكمال ذاته الموجب لوجود ما صدر عن ذاته ، فهو المبدأ الأول وهو الغاية القصوى •

وكما أن كل موجود عنه ، وما عنه لأجله ، فكل وجود وكمال وجود • هو عنه لأجله • وهكذا نعلم أن الغاية القصوى كما علمنا أنه المبدأ الأول • ولو كان فعله لأجل غيره ، لقد كان ذلك الغير يتقدم وجوده وجود ما يفعل لأجله ، ويكون بتقدمه ذلك مشاركا للأول فى علية خلقه فلا يكون وجوده عن الأول فإنه لا يوجد لغير غاية ، فلو كان هذا من الأشياء التى أوجدها ، لكان إيجاده له لغاية هى غيره ، وهو الغاية التى لا غاية بعدها ، هذا خلف ، وهو باطل • فالغاية القصوى فى ايجاد كل موجود هى واجب الوجود بذاته(٦) •

---

(٥) أبو البركات : المعتبر ، ج ٣ ، ص ١١٠ - ١١٢ •
(٦) المصدر السابق ، ص ١١٦ •

الباب الثالث

وجود العالم

ويشتمل على فصلين :

الفصل الأول : نقد مذاهب السابقين فى وجود العالم

الفصل الثانى : مذهب ابى البركات فى وجود العالم

الفصـــل الأول

نقد مذاهب السابقين فى وجود العالم

أولا : مذاهب وجود العالم حتى عصر أبى البركات

ثانيا : نقد مذهب القائلين بحدوث العالم

ثالثا : نقد مذهب القائلين بقدم العالم (نظرية الصدور)

أولا ـ مذاهب وجود العالم حتى عصر أبي البركات :

كان بين يدي أبي البركات وهو بصدد دراسته لمسألة وجود العالم ، تراث اسـلامي وعربي وأجنبي خصيب احتوى تصـورات وأفكارا عديدة ومتبـاينة حول كيفية وجود العـالم وما إذا كان قديما أو حادثا • وقد استوعب أبو البركات هـذا التراث وتمثله بوعي كامل • وسـوف نرى كيف أنه انتقد بعض هذه التصورات والأفكار ، وإن كان قد تأثر بأفـكار أخرى اسلامية وأجنبية ثم أتى بأفكار جديدة من عنده ، وراح يصوغ من هذه كلها مذهبه في وجـود العالم • وحسبنا أن نشـير أولا الى أهم هذه التصورات أو المذاهب الخاصة بوجود العالم ، التي آلت الى أبي البركات في عصره •

١ ـ خلق العالم في القرآن الكريم :

يقدم القرآن صورة واضحة مجملة ، ومفصلة أحيـانا لخـلق العالم أو الكون وما فيه • ويؤكد في آيات كثيرة أن الله تعالى هو خالق كل شيء ، وأنه يتفرد بالخلق بحيث لا يشاركه في عملية الخلق والايجاد أحد آخـر سواه ، وسوف نعرض هنا لأهم جوانب هذه الصورة وأبعادها •

ينص القرآن على أن الله تعـالى هو خالق كل شيء ، وذلك في قوله تعـالى : « **ذلـكم الله ربـكم لا إله إلا هو خـالق كل شيء فاعبـدوه** » (الأنعام : آية ١٠٢) • وأيضا قوله سبحانه : « **الله خالق كل شيء وهو على كل شيء وكيل** » (الزمر : آية ٦٢) • وغـير هاتين الآيتين كثير (الرعـد : آية ١٦) ، (غافر : آية ٦٢ ، الحشر : آية ٢٤) • ثم يفصل القـرآن القول في خلق الله لجميع الموجودات فيشير الى خلق الله للسموات والأرض وما بينهما ، وأن خلق هذا كله قد تم في ستة أيام ، وذلك في قوله تعالى : « **هو الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش** » (الحديد : آية ٤)(١) ، خصص منها يومين لخلق السموات ، وأربعة أيام لخلق الأرض وما فيها وما عليها ، منها يومان لخلق الأرض نفسها ، ويومان لخلق ما عليها وما فيها ، ويبدو ذلك في قوله تعالى : « **قل أئنكم لتكفرون**

---

(١) انظر أيضا سورة الفـرقان : ٥٩ ، السجدة : ٤ ، ق : ٣٨ ، الأعراف : ٥٤ •

بالذى خلق الأرض فى يومين وتجعلون له اندادا ذلك رب العالمين • وجعل فيها رواسى من فوقها وبارك فيها وقدر فيها اقواتها فى اربعة أيام سواء للسائلين • ثم استوى الى السماء وهى دخان ، فقال لها وللأرض ائتيا طوعا او كرها قالتا اتينا طائعين • فقضاهن سبع سموات فى يومين واوحى فى كل سماء امرها ، وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظا ، ذلك تقدير العزيز العليم » (فصلت : ٩ ـ ١٢) •

ويشير القرآن فى آيات صريحة الدلالة ، الى أن عملية الخلق تتخذ صورتين : إحداهما خلق إبداع وهو خلق أشياء من لا شىء وهو الابداع ، مثل خلق العقول والنفوس السماوية وكذلك خلق العناصر الأولى أو الاسطقسات الأربعة بتعبير الفلاسفة وهى الماء والنار والهواء والتراب ، وهى مخلوقات أقدم فى الوجود بالزمان مما خلق منها بعد ذلك • والثانية ، خلق تكوين وهو خلق أشياء من أشياء مخلوقة قبلها كالعناصر الأربعة التى خلق منها بعد ذلك الموجودات ذات المواد والأجسام كالجماد والنبات والحيوان والانسان •

والفرق بين الخلق إبداعا من لا شىء ، والخلق تكوينا من شىء ، هو أن الابداع ايجاد الشىء من لا شىء ، والخلق ايجاد شىء من شىء ، ولذلك قال تعالى : « **بديع السموات والأرض** » (البقرة : ١١٧ ، الأنعام : ١٠١) وقال تعالى : « **خلق الانسان** » ولم يقل بديع الانسان • والابداع أعم من الخلق فالابداع ايجاد شىء غير مسبوق بمادة ولا زمان كالعقول ، وهو يقابل التكوين لكونه مسبوقا بالمادة ، ويقابل الاحداث لكونه مسبوقا بزمان • والتقابل بينهما تقابل التضاد إن كانا وجوديين ، بأن يكون الابداع عبارة عن الخلو عن المسبوقية بمادة ، والتكوين عبارة عن المسبوقية بمادة(٢) •

وحسبنا أن نشير الى بعض الآيات التى تشير الى خلق العناصر الأولى التى خلقت منها الأشياء ذات المواد والأجسام خلقا تكوينيا • فعن عنصر الماء يقول تعالى : « **وهو الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام وكان**

---

(٢) الجرجانى : التعريفات ، ص ٣ ، القاهرة ١٩٣٨م •

عرشه على الماء » (هود : آية ٧) . ومن الماء خلق كل شيء حي نباتا وحيوانا وإنسانا « **وجعلنا من الماء كل شيء حي** » (الأنبياء : آية ٣٠) « **والله خلق كل دابة من ماء** » (النور : آية ٤٥) . وعن عنصر النار وما خلق منه يقول تعالى : « **والجان خلقناه من قبل من نار السموم** » (الحجر : آية ٢٧) ». وقوله تعالى مشيرا الى معارضة إبليس لأمر الله له بالسجود لآدم : « ... **قال أنا خير منه ، خلقتني من نار وخلقته من طين** » (الأعراف : ١٢ ، ص : ٧٦ ، الرحمن : ١٥) . أما عن عنصر التراب ، فيظهر ذلك في قوله تعالى : « **يا أيها الناس إن كنتم في ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب** » (الحج : ٥) . وقوله تعالى : « **ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون** » (الروم : ٢٠) . وتشير بعض الآيات الى عنصر الهواء سواء كان ممتزجا بغيره كالدخان أو كان رياحا ، وذلك في قوله تعالى : « **ثم استوى الى السماء وهي دخان** » (فصلت : ١١) وقوله في آية جامعة : « **إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس ، وما أنزل من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة ، وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون** » (البقرة : ١٦٤) .

وينص القرآن على أن الله هو خالق الشمس والقمر والنجوم والكواكب ، وما ينشأ عنها من الليل والنهار والظواهر الكونية الأخرى « **وهو الذي خلق الليل والنهار والشمس والقمر كل في فلك يسبحون** » (الأنبياء : ٣٣) .

وتفرد الله بالخلق أمر يوضحه القرآن بجلاء ، وينكر على الذين ادعوا شركاء لله في الخلق مع أن هؤلاء الشركاء مخلوقون : « **والذين يدعون من دون الله لا يخلقون شيئا وهم يخلقون** » (النحل : ٢٠) ، ويحقر القرآن من شأن هؤلاء فيقول : « **إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له ، وإن يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه ، ضعف الطالب والمطلوب** » (الحج : ٧٣) ، « **واتخذوا من دون الله آلهة لا يخلقون شيئا وهم يخلقون** » (الفرقان : ٣) .

ويشير القرآن الى أن عملية الخلق لا تقتصر على الخلق الأول أو النشأة الأولى ، وإنما هي عملية مستمرة متجددة ينفرد بها الله تعالى

ومن ثم كان هو الخلاق دائما وخلقه لا ينقطع ولا يقف عند حد « **إن ربك هو الخلاق العليم** » (الحجر : ٨٦) « **إنما أمره إذا اراد شيئا ان يقول له كن فيكون** » (يس : ٨٢) • وإذا كان الخلق الأول فى النشأة الأولى هـو ما نجده ونعلمه الآن من وجودنا ووجـود الموجودات الأخـــرى غيرنا ، فإن الخلق متجدد مستمر ، فلم ينته فعل الخلق أو تأثير الله فى الكون بما خلقه فى ستة أيام ، بل إن الخلق مستمر حيث يخلق الله أشياء بعد أشياء ومن أشياء باستمرار ، فيخرج الحى من الميت ويخـــرج الميت من الحى وينبت النبات ويخلق نفوسا وأرواحا لحيوانات وأناس يوجـــدون ويولدون كل لحظة وأن « **إن الله فالق الحب النوى يخرج الحى من الميت ومخرج الميت من الحي ذلكم الله فانى تؤفكون ، فالق الاصباح** » (الأنعام : ٩٥ ــ ٩٦) •

واذا كانت عملية الخلق مستمرة متجددة هكذا ، فإن إعادة الخلق فى النشأة الأخرى فى الحياة الآخرة تمثل استمرارا لعملية الخلق وامتدادا لها أيضا ، فهو تعالى المبدىء المعيد « **الله يبدأ الخلق ثم يعيده ثم اليه ترجعون** » (الروم : ١١) • فهناك اذن نشأتان أو خلقان : خلق تم في الماضى وخرج به العالم من العدم الى الوجود ، وخلق آخر سيتم فى الآخـرة يوم البعث والنشور ، وبين الخلقين أو هاتين الحلقتين من الخلق خلق آخر مســتمر متجدد كل يوم يمثل حلقة وسطى تربط بين الحلقتين السابقتين ، فـكان الوجود كله يمثل سلسلة متصـلة الحلقات من الخلق والايجاد فضـــلا عن عناية الله الدائمة بالكون وموجوداته وحفظه لكل مافي العالم وتسـخيره له بمقتضى علمه وقدرته ومشيئته تعالى •

وسوف نرى فيما بعد الى آى حد كان مذهب أبى البركات في وجود العالم متفقا أو مختلفا عن تصور الاسلام لخلق العالم ووجوده •

٢ ــ مذهب المتكلمين فى حدوث العالم :

قنع جمهور المسلمين وعلماؤهم بما ورد بالقرآن خاصا بمسالة وجود العالم وأنه مخلوق لله تعالى • ولم تكن هـــذه المســـالة لتثير اهتمام علماء ومتكلمى الاسلام إلا بتـــأثير عوامل متعددة دفعتهم الى أن يطـــرحوها على بســاط البحث ويســـبروا غورها فى محاولة لمعرفة حقـــائقها وأسرارها خصوصا وأن القرآن قد أشار فقط الى اهم الأصول والمبادىء التى بها يثبت

أن الكون بكل مافيه انما هو مخلوق لله تعالى وأن عملية الخلق مستمرة ، وعناية الله بالكون وموجوداته دائمة لا تنقطع • ولا ينبغى أن نتـــوقع أن يعرض القرآن تفصيلا أكثر من هذا ، فهو ليس كتاب فلسفة وانما هو كتاب عقيدة وشريعة ، وحسبه أن يقرر أصول العقيدة بالقدر الذى يلائم عقـــول العامة والخاصة معا •

ولعل من أهم تلك العـــوامل ، وجـــود الدهريين والطبائعيين الذين قالوا بقدم العالم وأنكروا أن يكون مخلوقا لخالق ، بل انهم أنكروا وجـــود الله أصلا • فالعالم عندهم كان فى الأزل على الصـــورة التى هو عليها الآن بافلاكه وكواكبه وسائر أركانه ، وقالوا بالطبع المحيى والدهر المفنى(٣) ، وهم الذين أخبر القرآن عنهم فى قوله تعالى : « **وقالوا ما هى إلا حيـــاتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر ، وما لهم بذلك من علم ، ان هم إلا يظنون** » (الجاثية : ٢٤) •

أما العامل الثانى ، فهو ظهور حـــركة الترجمة منذ القـــرن الثانى للهجرة وازدهارها فى عصر العباسيين ، حيث ترجمت مؤلفات عديدة تحمل تراث اليونان فى الطب والمنطق والفلسفة والفلك وغيرها • وقد تضـــمن تراث أفلاطون وأرسطو وأفلوطين وأبرقلس الذى ترجم الى العربية ، مذاهب هؤلاء فى قدم العالم وأزليته • وقد رأى مفكرو الاسلام أن مثل هذه المذاهب تتعارض مع جوهر العقيدة الاسلامية فتنبهوا الى هذا الفكر الأجنبى الوافد ، خصوصا وقد تأثر به بعض فلاسفة الاسلام أمثال أبى بكر محمد بن زكريا الرازى (٣١١ هـ) ثم الفارابى وابن سينا بعد ذلك •

وعلى هذا ، بدأ مفكرو الاسلام من المتكلمين والصوفية وعلمـــاء الدين يهتمون ببحث ما صار عندئذ مشكلة وجود العالم وهل هو مخلوق حادث أو قديم أزلى • وانتهى جمهورهم الى ما يتسق وما ورد به القرآن من أن العالم مخلوق حادث • وقصدوا بالمخلوق أنه من فعـــل الله تعالى وبإرادته الحرة المطلقة وقدرته اللانهائية • وعنوا بالحادث أنه لم يكن ثم كان أى أن

---

(٣) انظر البغدادى : أصول الدين ، ص ٥٩ ، ابن حزم : الفصل ، جـ ١ ، ص ١٥ ، الشهرستانى : الملل والنحل : جـ ٣ ، ص ٧٩ •

العالم قبل خلق الله له ، كان مسبوقا بمدة زمانية هى مدة عدم كان العالم فيها معدوما ، وأن نهاية هذه المدة هى بداية خلق العالم التى أراد الله أن يخلق عندها العالم • والحدوث بهذا المعنى هو الحدوث الزمانى الذى يعنى كون الشيء مسبوقا بالعدم سبقا زمانيا ، بخلاف الحـــدوث الذاتى عنـد الفلاسفة ، والذى يعنى كون الشيء مفتقرا فى وجوده الى الغير وليس شرطا أن يكون مسبوقا بزمان عدم ، بل يكون وجـود الشيء محايث فى الزمان لوجود موجده ، ويكون الموجد سابقا لما يوجده سبقا بالذات لا بالزمان(٤) •

وقد انبرى كثير من المتكلمين خـلال القرون المتلاحقة يقـــدمون أدلة وبراهين يثبتون بها خلق الله للعالم وأن العــالم حادث حـــدوثا زمانيا اى مسبوقا بعدم ، وأن الله كان فى الأزل ولم يكن شيء معه ، ثم خلق العالم بعد ذلك في الوقت الذى أراد • ولعل أهم من أثرى هذه المسألة بحثـــا واستدلالا ، بعض المعتزلة أمثال القاضى عبدالجبار (ت ٤١٥ هـ) وبعض الأشاعرة أمثال الباقلانى (ت ٤٠٣ هـ) ، ثم إمام الحـرمين أبو المعـــالى الجوينى (ت ٤٧٨ هـ) ثم حجة الاسلام أبو حامد الغزالى (ت ٥٠٥ هـ) ، وكذلك الفيلسوف الظاهرى ابن حزم (ت ٤٥٦ هـ) •

وليس يتسع المجال هنا لأن نعرض بالتفصيل لجهود هؤلاء المتكلمين واستعراض أدلتهم أو براهينهم على حدوث العالم • وحسبنا أن نشـــير الى أهم الأفكار التى تعتبر أصولا لمختلف الأدلة التى قدموها لاثبات مذهبهم ، بوجه عام • وتتمثل هذه الأفكار والأصول عندهم فيما يلى :

(أ) إن الموجود على ضربين ، فهو إما قديم لم يزل ، وهو المتقدم على غيره فى الوجود الى غير نهاية وهو الله ، وإما محدث ، وهو الموجود بعد عدم وهو كل موجودات العالم سوى الله تعالى • فالقديم الأزلى واحد لا شريك له هو الله تعالى ، وكل ما عداه سواء كان متقدما على غيره فى الوجود أو تاليــا لغيره فى الوجود ، فهو حادث ولابد له من محدث هو الله •

---

(٤) انظر جميـــل صليبا : المعجم الفلســـــفى ، ج ١ ، ص ٣١ ، ص ٤٣٣ ـ ٤٣٤ ، ٥٤١ •

(ب) إن المحدث أو الحادث يرتبط ارتباطا وثيقا بالزمان حيث يوجد بعد زمان لم يكن فيه موجودا ، فوجوده بعد زمان هو مدة عدم ، وفي زمان هو بداية وجوده بعد عدمه • فالحادث إذن هو ما له أول وبداية ، ويستحيل وجود حوادث لا أول لها ، وكل مالا ينفك من الحوادث ولا يتقدمها فهو حادث مثلها •

(ج) إن العالم كله مخلوق لله ، خلقه في الوقت الذي أراد فيه أن يبدأ الخلق ، ولا يجب أن نسأل عن العلة أو السبب في تخصيص هذا الوقت بالذات لبداية الخلق ، فهو تعالى لا يسأل عما يفعل • واذا كان ولابد من السؤال فإن الاجابة عنه فيما يقول الغزالي هي أن التخصيص من شأن الارادة دائما ، فهي من شأنها تخصيص الشيء عن مثله ، وارادة الله القديمة اقتضت وخصصت وجود العالم في الوقت الذي وجد فيه رغم تماثل الأوقات بالنسبة له تعالى •

(د) إن فعل الخلق والايجاد لم يصدر عن الله وجوبا ولزوما وبالضرورة ، بحيث يقال انه لم يكن بوسعه إلا أن يخلق ، وانما صدر عنه الخلق بإرادته الحرة وقدرته اللامحدودة وعلمه بما يجب ومالا يجب •

هذه هي أهم الأصول التي أقام عليها جمهور المتكلمين مذهبهم في حدوث العالم • أما ابن حزم ، فقد أقام أدلته وبراهينه لاثبات حدوث العالم على أصول تستند الى فكرة التناهي ، تناهي العالم بكل موجوداته وان كل متناه فله أول ، وكل ما له أول فهو محدث • أما اللامتناهي فليس له أول ومن ثم فلا سبيل الى وجوده بالفعل ، وعلى هذا يثبت تناهي العالم والزمان والمكان ، ويبتني من هذه الأفكار كل أدلته على حدوث العالم(٥) •

وقبل أن نترك هذا المقام ، نود أن نشير الى أن بعض الأساتذة الباحثين المعاصرين(٦) قد ذهبوا الى أن قول بعض المعتزلة أمثال الشحام

---

(٥) انظر ابن حزم : الفصل ، ج ١ ، ص ٢٠ — ٢١ ، القاهرة ١٣١٧هـ

(٦) من هؤلاء د• يحيى هويدي في كتابه « دراسات في علم الكلام والفلسفة الاسلامية » ص ١٤٧ ، ١٥٥ ، ١٦٠ ، زهدي جاد الله في كتابه « المعتزلة » ص ٥٩ — ٦٠ ، وأيضا :

7 MaCdonald ; Development of Muslim Theologyp· 159

والخياط والكعبي والجبائيين أبي علي وابنه أبي هاشم ، بشيئية المعدوم يفيد اعتقادهم بقدم العالم • ونحن نختلف مع هؤلاء فيما ذهبوا اليه ونعتقد بصحة ما ذهب اليه استاذنا الدكتور أحمد صبحي من أن مسألة « شيئية المعدوم » ينبغي أن تلحق بمبحث المعرفة عند المعتزلة دون مبحث الوجود ، ومن ثم فلا يكون لها علاقة بشبهة القول بقدم العالم ، وقدم الأجسام والجواهر(٧) • خاصة وأن المعتزلة يقدمون أدلة صريحة على حدوث الأجسام وحدوث العالم ، الى جانب أدلة أخرى يثبتون بها استحالة وجود قديم ثان مع الباري تعالى يشاركه القدم(٨) •

٣ ـ مذهب الفلاسفة في قدم العالم :

إذا كان جمهور علماء المسلمين ، والمتكلمون منهم خاصة قد قالوا بحدوث العالم حدوثا زمانيا ، وأثبتوا ذلك بالدليل والبرهان ، فإن فلاسفة الاسلام فيما عدا الكندي والغزالي ، ممن ظهروا قبل أبي البركات قد اعتنقوا القول بقدم العالم وأزليته متأثرين في ذلك ـ كما أشرنا من قبل ـ بالفكر الفلسفي اليوناني • فقد تأثروا بعالم المثل عند أفلاطون وقدم موجودات هذا العالم من العقول والنفوس المجردة عن المادة ، كما أخذوا عنه وعن أرسطو فكرة قدم المادة أو الهيولى الأولى ، اللامحدودة واللامتعينة عند أفلاطون ، والمتحركة حركة دائمة عند أرسطو ، والاثنان تصوروا هذه المادة موجودة مع الاله منذ القدم أو لم تزل موجودة معه •

وكان أفلوطين زعيم المدرسة الأفلاطونية المحدثة ، وابرقلس أحد كبار فلاسفتها ، أكثر تأثيرا في فلاسفة الاسلام الذين قالوا بقدم العالم وخاصة الفارابي وابن سينا • فقد تأثر هذان الفيلسوفان بفكرة الأقانيم وصدور الأقنوم الثاني أو العقل الأول في سلسلة الصادرات ، عن الأقنوم الأول الذي هو الاله ، وعن هذا الأقنوم الثاني بدأت الكثرة في الموجودات المجردة والمادية لأن الأقنوم الأول يستحيل أن يكون له علاقة بالمادة • وعلى هذا ، تكون موجودات العالم قد وجدت عن الأقنوم الأول مباشرة وبصورة

---

(٧) انظر د• أحمد صبحي : في علم الكلام ، جـ ١ ، ص ٢٩٨ ـ ٣١٦ •

(٨) انظر عبدالجبار : المغني ، جـ ٤ ، ص ٢٦٧ ـ ٢٧٦ ، شرح الأصول الخمسة ، ص ١٧١ ، ٢٧٧ ، ٢٨٤ •

غير مباشرة عن طريق الفيض أو الصدور . وأما تأثير أبرقلس في هـذه المسـألة ، فيتمثل في أنه راح يلتقط من آراء وأفكار افلاطون وأرسطو وافلوطين ما استطاع به أن يصوغ أدلة أو حججا عديدة لاثبات قدم العالم وهي التي عرفت في العالم الاسلامي بـ « حجج أبرقلس على قدم العالم » .

وكانت أكثر الأفكار التي صاغ منها أبرقلس حججه أفكارا أرسطية ، فإذا كان قد أخذ عن أفلاطون فكرة قدم المثل العقلية وأزليتها ، وعن أفلوطين فكرة الجود الالهي ،فإنه أخذ عن أرسطو أفكارا عديدة تفيد قدم العالم مثل فكرة القوة والفعل وان الاله لم يزل صانعا بالفعل ، ففعله ومفعوله أزليان معه ، وكذلك فكرة أزلية الحركة والزمان ، وفكرة استحالة فناء العـالم وأنه أبدي كما هو أزلي ، وغير ذلك من أفكار أرسطية(٩) .

وتجدر الاشارة الى أن كثيرا من مفكري الاسلام على اختلاف مذاهبهم قد تصدوا للرد على أبرقلس ونقض حججه هذه . ومن هؤلاء يحيى النحوي الذي خصص كتابا لهذا الغرض أسماه « كتاب الرد على أبرقلس » وكذلك فعل ابن حزم ، ثم جاء الغزالي فرد على الفلاسفة عامة قولهم بقدم العـالم وانتقد أدلتهم جميعا في كتابه « تهافت الفلاسفة » ، وتابعهم في هذا الاتجاه متكلم أشـعري كبير كان معـاصرا لأبي البركات هو الشـهرستاني (ت ٥٤٨ هـ) حيث ذكر حجج أبرقلس في « الملل والنحل » ثم انتقدها في « نهاية الأقدام » أيضا(١٠) .

وما يهمنا هنا هو القول بأن الفـارابي وابن سـينا ، قد عبرا عن مذهبيهما في قدم العالم بنظرية عرفت واشـتهرت في الأوسـاط العلمية

---

(٩) عن حجج أبرقلس فيقدم العالم ، انظـر الشهرستاني : الملل والنحل ، جـ ٢ ، ص ٢٠٨ — ٢٠٩ ، د. عبدالرحمن بدوي : الأفلاطونية المحدثة عند العرب ص ٣٤ — ٤١ ، د. يحيى هويدي : دراسات في عـلم الكلام والفلسفة الاسلامية ص ١٦٤ — ١٧٠ .

(١٠) انظر ابن حـزم : الفصل جـ ١ ، ص ١٥ — ١٩ ، الغـزالي : تهافت الفلاسفة ، ص ٧٤ — ١٤٠ ط ٢ ، الشهرستاني : نهاية الأقدام ، ص ٤٥ — ٤٩ ، مصارعة الفلاسفة ص ١٠٥ وما بعدها .

والفلسفية العربية والاسلامية بنظرية الفيض أو الصدور أو نظرية العقول العشرة ، شاعت نسبتها الى ابن سينا أكثر من نسبتها الى الفارابى لأن ابن سينا هو الذى دعم أصولها وهذب أنساقها واضاف اليها من عنده ما وجده لازما لاتساقها وسوف نرجىء الحديث عن أصول هذه النظرية الى موضع آخر حيث تعرض نقد أبى البركات للنظرية وأصولها .

وتتمثل أهم الأصول التى أقام عليها ابن سينا مذهبه فى قدم العالم ، فيما يلى :

(أ) إن وجود العالم ، واجب عن وجود البارى تعالى ولازم له ، فالعالم موجود صدر عن الله لا على سبيل الخلق والايجاد ، بل على سبيل الوجوب واللزوم . وعلى ذلك فليس معنى وجود العالم أنه لم يكن ثم كان ، بل معناه أنه وجب وجوده بوجود ذات البارى ، فلم تتقدمه ذات البارى بالزمان وإنما هى متقدمة عليه تقدما بالذات كتقدم العلة على معلولها ، وحجتهم فى هذا ، هى أن العالم اذا كان ممكنا فى ذاته ووجد بغيره ، فقد وجب وجوده بهذا الغير ، وهذ حكم كل علة ومعلول وسبب ومسبب ، فإن المسبب أبدا يجب بالسبب فيكون جائزا باعتبار ذاته ، واجبا باعتبار سببه . ثم إن السبب يتقدم المسبب بالذات وإن كانا معا فى الوجود . وذلك مثلما تقول تحركت يدى فتحرك المفتاح فى كفى . فالحركتان متحايثتان اى معا فى الزمان والوجود ، ولكن إحداهما (حركة اليد) علة وسبب للآخر (حركة المفتاح) ، والأولى سابقة على الثانية سبقا ذاتيا لا زمانيا . وكذلك الحال فى وجود العالم عن البارى تعالى(١١) .

(ب) وما دام العالم موجودا عن البارى تعالى ، فهو إذن دائم الوجود بدوامه . أما أنه موجود بوجوده ، فلأن وجود العالم بغيره لا يستدعى حدوثه عن عدم ، لأن العدم لا تأثير له فى الايجاد ، ومن ثم فسبقه ليس شرطا فى تحقيق الاحداث ، وأما أنه دائم الوجود بدوامه ، فلأن وجود الشىء

---

(١١) ابن سينا : الشفاء ، الالهيات ، ج ١ مقالة ٤ فصل ١ ، ص ١٦٥ - ١٦٧ ، التعليقات ص ١٤٣ ، الاشارات ، ما بعد الطبيعة ، ص ١٠٤ - ١٠٦ .

بالشيء لا ينافي كونه دائم الوجـود به ، فالعلة اذا كانت تامة العلية فإن معلولها يكون معها دائما بدوامها(١٢) ٠

(جـ) إن الزمان والحركة والحوادث لا تتناهى ، فلا أول لها ، وما لا أول له فهو قديم ، وبذلك يكون العـالم قديما ٠ واذا كان الحـادث عند المتكلمين هو ماله أول ، وكان القـديم هو مالا أول له ، فإن العـالم بهذا الاعتبار - فيما يقول ابن سـينا - يكون قديما عندهم ، لأنهم يثبتـون اللاتنـاهي في الزمان والحركة والحـوادث والنفوس البشرية ، وإذ هي عندهم موجودات لا تتناهى ، فلا أول لها ٠ أما المتناهي عندهم فهو الجسم والعلل والمعلولات ، إذ إن اللاتناهي فيها مستحيل ٠ وسندهم في التناهي واللاتناهي هو أن ماله ترتيب وضـعي أو ترتيب طبيعي فلابد أن يـكون متنـاهيا ، وما ليس له ترتيب وضـعي أو طبيعي فإنه يجوز أن يـكون لا متناهيا(١٣) ٠

وقد راح ابن سينا يدعم مذهبه في قدم العـالم بإقامة عدة براهين أو أدلة يثبت بها أن العالم قديم وليس حادثا كما ذهب المتكلمون ٠ وكان مذهب ابن سـينا هذا أبعد المذاهب الفلسفية عن التصور الديني لخلق العالم ومن ثم ووجه بالنقد العنيف كما أشرنا من قبل ٠

ثانيا - نقد مذهب القائلين بحدوث العالم :

قبل أن نستعرض نقد أبي البركات لمذهب القائلين بحدوث العـالم وهم المتكلمون ، نذكر هنا ملاحظتين :

أولاهما ، أنه يعرض نقده من خلال ما يشبه أن يكون حوارا أو مناظرة بين القائلين بحدوث العـالم والقائلين بقـدمه ، ونلاحظ أنه يتبنى أقوال القائلين بالقدم ويضـيف اليها أفكارا وردودا من عنـده يفند بها مذهب القائلين بالحدوث ، وهو ما يجعلنا نزعم بأن الآراء النقدية التي يجريها على

---

(١٢) ابن سينا : الشـفاء ، الالهيات ، جـ ٢ مقالة ٦ ، فصـل ٢ ، ص ٢٦٦ ، مقالة ٩ ، فصل ١ ، ص ٣٧٣ - ٣٧٦ ٠

(١٣) ابن سـينا : النجاة ، القسـم الطبيعي ، ص ١٣٨ - ١٤٠ ، القسم الالهي ، ص ٢٥٢ - ٢٥٥ ٠

لسان القائلين بالقدم إنما هى آراؤه وانتقاداته هو وإن كان قد أفاد فيها من بعض آراء الفلاسفة السابقين عليه كالفارابى وابن سينا ٠

والثانيــة ، هي أنه يصنف القائلين بالحدوث فيذكر أنهم فرقتـــان إحداهما أصحابها من أهل النظر ، والثانية مقلدة ، ويعرض لمقالة كل فرقة منهما ويرد عليها وينتقدها على حدة ٠

وسوف نعرض هنا لنقده لمذهب القائلين بالحدوث جميعا وبوجه عام ، وذلك على ثلاثة محاور كالتالى :

١ ـ نقد قولهم بمدة عدم سابقة على خلق العالم :

ذهب القائلون بالحدوث الى أن العالم حادث مخلوق لله تعـــالى وأنه خلقه بعد مدة عدم سبقت خلق العـــــالم ، والمخلوق المعلول فى وجـــوده لا يتصور مخلوقا إلا بايجاد بعد عدم ، فالعدم السابق للوجود يتقدم وجود المحدث المخلوق عند من يتصوره محدثا مخلوقا ٠ وليس للعدم السابق بداية زمانية ، بل له نهاية هى بداية زمان الوجود ، فلا بداية للمدة المقـــــدرة للعدم السابق للوجود ، ونهايتها هي وقت بداية العالم ٠ والخالق قبـــل خلقه العـــالم كان موجودا بغـــير خلق ، مدة لا بداية لها ، ونهايتها بداية إيجاد العالم ٠

وينقد أبو البركات ـ بلسان القائلين بالقدم ـ مقالة هؤلاء من عـدة وجـوه :

(أ) ان هذا القول يفيد التعطيل لله تعالى مدة ما قبل الخلق ، وهـو محال في حقه تعالى ٠ ذلك أن خالق العالم لم يزل قادرا لا يعجز ، وجوادا لا يبخل ، وليس معه ضـــد يمانعه ولا ند يشـــاركه في المبدئية والخلق أو يعينه عليه أو يقتضيه به أو يسأله فيه ، واذا كان الله فيما لم يزل قادرا عالما جـــوادا ، فهو فيما لم يزل خالقا موجدا ٠ والعـــالم المخلوق هو مبدئه وموجده ولم يزل معه موجودا ، ولا يتصور أو يعقل أن يتقدم وجود العالم مدة يكون الله فيها غير موجد ولا خالق بحيث يكون عاطلا معطلا عن الفعل والخلق ، وهو القادر الجواد ٠ ومن ثم فلا يجوز القول بأنه بقى مدة غير متناهية لم يخلق فيها ثم بدأ لخلق ٠

(ب) إن القول بمدة عدم سابق على خلق العالم ، هو مجرد تصـــور يبنى على فهم وجود العالم الذى هو ممكن الوجود بذاته واجب الوجود بغيره عن موجده الذى هو واجب الوجود بذاته ، فيفرق العقل بين الممكن والواجب وبين المعلول وعلته من حيث يتصور ســـبق الواجب على الممكن والعلة على المعلول · وقولهم بأن المخلوق محدث ، والمحدث لا يكون محدثا إلا بعد عـدم سابق ، قول حق ، لكن العدم فى هذا الموضـع هو عدم يعقل ويتصـــور بحيث يعلم العاقل والمتصـــور أن الله تعالى موجد العالم ، وليس للعـــالم بنفسه أن يوجد بذاته ، وإنما له بداية عند المعقول والمتصور العدم وإمكان الوجـــود ، حتى يكون وجوب وجوده من موجـــده كما قلنا · وكما يعقـل المتصورون من شعاع الشمس ونورها التابع لها أنه معلول تابع فى وجوده لوجود الشمس من غير أن يتقدم عليه وجـود الشمس تقدما زمانيا بحيث تكون الشمس موجودة ولا ضوء لها ثم يتبع ذلك بعد مدة وجود الضوء حتى يتصور المتصـــورون ويعلم العلماء أن وجود الضـــوء تابع لوجـــودها وحادث عنها ·

(ج) ان مدة العدم السابق على وجود العالم هى مدة زمانية ، لـكن لا تأثير لها فى الحدوث والخلق ، ورفعها لا ينفى حدوث العالم ووجوده عن موجده ، فليس هناك علاقة علية بين وجود العالم وحـدوثه وبين الزمان · ويتضح لنا ذلك عندما نسأل القائلين بها : هل هذه المدة محدودة مقـدرة ضرورة بمثل يوم أو شهر أو سنة أو أكثر ، أم يكفى فيها أى مدة كانت ؟· فإن قالوا انه يكفى أى مدة كانت يتقدم فيها العدم ويتبعه الوجود ، يقال لهم : هل يكفى بدل السنة شهرا واحدا ، وبدل الشهر يوما ، وبدل اليوم ساعة ثم دقيقة واقل من دقيقة ، فإنهم سيوافقون على ذلك ، وحينئذ يظهر لهم وللمتأمل أن الزمان لا تأثير له فى الحدوث ، لأن المؤثر لا يكون كثيره فى التأثير مثل قليله ، وإنما يكون كل التأثير لكل الأثر ، فإذا ارتفع بعض الزمان المفروض للحدوث ، ولم يرتفع شىء من معنى الحدوث ، فرفع جميع الزمان لا يرفع الحدث وإنما يؤثر فى ضعف التصور · وعلى هذا ، فالتأثير

للبعدية ، فالموجب هو البعدية لا الزمان ، والزمان يوضح البعدية إذا أشكلت ، فإذا علمت بغيره فقد تم العلم بإمكان الوجود التابع لوجوب الوجود واستغنى فى ذلك عن الزمان فى الحدوث ٠

فثبت بهذا ، أن المدة الزمانية التى زعموا أنها سبقت وجود العالم لا تؤثر فى معنى حدوث العالم ووجوده عن واجب الوجود ، ويكون الحدوث إذن حدوثا معلوليا لا حدوث زمانيا(١٤) ٠

٢ ـ إلزامات عليهم لا مهرب لهم منها :

ولا يكتفى أبو البركات بهذا النقد المباشر ، وإنما يدعم نقده بأن يلزم القائلين بالحدوث بإلزامات لا مهرب لهم منها ، وأهم هذه الالزامات هى :

(أ) إلزام أول :

حاول بعض القائلين بالحدوث الهروب من هذه الانتقادات السابقة لأبى البركات فقالوا بأن الزمان مخلوق مع خلق العالم ، وهو مقدار الحركات ، والحركات محدثة مع المحركات ، فليس قبل خلق العالم مدة ولا زمان يقال فيها بتعطيل الله عن الفعل والخلق ٠

ويرد أبو البركات على ذلك بقوله انكم ان رفعتم الزمان والمدة بين خلق الخالق والعالم المخلوق بحيث ان وجود الخالق لا يتقدم وجود العالم بزمان ، فذلك قولنا ومذهبنا ، وبه يرتفع الشك وينحل به الاعتراض وتزول الشناعة والتعطيل ٠ ومن جهة أخرى ، فهل تقولون بأن للعالم بداية زمانية هى أول يوم ووقت خلق فيه ، لا يتقدم ذلك اليوم والوقت زمان ولا خلق قبله ، أم لا ؟٠ فإن لم تقولوا بيوم هو أول يوم ، ووقت هو أول وقت من أوقات الخلق والوجود لا يتقدمه يوم ولا وقت غيره ، فقد وافقتمونا ، واتفقت المسألة بيننا فى المعنى وصار الحدوث هو الحدوث المعلولى لا الزمانى ٠ أما ان قلتم بيوم هو أول يوم ووقت هو أول وقت لا زمان قبله ولا خلق قبله ، فهو قول باطل ، لأنكم توافقون معنا على أن الخالق القادر الجواد الذى ابتدأ خلقه فى هذا اليوم والوقت كان يمكنه فى التقدير والتصور أن يخلق قبل أن خلق فى هذا اليوم ، وان رفضتم ذلك فقد عجزتم قدرته تعالى وكابرتم المعقول فى الامكان ٠

---

(١٤) أبو البركات : المعتبر ، ج ٣ ، ص ٢٨ ـ ٢٩ ٠

وما دمتم توافقوننا على امكان الخلق قبل ذلك اليوم والوقت ، فقد اثبتم زمانا فيه إمكان الوجود من المتحركات والساكنات ، قبل العالم الذى فرضتموه فإن الزمان هو المدة التى يمكن فيها الحركة والسكون ، وكان يمكن فيه الخلق والفعل وقد رفعتموهما ، ولا يرتفعان إلا لشىء وسبب مما قيل من عدم قدرة أو جود أو معين أو غيره • فكيف تقولون أن الزمان مخلوق مع العالم من بداية محدودة لا يمكن تطويلها(١٥) •

(ب) إلزام ثان :

ويلزم عليهم أبو البركات بإلزام آخر يبطل قولهم بمدة عدم سابق غير متناهية البداية ، ونهايتها هى بداية خلق العالم ، بقوله إنكم لا شك تقولون بأن الزمان والمدة والدهر والسرمد الذى سبق وجود العالم مخلوق لله ، فنقول هل يتقدم الخالق على ذلك الزمان بزمان أم لا • فإن تقدمه بزمان فقد سبق الزمان زمان ، وكذلك الدهر والسرمد ، وان لم يتقدمه بزمان فقد سلمتم بوجود مخلوق مفعول لم يتقدمه خالقه وفاعله بزمان ، وهو قولنا ، فلم لا تقولون فى باقى المخلوقات مثل هذا ، ومن ثم لا يضطركم اعتقادكم الى تعطيل الجواد عن جوده وايجاده مدة لا نهاية لها(١٦) •

(ج) إلزام ثالث :

ويقال للقائلين بالحدوث : كيف بدأ الله الخلق فى اليوم أو الوقت الذى بدأ فيه ، وهل كان يقدر أن يخلقه قبل ذلك بيوم أو أيام أم لا • فإن قلتم إنه لا يقدر ، فقد عجزتم القدرة الالهية • وان قلتم انه تعالى كان يقدر ، قلنا فلماذا لم يفعل فيخلق قبل هذا اليوم •

فإن قالوا لأنه تعالى لم يرد خلق العالم إلا حين خلقه ، فهو قول مردود ، إذ لماذا اختصت الارادة بذلك الوقت واليوم دون غيره مما قبله أو بعده ، والأوقات متساوية متشابهة فى القدم • فإن قالوا بأن الارادة الالهية من شأنها تمييز الشىء عن مثله ونظيره وإرادة الله عينت هذا الوقت دون غيره مما لا يتميز عنه بحال • واستدلوا على ذلك بخلق الأجسام التى

---

(١٥) أبو البركات : المعتبر ، ج ٣ ، ص ٣٠ •

(١٦) أبو البركات : المعتبر ، ج ٣ ، ص ٤٢ •

زعموا أنها تتناهى الى الفلك الأعلى وليس بعده غيره ، يقال لهم ، ولم لا يكون قبل هذا الجسم غيره ، ولم لم يخلق وراءه جسما آخر ؟ ، آ لأنه عجز عن ذلك ، أم لأنه بخل بذلك • تعالى الله عن هذا وذاك • وقد أجابوا عن ذلك بقولهم بان مالا يتناهى لا يصح أن يوجد ، وقد أراد الله بداية الخلق حين بدأ ، وكما لا يصح السؤال عن العلة فى كون حركة الفلك من المشرق الى المغرب ، ولماذا لم تكن على خلاف ذلك ، فكذلك لا يسأل عن العلة فى هذا • وإنما الارادة الالهية القديمة الأزلية ميزت اليوم الأول من بداية الخلق عن مثله في الأزل ، كما ميزت هذا الحد للأجسام ، وهذه الجهة لحركة الفلك ، والارادة الالهية عندنا تميز الشيء عن مثله ولا يعترض بلم لأنه لا لم لذلك •

(د) إلزام رابع :

ويتابع أبو البركات إلزاماته ، فيرد على جوابهم السابق الذى استندوا فيه الى أن الارادة الالهية تميز الشيء عن مثله فى الأزل ومن ثم ميزت وخصصت ذلك الوقت الذى بدأ فيه وجود العالم رغم تماثل الأوقات وتشابهها •

يدحض أبو البركات هذا الجواب ، على أساس أن الارادة الالهية اذا كانت تميز الشيء عن مثله ، فهل هذا التمييز فى العقل والتصور أم فى الوجود والأعيان • فإن قالوا انها تميزه فى العقل والتصور لكان معنى هذا وجود ميزة معقولة متصورة يتميز بها هذا الشيء ، فتكون بمثابة فصل مميز عند العقل ، وهم يقولون بأنه لا فصل ولا ميزة • وان قالوا إن الارادة تميزه فى الوجود فهو قول باطل ، لأن التميز كان قبل الوجود حتى حصل الوجود ، فكيف كان إذن هذا التميز • وليس الأمر كذلك فى المقادير ، لأن المقدار يتصور للشيء قبل إيجاده فى ذهن موجده ، ويتصور فى الوجود كما هو موجود ، وكذلك القول فى الجهة وغيرها • فكيف ميزت الارادة الالهية المعقولة فى علم الله تعالى وقتا عن وقت قبل خلق مميزات الأوقات(١٧) •

---

(١٧) أبو البركات : المعتبر ، ج ٣ ، ص ٤٤ ــ ٤٥ •

(هـ) إلـزام خامس :

ويتمثل هذا الالزام فى القول بأنه اذا كان العالم قد حدث بعد مدة غير متناهية البداية لم يكن فيها موجـودا ، فقد حـــدث عن سبب ، وذلك السبب ليس هو الأول الذى كان موجودا مع عدم العالم في تلك المدة غـير المتناهية ، لأنه ان كان قبل ايجاد العالم وعنده ايجاده على حال واحدة لم تتجدد عنده حال ، فوجود العالم عنه غير واجب كما كان حين لا يوجده وان تجدد حال فما المتجدد وممن • إن القول بأنه تعالى أراد خلق العالم بعد أن لم يكن مريدا له ، يفيد تجدد الارادة الالهية وهو ما يفيد بالضرورة إثبات التغـــير عليه من كونه غير مريد الى صيرورته مريدا ، وكذلك لأن هـــذه الارادة الجديدة حادثة فما الذى أحدثها ، وهو تعالى لا شريك له ولا ضد له ولا ند له ، ولا مقتض يقتضيه ولا باعث يبعثه ولا سائل يسأله • ان القول بأنه أراد بعد أن لم يكن مريدا يثبت أيضا كونه محلا للحـــوادث ، وهم يرفضون كل هذه المحالات التى نتجت عن قولهم ، فوقعوا فى التناقض •

ولا يفيد قولهم فى دفع هذا الالزام ، بإرادة قديمة له تعالى ، أراد بها فى القدم خلق العالم حين خلقه ، وأن ذلك مثله ـ ولله المثل الأعلى ـ كمثـل إنسان يريد فى يومه ويعزم على فعل شىء فى غده ، فهو يفعـــل فى غـده بإرادته وعزيمته السابقة بالأمس •

لكن أبا البركات يدحض ردهم هذا ويبطله ، على أساس أن ما ذكروه يعتبر قياسا مع الفارق ، لأن الانسان يريد ويعزم فى يومه على ما يفعـله فى غده ليميز غده من غيره بما تميزت به المدة والزمان مع وجود الخليقة بما يكون فيهما من متجددات المدد كشروق الشمس وغروبها ، أما الارادة القديمة فى الأزل فكيف كانت على عزيمتها مدة غير متناهية البداية ، مع تعيين نهاية العطلة والعدم وبداية الخلق والايجاد ، فبماذا يعين وقت البداية من تلك المدة وليس فيها ما يميز وقتا عن وقت حتى يعقل وقت دون وقت بفصـــل مميز عن مميزات السنين والشـــهور والأيام ، ولا يخالف فى القدم القبلى وقت لوقت فى المعقول ، فبماذا يعين الوقت المـــراد بالارادة القديمة التى لا تتناهى مدتها فيما مضى •

ومن جهة أخرى ، فإنه اذا حان وقت بداية خلق العالم ، فلابد من تجدد شيء يوجب الفعل حينئذ مما لم يكن قبله من ارادة أخرى أو عزيمة ، ولا يمكن أن يكون الفاعل حين يفعل ، قبل فعله وفي وقت فعله على حال واحدة لا تغير فيها ، وموجبات الفعل هي مثل علم بعد جهل ، وقدرة بعد عجز ، وقوة بعد ضعف ، أو ارادة بعد لا ارادة أو عزيمة ، وموجبات الارادة معلومة وهي موافقة الدواعي والمقتضيات ، وانصراف الصوارف والموانع ، فإذا لم يكن شيء من هذه كلها ، فالمعلول مع علته ، والمسبب مع سببه لا يتأخر عنه في الزمان ، والموجد مع موجده ، لايمكن غير هذا . فثبت بطلان ما قالوه(١٨) .

٣ ـ نقد دليلهم على الحدوث :

استدل القائلون بالحدوث الزماني على مذهبهم بدليل وضعوه في صورة قياس فقالوا : إن الاجسام لا تنفك عن الحركة والسكون المحدثين (مقدمة صغرى) . وكل مالا ينفك عن المحدث فهو محدث (مقدمة كبرى) ، واذن فالجواهر التي هي الأجسام محدثة ، فالعالم حادث (نتيجة) .

وينتقد أبو البركات حجتهم أو دليلهم هذا فيبطله حيث يقول بأن المقدمه الصغرى لا تشارك المقدمة الكبرى في حد أوسط على الحقيقة ، ولا المحدث الذي في الكبرى وهو الحد الاكبر هو المحدث المطلوب في النتيجة . وعلى ذلك فالقياس خاطيء ولا ينتج المطلوب الذي أرادوا إثباته . ذلك أن قولهم « لا تنفك عن الحركة والسكون المحدثين » لا يوضح المعنى المقصود ولا ينص على معنى واحد ، لأنه إما أن يعني به أنه لا ينفك عن حركة واحدة بعينها وهي المحدثة ، أو لا تنفك عن حركة مطلقة تلك التي لا تسلم أنها محدثة ، ويخالف على حدثها من خالف على الحدث مطلقا ، فهي مصادرة على المطلوب الأول . والأجسام ليس لا تنفك عن حركة واحدة بعينها ولا عن سكون واحد بعينه بل عن الحركة والسكون المطلقين . والحركة المطلقة قديمة عند من يقول بقدم العالم . واذن فلا يصح قولهم (الحركة والسكون المحدثين) ، فالمقدمة الصغرى ان صدقت بمحمولها المطلق فهي المطلوب الأول أو قرينته ومعه كاللازم في الوجود والعقل ، يصدق بها من

---

(١٨) أبو البركات : المعتبر ، ج ٣ ، ص ٣٣ ـ ٣٤ .

يصدق بالمطلوب من غير حاجة الى المقدمة الكبرى • وكذلك قولهم فى الكبرى (وما لا ينفك عن المحدث أولا يفارق المحدث فهو محدث) غير مسلم ، لأن المحدث قد يعنى به المحدث الزمانى وقد يعنى به المحدث الابداعى أى المعلوم الذي له موجد ولا يسبقه موجده بزمان ، ولا يلزم حينئذ صدق الكبرى بالمعنى الثانى •• وعلى هذا ، فقد غالطوا فى الصغرى والكبرى باستعمال الإسم المشترك فيهما ، وفى النتيجة ، فلا محصول لهذا القياس ، ومن ثم يسقط الدليل(١٩) •

كانت هذه هى المحاور الثلاثة التى دار حولها وعليها موقف أبى البركات النقدى من مذهب القائلين بحدوث العالم ، ونلاحظ أن أبا البركات خلال نقده هذا قد بث بعض أفكاره الخاصة بمذهبه فى وجود العالم ، ولعل أهم هذه الأفكار ما يلى :

١ - إنه يوافق المتكلمين على أن العالم مخلوق لله تعالى ومن فعله ، لكنه يختلف معهم فى معنى المخلوقية والاحداث ، فعلى حين يرون أن المحدث المخلوق هو الذى تقدم وجوده زمان لم يكن فيه موجودا ، هو زمان عدم ، يرى هو أن المخلوق قد لا يكون مسبوقا بزمان أو مدة زمانية كان فيها معدوما ، وذلك لأنه أثبت أنه لا تأثير للزمان فى المخلوقية والايجاد ، ومن ثم فالعالم مخلوق وان لم يسبقه خالقه بمدة وزمان • فالعالم اذن مخلوق قديم لله تعالى ، والقول بقدم العالم لا يتعارض مع كونه من فعل الله ومن مخلوقاته خلق خلقه بعلم وارادة وقدرة •

٢ - ان القول بمدة زمانية لا متناهية البداية ونهايتها هى بداية خلق العالم قول باطل فى نظر أبى البركات من حيث يفضى الى محالات أهمها تعطيل الله عن الفعل والخلق خلال تلك المدة ، وتجدد الارادة له وكونه محلا للحوادث ، فضلا عن أنه يفيد حدوث تغيير فى ذات الله تعالى من حيث أراد بعد أن لم يكن مريدا ، وفعل بعد أن لم يكن فاعلا ، وخلق بعد أن لم يكن خالقا ولا يمكن ان يكون الفاعل حين يفعل ، قبل فعله وفى وقت فعله على حال واحدة لا تغير فيها • فبطل قولهم • انه تعالى كان فى الأزل ولم

---

(١٩) أبو البركات : المعتبر ، جـ ٣ ، ص ٣١ •

يكن شيء معه ثم خلق العالم في الوقت الذي أراد . وقد رأينـــا كيف أنه أبطل قولهم بأن الارادة القديمة الواحدة أرادت خلق العالم في الوقت الذي حددته لأن من شأنها تمييز الشيء عن مثله ونظيره .

٣ ـ ان الله تعالى لم يزل جوادا خالقا فاعلا قديما في الأزل ، والعالم مخلوق قديم لله تعالى . فهو مخلوق من حيث هو معلول له ومفعول له ، وهو تعالى موجده في القدم . وهو قديم من حيث انه لم يسبق خلقه له وايجاده له زمان عدم لم يكن العالم فيه موجودا .

وفي ذلك يقول أبو البركات : « ... وإشباع النظر يظهر أن المخلوق هو المعلول المفعول وان لم يتقدمه فاعله بزمان ، بل يكون معه في الوجود معا لا يرتفع عنه عند الفعل المرتاض بالنظر معنى المعلولية والمفعولية ، لكونه غير مسبوق الوجود بالعدم زمانا ، وأن الزمان لا يلزم أن يكون دخوله بين العلة والمعلول ، والفــاعل والمفعـــول شرطا في العلية والمعلولية والفاعلية والمفعولية ، وان الزمان لا يتصور له مبدأ زماني غير مسبوق بزمان ولا يكون له قبل لا قبل له ولا بعد لا بعد له(٢٠) .

ثالثا ـ نقد مذهب القائلين بقدم العالم (نظرية الصدور) :

واذا كانت نظرية الصدور المشائية هي المرآة الحقيقية التي تعـكس مذهب الفلاسفة المشائين المسلمين في قدم العالم وتعبر عنه أصدق تعبير من حيث تضمنت أهم أصول هذا المذهب ومبادئه ، فإن أبا البركات حين يوجه سهام نقده الى هذه النظرية فكأنه يضرب في صميم المذهب لا لأنه يرفضـه بإطلاق ولكن لأنه وجد فيه وفي النظرية المعبرة عنه بعض المثالب ونقـاط الضعف التي تحد من قيمة المذهب وأحقيته بالاعتقاد . وسوف نرى ـ فيما بعد ـ كيف أنه وافق القائلين بقدم العـــالم في بعض الأفكار والأصـــول وخالفهم في البعض الآخـــر ، تماما مثلما كان موقفه من القائلين بحدوث العـــالم .

ونود أن نعرض لأصول هذه النظرية ومبادئها بالصـــورة التي آلت اليها عند ابن سينا ، قبل أن نعرض لنقد أبي البركات لها . ولعل أهم هذه الأصول والمبادىء تتمثل فيما يلي :

---

(٢٠) أبو البركات : المعتبر ، جـ ٣ ، ص ٤١ .

١ - إن الواحد بذاته لا يصدر عنه إلا واحد • وعلى هذا فإن المبدأ الأول او واجب الوجود بذاته لم يصدر عنه بذاته إلا موجود واحد بذاته هو العقل الأول في سلسلة الصدورات التي توالت في الوجود صادرا بعد آخر • وعلة الصدور هو تعقل المبدأ الأول لذاته ، وإذ هو واحد من كل وجه ، فقد صدر عنه واحد فقط هو العقل الأول •

٢ - ان الصادر الأول الذى هو العقل الأول ، هو عقل بالفعل لأنه صادر عن المبدأ الأول الذى هو عقل بالفعل • وهو المعلول الأول عن العلة الأولى • هذا العقل الأول المعلول الأول يصدر عنه ثلاثة أشياء ، فعن تعقله لعلته يصدر عنه عقل آخر بالفعل ، وعن تعقله لذاته بما هو واجب الوجود بغيره يصدر عنه نفس الفلك الأول ، وعن تعقله لذاته بما هو ممكن الوجود بذاته ، يصدر عنه جرم الفلك الأول • ثم تتسلسل الصدورات على هذا النحو ، فكل عقل يصدر عنه ثلاثة أشياء : عقل ونفس فلك وجرم فلك ، وهكذا حتى تنتهى سلسلة الصادرات عند العقل العاشر الذى يسمى بالعقل الفعال ، ومن هنا أطلق على النظرية اسم نظرية العقول العشرة • فيكون الحاصل فى العالم العلوى أو عالم ما فوق فلك القمر عشرة عقول وتسعة افلاك لها تسعة نفوس سماوية •

٣ - وللعقل العاشر (الفعال) فى نظرية الصدور مقام معلوم وأهمية بالغة ، ذلك أنهم يوكلون اليه تدبير أمور العالم السفلى الأرضى أو عالم ما تحت فلك القمر ، إذ عنه تصدر موجودات هذا العالم ، فهو واهب الصور والعقول والنفوس الجزئية البشرية ، وهو مصدر كل مافى العالم الأرضى من كثرة •

٤ - إن كل ما يصدر عن العقل أى عقل من هذه العقول وحتى ما يصدر عن عقل المبدأ الأول ، إنما يصدر وجوبا وبالضرورة لا وفق إرادة ومشيئة ، وان علة الصدور فى كل ما يصدر من عقول ونفوس وأجرام ، إنما هى تعقل العقل لذاته سواء بما هو علة لذاته كعقل المبدأ الأول أو بما هو معلول لغيره وعلة أيضا لغيره كما هو الحال فى بقية العقول •

٥ - ان كل عقل ابتداء من العقل الأول الصادر الأول ، هو معلول لما فوقه ، وعلة للعقل الذى تحته وصدر عنه • فكان موجودات العالم ترتبط فيما بينها بمبدأ العلية بحيث يكون بعضها عللا لبعض ومعلولات

للبعض . والعقل الأول معلول للمبدأ الأول بطريق مباشر ، وبقية العقول والنفوس والأجرام معلولات له ولكن بطريق غير مباشر .

٦ — وما دام الأمر كذلك فإن سلسلة الصادرات عللا ومعلولات تتخذ اتجاها واحدا طوليا يبدأ من أعلى حيث المبدأ الأول متجها الى أسفل حتى ينتهي بالعقل العاشر ، فهو اتجاه نازل فقط .

وينتقد أبو البركات هذه النظرية وأصولها من عدة وجوه :

أولا : إن معنى العقل في لغة اليونان وأرسطو غير معناه في لغة العرب ، ومع ذلك أخذهما الفلاسفة المشاؤون المسلمون بمعنى واحد ، وهذا خطأ وقعوا فيه . ذلك أن العقل في اللغة العربية يقصد به الشيء الذي يمنع الخواطر والشهوات من الناس ويوقفها من أن تمضي العزائم بحسبها ، فإن الانسان يؤثر أشياء بخواطره الأولى التي بمقتضى شهوته وغضبه ، وترده عنها فكرته ورأيه ونظره في عواقب أمره ، فهذا الناظر المفكر الراد عن المخاطر الأولى ، هو الذي يسميه العرب عقلا من حيث يصد الانسان عما هم به كما يصد الناقة عقالها عن الحركة الى حيث تشاء . فهو عقل من جهة العمل لا من جهة العلم . أما الذي يسميه اليونان عقلا فهو من جهة العلم لا من جهة العمل ويصير مبدأ للعمل . ولذلك قالوا إن النفس الانسانية مجموع قوتين أولها قوتان : قوة علمية نظرية وقوة عملية . فالذي أرادته العرب بالعقل هو بالقوة العملية أولى ، والذي أراده اليونان بالعقل هو بالقوة العلمية أولى ، فهما وجهان مختلفان .

أما أبو البركات ، فيرى بأن الانسان العالم منا هو العامل ، وما هما اثنان ، ولا النفس مجموع اثنين ، وإنما هي شيء واحد . والعقل والعمل فعلان من أفعال النفس . يعرف الانسان ذلك من نفسه اذا راجع ذهنه عرف أنه هو العالم وهو العامل ، وهو العازم المريد وهو الممتنع المتوقف بحسب حالتين سنحتا في ذهنه .

ثانيا : إن أصحاب النظرية ناقضوا أنفسهم في مبدأهم القائل بأن الواحد لا يصدر عنه إلا واحد . ويبدو هذا التناقض من عدة وجوه : أولها ، أنه لو كان الأمر كذلك ، لكان ينبغي أن تكون الموجودات كلها علة ومعلولا على نسق من لدن الأول الى المعلول الأخير ، ولا تتكثر إلا طولا فلا توجد الا عقول فقط هي علل ومعلولات ولا توجد نفوس وأفلاك وهذا

باطل • ثانيها ، أنهم أوجبوا من كل عقل صادر ثلاثة أشياء لا شيئا واحدا ، حيث يصدر عن كل عقل ، عقل وجرم فلك ونفس فلك ، فخالفوا بهذا مبدأهم حيث صدر عن الواحد أكثر من واحد • ثالثها ، أنهم لم يوجبوا عن المبدأ الأول الا صادرا معلولا واحدا ، مع أنه عندهم عقل وعاقل ومعقول ، فلماذا لم يوجبوا عنه تعالى ثلاثة أشياء تصدر عنه بهذه الاعتبارات مثلما أوجبوها لكل عقل من العقول الأخرى • إن المبدأ الأول أولى بذلك(٢١)

وكان يمكنهم أن يقولوا ان المبدأ الأول بما يعقل ذاته عقلا أوليا بوحدانيته وبذاته ، يصدر عنه موجود هو أول مخلوقاته ، فإذا أوجده عرفه وعقله موجودا حاصلا في الوجود منه ، كان بما يعقله يصدر عنه آخر غيره ، وكذلك يعقل فيوجد ، ويوجد فيعقل ، وتكون مخلوقاته عنده دواعي مخلوقاته ، فيوجد الثاني لأجل أول ، وثالث لأجل ثان ، كما جاء في خبر الخليفة أنه خلق آدم أولا وخلق منه ولأجله حواء ، ومنهما ولأجلهما ولدا ، لست أقول إن الرأي هذا ، لكن هذا في القبل والبعد العلي لا في الزماني حتى لا يخرج عن قولهم اصلا ويكون احرى وأولى •

ان المشائين قد اخطأوا عندما قصروا عقل الأول على ذاته دون غيره من مخلوقاته ، ومن ثم اقتصروا في فعله وخلقه على ما صدر عنه بذاته عن ذاته ، وجعلوا غيره أسبابا وعللا لصدور المعلولات الكثيرة ، وما ذلك إلا لأنهم لم يقولوا بكثرة معقولاته ومعلولاته ومعلوماته • ان الفاعل الواحد يفعل أشياء بحسب أشياء أخرى سواء كانت تلك الأشياء معلولاته ومفعولات غيره ، كمن يشترى لنفسه عبدا ، ولعبده عبدا ، وقد يشترى العبد نفسه عبدا فيكون عبدا للمولى الأول أيضا لأن عبد العبد عبد أيضا ، فلا عجب أن يخلق الله صورة وللصورة هيولى ونفسا ، وللنفس بدنا ، وفلكا وللفلك محركا ، فكيف لزم الترتيب الذى نصوا عليه(٢٢) • وأخيرا لماذا لم يجعلوا لكل نفس بشرية علة واحدة على حدة اتساقا مع مبدأهم هذا ، وجعلوا للنفوس على كثرتها علة واحدة هي العقل العاشر الفعال • انهم ان برروا ذلك بقولهم ان النفوس الانسانية متحدة بالجوهر والنوع فإننا لا نسلم لهم ذلك ، وهم لم يثبتوه بالدليل ، وعندنا ان النفوس البشرية ليست كذلك بل هي مختلفة بالماهية والجوهر والنوع •

---

(٢١) أبو البركات : المعتبر ، جـ ٣ ، ص ١٤٩ — ١٥٤ •

(٢٢) أبو البركات : المعتبر ، جـ ٣ ، ص ١٥٦ •

ثالثا : إنهم إن كانوا قد أوجبوا عن المبدأ الأول صدور شيء واحد فقط هو المعلول الأول استنادا الى أن المبدأ الأول يعقل ذاته ولا يعقل غيره من الموجودات الجزئية المحسوسة ، تنزيها للأعلى عن الأدنى ، فقد كان ينبغي أن يقولوا مثل ذلك في العقول الصادرة جميعا ، فيكون العقل الأول يعرف ويعقل مافوقه ولا يعقل العقل الثاني الذى هو دونه ويعقل الثالث الثاني الذى فوقه ولا يعقل الرابع الذى دونه ، وهكذا في بقية ما أثبتوه من العقول ، لكنهم لم يقولوا بذلك ، فناقضوا وخالفوا ما اعتبروه أصلا عندهم .

رابعا : انهم في نظريتهم هذه ، قد اهتموا بالأفلاك ونفوسها ، فقصروا موجودات العالم العلوى السماوى على عقول عشرة ونفوس تسعة وأفلاك تسعة ، وتركوا الكواكب بأسرها سدى ، لا عقول ولا نفوس لها ، وجعلوا ذلك للأفلاك من جهة الحركات وقالوا انها أجرام شريفة أزلية البقاء ، يستحق كل واحد منها أن يكون له نفس وحياة وهو أحق من الانسان بها ، ونسوا الكواكب على كثرتها فلم يذكروا لشيء منها نفسا ولا عقلا كأنهم رأوها في الفلك كالأجزاء مثلما تكون الأعضاء في البدن ، وما الأعضاء في البدن سدى ، لأنهم خصوا كلا منها بقوة من القوى ، فما بال تلك الكواكب قد خلت من هذا ، فلم يوجبوا لها شيئا مما أوجبوه في الأفلاك ، مع ان الكواكب أولى بذلك لما يظهر من أفعالها بشعاعاتها وأنوارها وقواها وروحانياتها ، وما المتحيرة منها على قلتها أولى بذلك من الثابتة فلكها على عظمها وكثرتها وما نراه ومالا نراه منها .

خامسا : إن كل ما ذكروه في نظريتهم من أصول ومبادىء هو من قبيل القول المرسل الذى لا دليل عليه ولا برهان ، وقد أوردوه كالخبر ، ونصوا فيها نصا كأنه الوحي الذى لا يعترض ولا يعتبر ، وليتهم قالوا يمكن هذا وغيره ، ولم يقولوا بوجوبه . وإن زعموا أن ذلك جاءهم عن وحي ، فكان يليق بهم ويجب عليهم أن يذكروا ذلك فيما ذكروا حتى يرجع عنهم المعترضون ، فالذى بنوا عليه نظريتهم ، قد ثبت بطلانه بالتعقب والنظر ، وظهر أنه غير واجب ولا ملزم ولا متسق بعضه مع بعض(٢٣) .

---

(٢٣) أبو البركات : المعتبر ، ج ٣ ، ص ١٥٧ - ١٥٨ .

سادسا : إن أصحاب النظرية جعلوا الصدور في الصادرات كلها عللا ومعلولات على سـبيل الوجوب واللزوم والضرورة ، فأثبتوا العلية التي ترتبط بها موجودات العالم ولكن بوجه منقوص ، حيث سلبوا الارادة من كل علة فاعلة وخاصة عن المبدأ الأول الفاعل الأول . وقد أثبت أبو البركات أن الفاعل الأول إنما يفعل بإرادة وحكمة يدل عليهما ما نجده في الوجود من نظام وإحكام وإتقان ، ولا يمكن أن توجد هذه الأمور في موجودات العـالم على سبيل الطبع أو الضرورة أو الاتفاق الذى تنتفى فيها الارادة . بل إنه أثبت الارادة والحكمة في الأفعال المحكمة المتقنة التي تصدر عن الانسـان منا فنصفه بأنه مريد حكيم ، فأولى بذلك العلة الأولى التي هي الفاعل الأول ، فهو مريد على الحقيقة لما يفعل عالما بما يفعل ، راض عما يفعل ، ولو سلبنا عنه الارادة والحكمة لكان فعله بالطبع كما تفعل النار في الاحراق والشمس في الحرارة والانارة والثلج في التبريد ، وقد أثبتنا أن للفاعل الأول إرادة قديمة وارادات متجددة تسبق كل فعل من أفعـاله « أراد فجاد ، وجـاد فأوجد ، وأوجد فأراد ، وهكذا وجدت الموجودات عنه .

وهكذا استطاع أبو البركات أن يقوض الدعائم والأصـول التي أقام عليها الفارابي وابن سينا نظرية الصدور التي أرادوا بها التعبير عن مذهبهم في قدم العالم . وقد سبق أن عرضنا نقـده لمذهب المتكلمين في حـدوث العالم . ونقول هنا إن نقده لهؤلاء وأولئك لم يكن بغرض طرح مذهب كل منهما جانبا طرحا يتضمن رفضه للمذهبين كليا وجزئيا ، وإنما قصـد من وراء نقده لهما أن يبين أولا تهافت أهم أصول كل من المذهبين وعدم أحقيتها بالاعتبار من حيث لا تثبت بمحك النظر وعمق التأمل ومنهج الاعتبار ، ثم ليثبت ثانيا أن كل طرف منهما قد أصاب في أشياء وأخطأ في أشياء ، وأن الحقيقة بكاملها لا تتوفر لأى منهما ، ممهدا بذلك لعرض مذهبه الخاص في وجود العالم ، وهو المذهب الذى أدى به اليه منهج الاعتبار الذى سلكه .

وسوف نلاحظ كيف أن هذا المذهب يحمـل في طياته من الجـديد ما يجعله مذهبا متفردا يقدم تصورا جديدا لوجود العالم يقترب الى حد بعيد من التصور الاسلامي وان كان يعتمد على أصـول عقلية ومنطقية تضمن له أن يوضع في مصاف المذاهب الفلسفية الاسلامية الجديدة في عصره وفيما بعد عصره أيضا ، وهو ما سنعرض له في الفصل التالي .

الفصـــل الثـــانى

مذهب أبى البركات فى وجود العالم

ويشـــــمل :

أولا : العالم مخلوق قديم لله تعالى

ثانيا : الخلق وترتيب الموجودات

أولا ــ العالم مخلوق قديم لله تعالى :

١ ــ رأينا فى الفصل السابق ، ومن خلال الموقف النقدى لأبى البركات من آراء السابقين فى مسألة وجود العالم ، كيف أنه انتقد القول بحدوث العالم حدوثا زمانيا على ما قال به المتكلمون ، وقال هو بالخلق أو الحدوث المعلولى الذى يقضى بأن كل موجود من موجودات العالم هو معلول ومفعول لفاعل وعلة هى المبدأ الأول أو الله تعالى ، فالعالم وموجوداته مخلوقات لله تعالى سواء كان قد خلق بعضها خلقا إبداعيا أى من لا شىء كالعقول والنفوس السماوية أو خلق بعضها خلقا تكوينيا أى من شىء كخلق الانسان من الماء والطين ، فالكل مخلوقات الله ومفعولاته ومعلولاته سواء كان بطريق مباشر أو بطريقة غير مباشرة •

وكذلك انتقد القول بصدور الموجودات عن الله واجب الوجود بذاته صدورا ضروريا وجوبيا لازما تنتفى معه الارادة الالهية فى الفعل والخلق على ما قال به الفلاسفة المشاؤون ، وقال هو بالخلق باعتباره فعلا إراديا محكما لله تعالى ، ورأى أن لله إرادة قديمة أزلية وإرادات حادثة متجددة تدخل فى علية الحوادث المتجددة فى الوجود • وعلى ذلك فإن ما يوجد عن الله لا يوجد على سبيل الضرورة أو اللزوم أو الطبع أو الاتفاق ، وإنما يوجد عن علم وإرادة وقدرة إلهية •

٢ ــ ويدعم هنا مذهبه فى خلق العالم وأن الله خالق كل شىء بقوله ان الأول الواحد القديم هو خالق العالم وموجوداته بأسرها ، قديمها وحديثها ، وحده لا شريك له فى جوده وخلقه وملكه وأمره • وقد خلق الله الأشياء القديمة دائمة الوجود بدوام جوده ، وخلق الحوادث شيئا بعد شىء ، وقد خلق ما خلق بإرادته ، أراد فخلق ، وخلق فأراد ، فأوجبت إرادته خلقه ، وأوجب خلقه إرادته • مثال ذلك أنه أراد خلق آدم الذى هو الأب فخلقه وأوجده ، واقتضى وجود الأب من جوده وجود الأم حواء ، واقتضى وجودهما وجود الابن فخلق الابن ، وهكذا تسلسلت المخلوقات وصدرت عن إرادته وجوده ، خلقا بعد خلق ، وخلقا قبل خلق « أراد فجاد ، وجاد فأراد ، إرادة بعد إرادة لموجود بعد موجود • فإن قيل : ولم أوجد ؟ قلنا لأنه أراد فجاد • وان قيل : ولم أراد ! قلنا لأنه أوجد • فوجود الحوادث يقتضى بعضه بعضا من جوده السابق اللاحق » • ومن ثم فإن تسلسل وجود

الأشياء المحدثات واستمرارية عملية الخلق والايجاد ، يرجع الى ارادة الله وجوده الذى لا ينقطع ، فكونه خالق فعال راجع الى كونه تعالى مريد جواد ، فهو الفعال لما يريد •

٣ ـ ولا يجد أبو البركات حرجا فى القول بأن لله تعالى ارادة قديمة أزلية وارادات حادثة متجددة • ونستطيع أن نزعم أنه يرجع موجـــودات العالم القديمة الى الارادة الالهية القديمة ، ويفسر ما نراه من خلق متجدد مستمر للمخلوقات الحادثة المتجددة ، بإرادات الله الحادثة • ومعنى هذا ، أنه يرفض القول بإرادة واحدة قديمة تكون مصدرا وحيدا لقديم الموجودات وحادثها ، وهو لا يأبه بما اذا كان مذهبه هذا يفضى الى كون الله تعـــالى محلا للحوادث المتمثلة فى الارادات الحادثة والأحوال المتجددة ، وان كان قد حاول تبرير مقالته هذه فى تعدد الارادات الالهية •

ويحاول أن يدفع ما قد يثار من اعتراضات على قوله هذا ، فيقـــرر بأن إثبات ارادات حادثة لله تعـــالى يماثل إثبات ارادة قديمة له • فإذا كان المعترضون لم يجدوا حرجا ولا شناعة فى اثبات ارادة قديمة تكون الذات الالهية محلا لها • فإن قيل بأن الارادة الالهية الواحـــدة القديمـــة هى لله تعـــالى من ذاته وقديمة بقدمه ، قال هو ، وكذلك الارادة الحديثة له تعالى من ذاته القديمة لأن السابق من جوده بالإرادة السابقة ، أوجب عنده ارادة لاحقة ، فأحدث خلقا بعد خلق بإرادة بعد ارادة وجبت فى حكمته من خلقه بعد خلقه ، فاللاحق من ارادته وجب عن سابق ارادته بتوسط مراداته ، وهكذا ، هلم جرا •

ويرى أبو البركات أن الذين أثبتوا لله إرادة قديمة واحدة ، ونفـوا وجود ارادات حادثة ، تنزيها له تعـــالى عن أن يكون محلا للحوادث ، هؤلاء قد وقعوا فى خطأ فى الفهم والتصـــور ، لأن التنزيه عن الارادة الحادثة كالتنزيه عن الارادة القديمة فى كونه تعالى محلا لها ، فكونه محلا لارادة قديمة فى معتقدهم ، يماثل كونه محلا لتلك الارادة ولارادات حادثة فى معتقدنا ، ولا خلاف لأن كلا المعتقدين يثبت كونه تعالى محلا للارادة ، هـذا فضلا عن ان إثبات هذا وذاك له تعالى لا يتعارض مع التنزيه(١) •

---

(١) أبو البركات : المعتبر ، ج ٣ ، ص ٤٥ ـ ٤٦ •

ونحن نخالف أبا البركات فيما ذهب اليه من إثبات ارادات كثيرة متجددة حادثة لله تعالى ، ولا نقتنع بما ساقه من تبرير لذلك . فقد خلط بين الارادة في ذاتها وبين فعاليات هذه الارادة ، إذ ليس من المعقول أن يكون لله إرادة مستقلة بإزاء كل فعل أو خلق يصدر عنه ، وإنما الأحق في العقل والتصور أن تكون له تعالى ارادة واحدة قديمة لها فعالياتها أو أفعالها الحادثة المتجددة فيكون وجود الموجود الحادث بفعل أو أمر من أوامر أو فعاليات الارادة القديمة ، ويكون هذا الفعل أو الأمر وان بدا حادثا إلا أنه في الأصل يرجع الى تقدير الارادة القديمة الواحدة . ومثل ذلك - ولله المثل الأعلى - كمثل الانسان فله ارادة واحدة ، تتجدد أفعالها أو فعالياتها أو آثارها في كل يوم وآن ، ولا يزعم أحد أن للانسان ارادات متعددة تفسر أفعاله الارادية المتعددة المتجددة الحادثة طوال سني عمره . ولو صح ما ذهب اليه أبو البركات ، لكان معنى ذلك أن لله ملايين بل بلايين الارادات تفسر بلايين الأفعال الالهية التي توجد عنها بلايين المخلوقات في الماضي والحاضر والمستقبل ، وهو مالا يقول به عاقل ولا يتصوره أيضا ، ومن ثم تكون الموجودات الحادثة المتجددة ، سواء كانت متعاقبة أو متحايثة هي أفعال وآثار أو معلولات للارادة الواحدة القديمة .

وأيضا ، فإن ما ذهب اليه أبو البركات في تبرير قوله بإرادات حادثة متجددة لله تعالى ، بأن هذه الارادات تفسر مرادات الله الكثيرة المتجددة مثل قبوله الدعاء من الداعي ، وإحسانه الى المحسن المطيع ، وإساءته الى المسيء ، وقبوله توبة التائب ، وغفرانه للمستغفر ، وما شابه ذلك مما يجري في العالم كل لحظة وآن ، هذا القول في نظرنا غير معقول ولا مقبول ولا يؤدي الى النتيجة التي قال بها أبو البركات(٢) .

صحيح أن هذه الأفعال كلها مرادات لله تعالى ، وصحيح أيضا أنها حوادث متجددة في كل حين وفي كل زمان ومكان ، لكنها جميعا لا تؤدي الى القول بإرادات متعددة ، بل يمكن تفسيرها بإرادة واحدة لله ، ذات فاعليات وآثار متجددة ، يرتبط كل أثر أو فاعلية منها بفعل أو مراد

---

(٢) أبو البركات : المعتبر ، جـ ٣ ، ص ٤٧ .

من هذه المرادات ، وإلا فهل من المعقول أو المتصور أن نفسر فعاليات العقل فينا بوجود عقول متعددة حادثة في نفوسنا ، حين نعقل شيئا بعد شيء وشيئا قبل شيء ، من المعقولات والنظريات والادراكات التي نمارسها في كل لحظة وآن ، ان ذلك يعني أنني عندما أعقل أو أفهم شيئا أو أحكم حكما عقليا بشيء أو استنبط شيئا أو أقول بفكرة أو نظرية أو وجهة نظر جديدة ، أن كل شيء أو فعل من هذه الأفعال العقلية يقتضي وجود عقل خاص بها في نفسي ، ولو كان كذلك لما وسعت نفسي عدد هذه العقول . والحق الواضح والمعقول والمتصور هو وجود عقل واحد في الانسان له أفعال ومعقولات وأنظار متجددة متلاحقة ترجع اليه بذاته وهو واحد .

ويحاول أبو البركات تبرير مقالته هذه أيضا بقوله إن الحوادث المتجددة التي توجد في الوجود في كل لحظة وآن ، كل منها يوجد بعد أن لم يكن موجودا ، فلابد لفاعلها من ارادة حادثة جديدة ، لأن الفاعل إنما يفعل الشيء بعد أن لم يكن فعله ، بحال أو سبب تجدد له ، فأوجب عنده فعله بعدما لم يكن يفعل ، سواء كان ذلك الموجب قدرة بعد عجز ، أو قوة بعد ضعف ، أو معرفة بعد جهل ، أو ارادة بعد لا ارادة ، أو تجدد دواعي تقتضي الفعل ، أو زوال صوارف كانت تمنع منه ، سواء كان الفاعل يفعل بالطبع أو بالارادة أو بالبديهة أو الحكمة(٣) .

والرأي عندي هو أن ما ذهب اليه أبو البركات هنا صحيح ، لكنه صحيح فقط بالنسبة لكل فاعل سوى الله تعالى ، سواء كان انسانا أو غيره . فلابد في الفعل الانساني الحادث من وجود موجباته من الارادة والقدرة والعلم ووجود دواعيه وزوال الصوارف والمعوقات المانعة عن وقوع الفعل ، أما بالنسبة للفعل الالهي فالقدرة أزلية أبدية لا محدودة وكذلك العلم ، وكذلك الارادة ، فالموجبات موجودة وهي الارادة القديمة الأزلية والعلم المحيط والقدرة اللامتناهية ، والدواعي متوفرة وهي التي أقرها أبو البركات نفسه ممثلة في الجود الالهي ، والموانع مرتفعة لأنه لا ضد له تعالى ولا ند ولا شريك يمانعه أو يضاده في مراداته ، وقد أقر بذلك

---

(٣) أبو البركات : المعتبر ، جـ ٣ ، ص ٤٨ .

أبو البركات أيضا • وقياس الغائب على الشاهد هنا لا يصح لأنه قياس مع فارق هائل يضع تمايزا لا محدودا بين الاله الخالق وبين الانسان المخلوق •

٤ ـ ويرتبط فعل الخلق والايجاد عن المبدأ الأول الذى هو الله تعالى ، بمنظومة إلهية تنتظم الجود الالهى والقدرة والعلم والارادة الالهية ، فوجود الموجودات عن الله تعالى يرجع الى جوده وقدرته وعلمه وارادته ، وليس هناك فصل بين هذه المسببات أو الموجبات للوجود • وان كان كل منها يتميز عن الآخر بحقيقته ومعناه ، فليس الجود هو العلم ، وليس أحد من هذين هو الارادة ، وكلها لله تعالى بذاته وعن ذاته ولذاته ، وبها جميعا أوجد ويوجد ما يوجده بحيث يقال ان جميع الموجودات سوى المبدأ الأول ، إنما وجدت عنه ومنه وبه واليه ، بمعنى أنها عنه صدرت ، ومنه بدأت ، وبه تدوم ، واليه مآلها فى الغاية(٤) •

ويوضح لنا ذلك ببيان تصوره لكيفية وجود العالم وموجوداته عن الله تعالى ، فيقول بأن ما قاله الفارابى وابن سينا فى المعلول الأول (العقل الأول) وما صدر عنه (نظرية الصدور) ، أولى بأن يقال فى المبدأ الأول • واذا لم يكن فى المبدأ الأول إمكان وجود بذاته ولا وجوب وجود بغيره كما هو الحال فى المعلول الأول ، فإن له تعالى الجود والتعقل والعلم والقدرة والارادة ، وبها جميعا أوجد ما أوجده بحيث يقال إنه تعالى جاد فأوجد ، وأوجد فجاد ، علم فخلق ، وخلق فعلم ، وعلم فخلق ، فلم يقتصر إيجاده على موجود واحد ، بل أوجد بذاته عن ذاته بغير سبب ثان ، موجودا أولا ،ثم بجريرته ولأجله ، إما من جهة تصوره له أو ايجاده له ، موجودا آخر ، وذلك الموجود الأول أيضا تصدر عنه أشياء بحسب ما يتصور ويشاء من تصوره • ويكون مثل ذلك ـ ولله المثل الأعلى ـ كمثل الانسان فيما يقدر عليه ، حيث يريد السكن والستر فيتخذ من أجله بيتا ، ومن أجل البيت وتحسينه يتخذ نقشا وزينة وسترا وفرشا ، وكذلك يقتنى فرسا ، ولفرسه مركبا وزينة يزينه بها ، فهو المتخذ لها ، لكن للفرس ،

---

(٤) المصدر السابق ص ١٥٨ •

وإيجاده إياها للفرس إنما لأجل نفسه حتى يكون فرسه حسنا مجملا ؛ كذلك يخلق الله الموجودات فتوجد عنه وعما عنه والذى عنه : منه ما هو لأجله ومنه ما هو لأجل ما عنه . وعلى هذا الوجه ينزل الغيث من السماء فينبت النبات ثم ينزل فيسقيه ، ثم يثمر النبات فيبرز لحفظ نوعه من شخصه .

وهكذا ، يعرف الأشياء من ذاته وما يحسن ويليق بها ، فيخلق شيئا لأجل شيء ، فتكون موجودات عنه بذاته ، وموجودات عن هذه الموجودات ، وكلها عنه أصلا ، فيكون من أفعال الله تعالى ، القديم الذى هو أول الخلق ، ومنها الحديث المحدث فى الجزئيات المتجددة مثل إنزال الغيث وتحريك الرياح ، وتقوية قلب انسان وإضعاف قلب آخر ، واحياء شخص وإماتة آخر ، واجابة داع وانتصاف لمظلوم من ظالمه ، وكل ما ينسب اليه من الأفعال الجزئية الحادثة في الأوقات المختلفة ، لا يمتنع شيء من ذلك . لأن امتناع ذلك عند الفلاسفة المشائين كان بسبب كونه تعالى عندهم لا يدرك الجسمانيات ولا يتصور الجزئيات الحادثة ، وقد أبطلنا ذلك كله ، ومن ثم يكون الله تعالى بحسب ما أوجب من مبدأيته الأولى وقدرته وحكمته وعلمه ، أراد الخلق بأسره على سبيل الجملة لايجاد كل ممكن الوجود ، ثم على طريق التفصيل لاخراج كل ممكن فى التصور والتقدير الى الوجود بالفعل بحسبه فى تقديره وتوقيته أزليا وزمانيا ، ويكون الزمنى لأجل الزمنى ، والمتأخر لأجل المتقدم ، والمتقدم لأجل المتأخر ، والشخصى لأجل النوع من جهة دوام البقاء ، والنوع لأجل الشخص من جهة الحصول فى الوجود(٥) .

وعلى هذا ، تصدر من الموجودات أشياء يكون الله تعالى فاعلها بذاته ، ويكون صدورها عنه ومنه بذاته ، ويفعل أشياء يكون منها بعض مخلوقاته كالآلات والأسباب ، إما فى صدورها عنه ، وإما فى كونها مقتضى حكمته ، فيتسق جميع ذلك على إرادته الأولى بتفصيل ارادات كثيرة بمقتضيات كثيرة دائما وفى وقت ما ، ولا يلزم فى ذلك ما ألزمه المشاؤون من أن الواحد بذاته لا يصدر عنه إلا واحد ، فهذه أشياء كثيرة صدرت عن واحد بأسباب كثيرة مقتضية ، كما اقتضى عند أصحاب أرسطو أن يصدر عن

(٥) أبو البركات : المعتبر ، جـ ٣ ، ص ١٥٩ — ١٦٠ .

الواحد الذى هو المعلول الأول أشياء كثيرة بحسب التصورات والتعقلات الكثيرة . وكما أن الواحد منا على ضعف قوته وعجز قدرته وضيق وسعه ، يفعل أشياء كثيرة ، متشابهة ومتناقضة ، متناسبة ومتباينة ، بحسب الدواعى والصوارف التى تقتضيه بها ، فيحسن الى شخص ويسىء الى آخر ، ويحب شخصا ويبغض آخر ، ويشتاق شخصا ويمل آخر ويريد شيئا ويترك شيئا ، على هذا النسق الذى نعرفه من أحوال الناس ، كذلك الله تعالى يفعل بحسب الموجبات المقتضية لحكمته بما يجوز منها وما يجب ، ولا ينتظم لنا علم ذلك على نسق محدود .

٥ ـ وثمة نقطة هامة فى مذهب أبى البركات فى وجود العالم ، قد تلتبس على بعض الباحثين فى فلسفته ، وهى أنه اذا كان قد أقر مع المشائين بأن الواحد لا يصدر عنه إلا شىء واحد ، فإن مقصوده بذلك غير مقصودهم ولم يرتب عليه ما رتبوه ، لأنهم بهذا المبدأ قصروا فاعلية المبدأ الأول وإرادته على موجود واحد صادر عنه هو المعلول الأول . أما أبو البركات فيثبت طلاقة الفاعلية والايجاد للمبدأ الأول بحيث ينسب اليه كل ما وجد وما يوجد من الموجودات قديمها وحديثها ، عللها ومعلولاتها مستندا فى ذلك الى الجود الدائم والارادات المتجددة لله تعالى والغائية فى أفعاله .

ويوضح لنا مذهبه فى ذلك بقوله إن الواحد بجوده الواحد وإرادته الواحدة لا يصدر عنه إلا موجود واحد ، يستوى ذلك فى الفاعل منا وفى العلة الأولى أو المبدأ الأول ، لكن الله تعالى جواد دائما مريد دائما ، فهو خالق موجد دائما ، ولا يقتصر فعله وخلقه على ايجاد موجود واحد هو المعلول الأول كما قال المشاؤون . ذلك أن الواحد منا بإرادته الواحدة وتصوره الواحد ، وخلقه الواحد كجوده مثلا ، لا يصدر عنه إلا واحد لا محالة ، فإن صدر عن المريد الواحد فعلان ، فإنما يكون ذلك بإرادتين صدرتا عن خلق واحد فى وقتين أو عن خلقين متشابهين أو متباينين بحسب الفعلين فى الزمان الواحد أو فى الزمانين . والله تعالى واحد أحد ، فرد صمد ، فهو واحد الذات والجود والارادة ، فالذى يوجد عنه بذاته فى بداية إيجاده ، واحد لا محالة ، وذلك الواحد أقرب اليه وأشبه به من

سائر مخلوقاته لأن وجوده صدر عن ذاته بإرادته لأجل ذاته ، فهو فاعله وهو غايته • ثم إن أوجد موجودا ثانيا لأجل الأول ، فهو أيضـــا لأجله ، لأنه من أجل ما هو من أجله ، فهو للأول غاية أولى وهو الغاية القصوى ، أما بالنسبة للثاني ، فهو ليس الغاية القريبة الأولى ، بل الغاية البعيدة والغاية البعيدة أحق بمعنى الغاية من الغـــاية القريبة ، لأن كل شيء من أجل الغاية البعيدة ، والغاية القصوى البعيدة ليست من أجل شيء •

فإذا خلق الله شيئا ثانيا من أجل ما خلقه أولا من أجل ذاته ، فقـد خلق الثاني من أجل ذاته أيضا ، فيوجد موجـودا لأجل ذاته ، وموجـودا لأجل الموجود الذى أوجده بذاته ، فيوجد ثم يوجد ، ويخلق ثم يخلق ، من أجل أنه يريد ثم يريد ، ارادة تتسبب من ارادة ، وموجودا من أجـل موجـــود ، فلا يتوقف إيجاده على موجود واحـد كما قال المشـــاؤون • فالموجودات ، منها ما يوجد عنه لأجل ذاته ، ومنها ما يوجد عنه لأجـــل الموجود الذى وجد عن ذاته ، كما خلق العينين وخلق الرأس من أجلهما ، والشعر من أجل الرأس ، والأسنان من أجل المضغ ، الفكين من أجـــل الأسنان ، وهكذا في سائر ما نجده في خلق الحيوان والنبات فى ثمره من لبه ولحمه وقشره وورقه وأغصانه وساقه(٦) •

٦ ـ ويرى أبو البركات أن موجودات العالم منها ما هو قديم أزلى ، ومنها ما هو حادث زمانى ، وكلها من أفعال الله تعـالى وهى نظرة واقعيـة علمية تقربه كثيرا من التصور الدينى لخلق الله للعالم • وفى هذا الصدد يقول بأن الموجودات على ضربين : **أحدهما** ، يتمثل فيما هو عنه ، وهـــذه قســـمان ، حيث منها ما هو لذاته عن ذاته وهو واحد ، وما هو لأجـــل ما عنه ، ومنه تبتدىء الكثرة فيما عنـــه ، وفيما عما عنه طولا وعرضا ، تتضاعف الى نهاية وغير نهاية فى الأزلى والزمنى ، **والثـانى** ، ما هو عما عنه • وعلى ذلك يكون من أفعال الله ما هو قديم أزلى لا يتقدم وجـــوده زمان ، مثل علمه بذاته وبالموجود والموجـــودات التى صدرت عنـه بذاته

---

(٦) أبو البركات : المعتبر ، جـ ٣ ، ص ١٦١ ـ ١٦٣ •

ومنه ، وما هو زمنى حادث ، وهو ما يفعله لأجـل الزمنيات والحـوادث والمتغيرات من الآيات والمعجـزات واللطائف والكرامات • وما يظهـر ويخفى من خاص العنايات ولطيف الهدايات التى لا يقدر عليها غـيره ، ولا يصح أن تنسب إلا اليه وان كانت نسبتها الى غيره هى أيضا نسبتها اليه لأنه العلة الأولى ، وكل ما يقال انه علل ومعلولات في الوجود إنما هى عنه وعما عنه •

ويقترب أبو البركات كثيرا من التصور الدينى للخلق الالهى عندما يربط فعل الخلق والايجاد بالعلم والارادة الالهية ويربط العلم الالهى والارادة الالهية بالأمر الالهى فى الخلق والايجـاد « كن فيكون » ، وكأنه يفسر لنا قوله تعالى : « **إنمـا أمره إذا اراد شيئا أن يقول له كن فيـكون** » (سورة يس : آية ٨٢) و « **إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون** » (سورة النحل : آية ٤٠) • ويوضح لنـا أبو البركات هذه العـلاقة الوثيقة بقوله ان الله تعالى يعلم ما يوجد قبـل أن يوجد قبلية بالذات ، ويريده ويرضاه ويعلم بما يتبـع وجوده وما يلزم عن جـوده • وإرادته الأولى هى لذاته من ذاته لا من سبب آخـر يوجبهـا لذاته ، لأن الارادة الأولى هى قبل المخلوقات بأسرها قبلية بالذات ، وهو بتلك الارادة الأولى علة للوجود بأسره على طريق الجملة والعمـوم ، وعلة لموجـود هو أول الموجودات المخلوقة المعلولة الذى هو رأس الملائكة وأجلها وأشرفها وأقواها وأقدرها وأقربها الى ربه وأعـلاها • ثم ان الله تعـالى يخلق غير ذلك من من الخلق الأزلى والأفعال الزمنية الحادثة بإرادات سابقة ولاحقة ، قديمـة وجديثة ، دائمة ومتبدلة ، يريد فيكون ، ويكون فيريد شـيئا لأجـل ذاته وشيئا لأجل شيء ، فيخلق هيولى لأجل صورة ، وصورة لأجل فعل ، وفعلا لأجل صورة • والسبب القريب الموجب لوجود كل موجود هو تصـوره فى العـلم الأول الذى هو علم الأول وارادة كونه ووجـوده لا غير ، فإذا تصور ذلك الشيء وتصور معه إرادة وجوده ، كان كأنه قال « كن فيكون » • لكن قوله « كن فيكون » ليس من قبيل قول العبارة الذى يناجى بها القائل غيره ، بل هو قول العلم والارادة الذى يناجى به القائل نفسه لأنه لا غير

هناك معه يناجيه ، فيكون قوله تعالى للمتصور فى علمه « كن » حاصـــلا فى الوجود بالفعل فيكون بتقديره وفعله بحسب علمه وتصوره وارادته(٧) ٠

ولا ينبغى الظن بأن ما ذهب اليه أبو البركات من أن العالم مخلوق قديم لله تعالى وأن من موجوداته ما هو قـــديم أزلى ، ومنها ما هو حادث زمانى ، أنه حاول متعمدا التوفيق بين الدين والفلسفة ، وأنه بقـــوله بقدم بعض الموجودات يرضى نزعته الفلســـفية ، وبقوله بحدوث البعض الآخر يرضى نزعتـــه الدينية ويتفق مع المتكلمين ووجهة النظر الدينيه ، وإنما ينبغى القول بأن ما ذهب اليه فى هذا وذاك ، إنما أداه اليه نظره العقلى ومنهج الاعتبــــار ٠ وهو وان قال بأن العالم مخلوق لله تعـــالى فإنه لا يقصد بذلك ما قصده المتكلمون من أنه وجـــد بعد زمان لم يكن فيـــه موجودا وانما يقصد بالمخلوقية والحدوث هنا الحدوث المعلولى لا الحدوث الزمانى ، فالعالم مخلوق حادث بمعنى أنه مفعول ومعلول لله تعالى الذى هو علته وفاعله على الحقيقة ٠

ثانيا ــ الخلق وترتيب الموجودات :

يترتب الخلق بحسب الارادة السابقة واللاحقة فيما يراد وجـــوده لعينه ، وفيما يراد وجوده لأجل غيره ، وفى كليهما ، ولا تتخصص الارادة الالهية بمعلول أول واحد ثم يختص ذلك المعلول بمعلول آخر على ما قال به الفلاسفة المشـــــاؤون ، بل يكون للعلة الأولى التى هى الله تعـــــالى معلول يفعله ويفعل ذلك المعلول معلولا آخر ، ويفعل الله معلولا آخر بخاصـــيته ويفعل فيه وبه أفعالا خاصة بذاته فى غيره ، وأفعالا من أجل مفعـــولاته ، بحسب ارادته ، فتكون الخلائق كلها من افعال الله تعالى ومن فعل الخلق أيضا ومن مجموعهما ، كالزرع مثلا فإنه من الزارع ومن الله المنبت جميعا والخالق الحكيم المريد خلق بحســــب ارادته وحكمته وقدرته أصـــــناف المخلوقات ، وقدر منها ما قدره على أن يفعل أفعالا بخاصيته ويفعـــل هو فيه وبه ٠ وأما القول بتخصيص فعله تعالى بمخلوق واحد هو المعـــــلول الأول ولا يكون له فى غيره فعل ، فهو قول باطـــــل ، كما بطل القـــول باختصاص علمه تعالى بذاته دون غيره من الموجودات(٨) ٠

---

(٧) أبو البركات : المعتبر ، ج ٣ ، ص ١٦٤ ــ ١٦٥ ٠

(٨) أبو البركات : المعتبر ، ج ٣ ، ص ٢٠٤ ٠

وأما بخصوص ترتيب موجودات العالم السماوى ، فإنه فيما يخص ترتيب الأفلاك ، فالأولى فى النظر هو أن يوجد المحيط من الأفلاك قبـل المحاط ، وعالم الأزل قبل عالم الكون • وكذلك الملائكة الذين لهم عنايات خاصة بالجسمانيات المحسوسة ، يوجد الأقـدم للاقدم ، والأعلى للأعـلى ، والأعم للأعم ، والأخص للأخص ، على نسبة محدودة فى الوجود لا يحدها علمنا على التفصـيل ولا يحصيها عددا كما حـدها وعدها الفلاسـفة المشـاؤون ، والأقرب فى التحقيق هو وجـود كثرة كثيرة من الكواكب المحسـوسة وأفلاكها والذى نراه ونعـرفه منها أقل بكثير مما لا نراه ولا نعـرفه •

وما يقال فى الأفـلاك والكواكب من حيث الكثرة العددية يقـال فى الملائكة ، فيكون من الملائكة الروحانية ما يوازى عدد الكواكب المرئية وغير المرئية والأفلاك التى نعرفها والتى لا نعرفها ، بل إنه يزيد على ذلك حتى يكون بعدد أنواع الموجودات المحسوسة من الجماد والنبات والحيـوان ، فيـكون لكل نوع منها ملك هو حافظ الصـورة فى المـادة ، ومستبقى الأنواع بأشخاصها على طبائعهـا وكمالاتها وحالاتها المتشـابهة • وليس ما نقوله هنا بمظنون ، بل محقق معلوم ، فإن حافظ الصورة على اختلاف الأحوال بالقدم والوجود ، والزيادة والنقصان ، واحد لا محالة ، هو ملقن الأشخاص ومعلمها مالا تحتاج فيه الى تعلم من خواص طبائعها التى تجرى على شاكلتها الطبيعية فى أشخاص بعد أشخاص من غير تعليم ، كما ذكرنا فى أنواع النبات والحيـوان من الأشكال والألوان والخواص والقـوى والأفعال والمقادير وباقى الأحوال ، حافظها فى كل نوع على تبدل الأشخاص وتغيرها فى الأزمان ، هو واحد باق لا محالة غير متبدل ولا فاسد ، فالنظر يدلنا على وجود كثرة كثيرة من الروحانيات الملكية قد يعرفها بعضنا وقد لا يعرفها البعض الآخر(٩) •

ويتضح لنا مما قاله أبو البركات فى الأفـلاك والكواكب وكثرتها ، وكثرة الملائكة الروحانيين ووظائفهم أنه يخـالف مخالفة تامة ما قال به المشاؤون أمثال الفارابى وابن سينا ، حيث حصروا عدد موجودات العالم

---

(٩) أبو البركات : المعتبر ، جـ ٣ ، ص ١٦٥ ـ ١٦٧ •

العلوى أو عالم ما فوق فلك القمر في عشرة عقول وتسعة نفوس لتسعة أفلاك . وما ذلك إلا لأنهم تصوروا الموجودات ورتبوها ترتيبا طوليا نازلا من الأعلى الى ما دونه ثم أوقفوا الصدور أو الفيض عند العقل العاشر (الفعال) • أما أبو البركات فقد ضرب صفحا عن ذلك التصور والترتيب وقال بالخلق المستمر المتعدد طولا وعرضا ، وأن عدد موجودات العالم العلوى والسماوى لا يمكن أن يقع تحت حصر أو يعلمه انسان •

ومن جهة أخرى ، فإن حديث أبى البركات عن الملائكة واختصاص كل ملك منها بنوع من الموجودات السماوية ، والأرضية من الجمادات كالهواء والماء والرياح والجبال وما اليها ومن النبات والحيوان على اختلاف أنواعهما وكثرة أشخاص كل نوع ، أقول ان إثباته للملائكة وان كل ملك موكول بحفظ نوع من أنواع الموجودات ، وكل شخص من أشخاص الأنواع كذلك ، انما يقربه من التصور الدينى للملائكة الذين هم صنف من مخلوقات الله ، حيث تضمن هذا التصور أيضا أن الملائكة مجندون من قبل الله تعالى بحفظ موجودات العالمين السماوى والأرضى ، فبعضهم مسخر لعبادة الله تسبيحا وتمجيدا وحمدا ، وبعضهم مكلف بحفظ موجودات العالم العلوى وملائكة للجنة وملائكة للنار ، وآخرون لحفظ موجودات العالم الأرضى كما ذكرنا ، وفى ذلك كله ما يثبت عناية الله ورعايته للعالم وموجوداته إما بطريقة مباشرة أو بوساطة الملائكة •

ونشير هنا أن فيلسوفا إشراقيا جاء بعد أبى البركات ، هو شهاب الدين السهروردى قد أفاد كثيرا من هذه الأفكار والآراء والتصورات لأبى البركات ، وبنى عليها وبها نظريته فى الوجود النورانى والتى تمثل لب فلسفته الصوفيه الاشراقية •

واذ يثبت فيلسوفنا أبو البركات موجودات عالم السماوات والأرض ، فإنه لم يغفل عن إثبات صنف آخر من الموجودات التى هى مخلوقات لله تعالى وهم الجن •

والذى دفعنا الى ذكر رأى أبى البركات فى هذا الموضوع ، هو أن السابقين عليه من مفكرى الاسلام لم يهتموا ببحث هذا الموضوع بنفس

درجة اهتمامه به اللهم إلا الامام الغزالى فى بعض رسائله • ومن جهة أخرى ، فإن قضية وجود الجن أو عدم وجودهم قضية تثار أحيانا كثيرة بين المفكرين الدينيين وعلماء الدين وبين غيرهم من العلماء والفلاسفة فيما عدا افلاطون ومن شايعه حيث أثبتوا وجود الجن • والرأى السائد عند هؤلاء العلماء هو إنكار وجود الجن كصنف من موجودات العالم ، وعلى عكس ذلك ، الرأى السائد بين علماء الدين ورجاله • ونجد فيلسوفنا أبو البركات يعقد لبحث هذا الموضوع فصلا قائما برأسه فى الجزء الثانى من كتابه « المعتبر » وهو الجزء الخاص بالفلسفة الطبيعية ، ولذلك يضع هذا البحث فى نهاية بحثه للحيوان وقبل دراسته للنفس الانسانية •

ويصرح أبو البركات بأنه كان قد اعتنق رأيا مؤداه إنكار وجود الجن ، وعلى ذلك انتقد آراء الذين أثبتوا وجودهم وخاصة أفلاطون وتابعيه فى هذا الموضوع • غير أنه عاد فتراجع عن هذا الرأى ، حيث قال بأن التأمل والنظر المستقصى أدى به الى القول بوجود الجن وأنهم نفوس مجردة تحل فى أرواح بخارية هوائية لطيفة كما أن النفس الانسانية مجردة روحانية تحل فى الروح الحيوانى الذى هو بخار لطيف فى بدن الانسان •

ويذكر أبو البركات أن الذين أثبتوا وجود الجن ثلاث فرق :

أولاها : يعتمد أصحابها على ما ورد به الوحى والأنبياء من إخبار بوجودهم وأنهم أشخاص موجودون لا تدركهم أبصارنا فى معظم الأوقات • وأنها أرواح تتشكل بأشكال وألوان وخلق وأقدار محدودة وصور معروفة • وأنهم يتبوؤن الفضاء من ظواهر الأرض وبواطنها ، ولهم معارف تزيد على معرفتنا خصوصا فى الغيب وسابق العلم • ولهم قدرة على أفعال يعجز عنها البشر وأنهم يسمعون ويفقهون ويبصرون ويفهمون وينطقون بلغاتنا وغيرها ويناجى بعضهم بعضا ، ويناجون أرواحنا فى نومنا ويقظتنا ، فيخبرون وينذرون ويبشرون ويحذرون ، ومنهم مؤمنون وكافرون •

ويعلق أبو البركات على مذهب هذا الفريق بقوله ان ما جاء به الوحى والأنبياء هو من المقبولات التى لا نتعرض لردها ولا نعارض فيها(١٠) •

---

(١٠) أبو البركات ، المعتبر ، جـ ٢ ، ص ٢٩٠ •

وأما الفرقة الثانية : فيعتمد أصحابها على ما قال به أهل النظر والحكمة وخاصة أفلاطون وأشياعه • فقد أثبت أفلاطون وجود الجن استنادا الى القسمة العقلية المنطقية الحاصرة لأصناف الحيوان فقال بأن من الحيوان : حيوانا ناطقا غير مائت وهم الملائكة وسكان السموات ، وحيوانا ناطقا مائتا وهو الانسان • وحيوانا مائتا غير ناطق هم السباع والبهائم ونحوها ، وحيوانا غير ناطق وغير مائت وهم الجن •

ويعلق أبو البركات على هذا المذهب بقوله إن ما توجبه القسمة المنطقية فى الأذهان لا يلزم وجوده بالضرورة فى الأعيان •

وأما الفرقة الثالثة ، فإن رجالها يستندون فى إثبات وجود الجن والأرواح الى المشاهدة والرؤيا والأخبار الموثوق بها عنهما • ومع هؤلاء قوم من الحكماء الذين يقولون بالعزائم والرقى والتنجيم والرؤيا • وينسب رجال هذه الفرقة الى الجن ما ورد به الوحى والأنبياء ويزيدون على ذلك بقولهم ان الجن يدخلون فى أبدان الناس ويتصرفون فيها تصرف الأرواح التى خلقت لها ، ويقهرون نفوسهم ، ويخبرونهم بأشياء ، وينفعونهم ويضرونهم ، ويمرضون الأبدان ويشفونها •

ويعلق فيلسوفنا على مذهب هؤلاء بقوله ان الحكم فيما قال به المشاهدون والمخبرون ، كالحكم فى غيره من الأخبار التى يعول فيها على المخبرين فى كثرتهم وأمانتهم وانتقادهم ، ومدى اتفاق كلمتهم واتساق روايتهم والثقة بهم تكون بحسب ذلك ، معتقدة ومظنونة ظنا قويا وضعيفا(١١) •

ثم يعرض أبو البركات رأيه النهائى فى المسألة ، وهو إمكان وجود الجن كنفوس مجردة روحانية حالة فى أرواح بخارية لطيفة ، وأن التغير والتبدل والتشكل بالأشكال والصور إنما يكون لهذه الأرواح • وهذه الأرواح متصرفة متجددة ، متغيرة متبدلة ، لا تبقى أبدا على حال واحدة ، ويكون لها ذلك من حيث هى هوائية بخارية ، أما نفس الجنى فواحدة ثابتة لا تتغير ، وهى هويته وحقيقته • والحال فى نفوس الجن وأرواحها ،

---

(١١) أبو البركات : المعتبر ، جـ ٢ ، ص ٢٩١ •

كالحال في النفوس الانسانية ومحالها التي هي أرواح بخارية لطيفة في الأبدان • فالروح الحيواني الذى في البدن الواحد ، لا يبقى زمانا بشخصه الواحد بعينه ، بل يتحلل ويتبدد بوجوده ، ويستمد بدلا يخلف ما يتحلل ويتبدد ، بالاستنشاق من الهواء ومزجه بما يتصعد اليه من لطيف الأخلاط ، فلا يبقى كذلك بغير ذلك ، فهو يستحيل ويفسد ويتجدد بالهواء والأخلاط والرطوبة والحرارة والأبخرة المتجددة ، فهو دائم التلاشي والاستبدال ، وانما الواحد الثابت فينا ، مع اختلاف ما يختلف واستبدال ما يستبدل ، هو النفس لا الروح التي هي محلها • وكذلك في الجن فإن نفس الواحد منها ثابتة واحدة لا تتغير ولا تتبدل ، وانما يتغير ويتبدل روحه التي هي محل لهذه النفس •

وكذلك يثبت فيلسوفنا امكان اتصال الجن بنفوس البشر وإعلامهم بإخبار ومعلومات في صورة رؤى ومنامات يجدها الانسان محققة في الواقع في يقظته • وكما ان الانسان مايرى في منامه ما يعرفه ويجده بما ينذره ويحذره ويبشره من علم ما سيكون قبل كونه ، ثم تصدق رؤياه في الوجود والحاضر واللاحق ، شهادة يبطل بها الشك والارتياب ، فيعلم أن ذلك الاخبار والاعلام والتعريف من مخبر عالم عارف ، ويتيقن من أن ذلك لم يأته من شخص من الناس في اليقظة ، فكذلك يمكن لنفوس الجن أن تتصل بنفوس بعض الناس بهذه الصورة وعن هذا السبيل(١٢) •

ونلاحظ أن آراء أبي البركات في الجن ، تتفق الى حد كبير مع وجهة النظر الدينية وما جاء به الوحي والأنبياء بخصوصهم • ذلك أن في القرآن الكريم عشرات الآيات التي تتحدث عن الجن ومن هذه الآيات ما يحمل دلالة صريحة على أن الجن صنف من مخلوقات الله تعالى لهم وجود حقيقي • ويبدو ذلك واضحا في قوله تعالى : « ••• **وجعلوا لله شركاء ، الجن ، وخلقهم** » (الأنعام : ١٠٠) ، وقوله سبحانه : « **وما خلقت الجن والانس إلا ليعبدون** » (الذاريات : ٥٦) ،بل انهم أمم أمثالنا « **وحق عليهم القول**

---

(١٢) أبو البركات : « المعتبر » ، جـ ٢ ، ص ٢٩٢ — ٢٩٣ — ، ص ٢٩٤ — ٢٩٦ •

فى أمم قد خلت من قبلهم من الجن والانس » (فصلت : ٢٥) . ومن الآيات ما يحمل دلالة صريحة على أن للجن قدرات على إتيان بعض الأفعال والأعمال ، والفعل فى ذاته يحمل دلالة على وجود الفاعل لا ريب . ويظهر ذلك فى قوله تعالى : **« وحشرنا لسليمان جنوده من الجن والانس والطير فهم يوزعون »** (النمل : ١٧) ، فهم يأتمرون بأوامره وينفذون ما يريده منهم . وكذلك ما كان من تسخير داود عليه السلام للجن حيث يصنعون له المحاريب والتماثيل والقدور وغيرها ، وفى ذلك يقول تعالى : **« ... ومن الجن من يعمل بين يديه بإذن ربه ، ومن يزغ منهم عن أمرنا نذقه من عذاب السعير . يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب وقدور راسيات »** (سبأ : ١٢ — ١٣) . ومن الجن من يأتى بأفعال خارقة للعادة . ويبدو ذلك فى قوله تعالى فى قصة سليمان النبى وملكة سبأ ، عندما أراد سليمان عليه السلام أن يكون عرش سبأ ماثلا بين يديه : **« قال يا أيها الملأ أيكم يأتينى بعرشها قبل أن يأتونى مسلمين . قال عفريت من الجن أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك وإنى عليه لقوى أمين »** (النمل : ٣٨ ، ٣٩) .

وفى القرآن آيات تفيد أن الجن يعقلون ويسمعون ويبصرون ويخاطب بعضهم بعضا ، ومن ثم يعلمون بعض المعلومات . ويبدو ذلك واضحا فى قوله تعالى لنبيه محمد ﷺ : **« وإذ صرفنا اليك نفرا من الجن يستمعون القرآن . فلما حضروه قالوا أنصتوا ، فلما قضى ولوا الى قومهم منذرين . قالوا يا قومنا إنا سمعنا كتابا أنزل من بعد موسى مصدقا لما بين يديه ، يهدى إلى الحق وإلى صراط مستقيم . يا قومنا أجيبوا داعى الله وآمنوا به ، يغفر لكم ذنوبكم ويجركم من عذاب أليم »** (الأحقاف : ٢٩ — ٣١) . وأوضح من ذلك دلالة ما تشير اليه بعض الآيات من أن من الجن أقواما مؤمنين صالحين ، وآخرين كافرين أشرار ، ومن ثم فهم يعلمون الحق والباطل فى الاعتقاد ، والصواب والخطأ ، والخير والشر فى الأفعال ، ويبدو ذلك فى قوله تعالى : **« قل أوحى الى أنه استمع نفر من الجن فقالوا إنا سمعنا قرآنا عجبا ، يهدى الى الرشد فآمنا به ، ولن نشرك بربنا أحدا .**

وانه تعالى جد ربنا ما اتخذ صاحبة ولا ولدا . وانه كان يقول سفيهنا على الله شططا » (الجن : ١ ـ ٤) . وقوله تعالى بلسانهم : « **وانا منا الصالحون ومنا دون ذلك ، كنا طرائق قددا** » (الجن : ١١) و « **وانا منا المسلمون ومنا القاسطون ، فمن أسلم فاولئك تحروا رشدا . وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطبا** » (الجن : ١٤ ـ ١٥) .

وأما الزعم بأن الجن يعلمون الغيب فهو زعم باطل ، بدليل قوله تعالى عنهم حين أرهقهم سيدنا داود عليه السلام بالعمل الشاق ، ومات أثناء وقوفه رقيبا عليهم متكئا على عصاه وهم لا يعلمون بموته : « **فلما خر تبينت الجن ان لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا فى العذاب المهين** » .

ويوم القيامة يحشر الجن مع من يحشر من مخلوقات الله ، ويحاسبون ويكون مصير المؤمنين الصالحين منهم نعيم الجنة ، ومصير الكافرين الأشرار عذاب النار . ونورد هنا آية توضح هذا المعنى كما تشير الى تاثير كفارهم وأشرارهم فى نفوس بعض البشر بالغواية والاضلال وانظر فى ذلك قول الحق تبارك وتعالى : « **ويوم نحشرهم جميعا ، يا معشر الجن قد استكثرتم من الانس وقال أولياؤهم من الانس ربنا استمتع بعضنا ببعض وبلغنا أجلنا الذى أجلت لنا ، قال النار مثواكم خالدين فيها إلا ما شاء الله ان ربك حكيم عليم** » (الأنعام : ١٢٨) .

وعلى رأس الكافرين العصاة من الجن يقف إبليس وهو زعيمهم . ويتحدث القرآن عن معصيته وخطيئته الكبرى فى آيات كثيرة حيث عصى أمر ربه فى السجود لآدم وان كان قدم مبررات لعدم الاذعان للأمر الالهى بالسجود حيث قال بأنه مخلوق من نار وآدم مخلوق من طين ، فكيف يسجد ذو العنصر الأشرف لذى العنصر الأخس . « **قال أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين** » و « **أأسجد لمن خلقت طينا** » (الاسراء : ٦٠) .

وقد أشار الشهرستانى الى معصية أبليس هذه واعتبرها خطيئة كبرى تشعبت عنها خطايا وشبهات سبعة كلها تمثل استفهامات إنكارية واعتراضات من جانب أبليس ، وأن الكفار من قوم نوح وهود وصالح وغيرهم من الأنبياء حتى محمد ﷺ ، قد نسجوا على منوال اللعين الأول فى

إظهار شبهاته ، وحاصلها يرجع الى رفع التكليف عن أنفسهم وجحد أصحاب الشرائع والتكاليف بأسرهم ، إذ لا فرق بين قول هؤلاء : « أبشر يهدوننا » (التغابن : ٦) وبين قول أبليس لله : « آأسجد لمن خلقت طينا » (الاسراء : ٦٠) .

ويرى الشهرستاني أن الشبهات التي أثارها أبليس كانت منبعا ومصدرا لظهور كثير من الفرق الضالة كالحلولية والتناسخية والمشبهة وغلاة الروافض ، والقدرية والجبرية والمجسمة(١٣) .

---

(١٣) الشهرستاني : الملل والنحل ، جـ ١ ، ص ١٤ ــ ١٩ ، ط الحلبي ، القاهرة ١٩٦٨م .

الباب الرابع

الخلود

ويشمل :

الفصل الأول : وجود النفس الانسانية

الفصل الثاني : خلود النفس

الفصل الأول

وجـود النفس الانسـانية

ويحتـوى :

اولا : تمهيـــد

ثانيا : براهين ابى البركات على وجود النفس

ثالثا : بواعثـه الى هذه البرهنة

رابعا : حـدوث النفس

١ ـ نقد برهان ابن سينا على حدوث النفس

٢ ـ برهان ابى البركات على حدوثها

٣ ـ تعقيـب

اولا – تمهيـــد :

الحديث عن وجود النفس وإثبات هـذا الوجود يحقق في نظـــرنا هدفين : أحدهما إثبات وجود الانسان بإعتباره خليفة الله فى الأرض وسيد موجوداتها وهو ما يتصل بمسألة « الوجود » بوجه عام • والثانى ، انه يعد مقدمة ضرورية لاثبات خلودها ، فكأن الحديث عن وجود النفس يتصـــل بموضوع بحثنا من طرفيـه الوجود والخلود • وعلى هـــذا ، فسوف نقصر حديثنا في هذا الفصل على قدر يتضـح به موقف أبى البركات من وجـود النفس وبراهينه عليه ثم نتبعه بالفصل الثانى حيث نعـــرض لموقفه من الخلود •

وقبل أن نعرض لبراهينه على وجود النفس ، يجدر بنا أن نعـــرض للتراث الذى كان بين يديه خاصا بهذه المسألة • لقد كان أمامه تراث علمى خصيب متنوع ، فكان منه ما هو ديني وما هو كلامى ، ومنه ما هو صوفى ، وما هو فلسفى ، ولا شك فى أن أبا البركات قد تمثل هذا التراث بوعى تام وفهم عميق ، وسوف نرى عند استعراض براهينه على وجود النفس الى أى مدى أفاد من هذا التراث وتأثر به •

١ – أما التراث الدينى ، فيتمثل بصفة خاصـة فيما ورد بالقـرآن من آيات كثيرة ذات دلالات صريحة على وجود النفس الانســانية التى هى جوهر الانسان وذاته وما هيته ، وأنها تختلف عن البدن من حيث طبيعتها وافعالها • ويظهر لنا ذلك واضحا جليا في قوله تعـــالى : « **ولقـد خلقنـا الانسان ونعلم ما توسوس به نفسه** » (سورة ق : ١٦) • وقوله سبحانه : « **واذكر ربك فى نفسك تضرعا وخيفة** » (الأعـراف : ٢٠٥) ، وقـــوله عز وجل : « **ونفس وما سـواها فألهمها فجـورها وتقـواها** » (الشمس : ٧ – ٨) • وايضـــا قوله سـبحانه : « **لا يكلف الله نفسـا إلا وسـعها** » (البقرة : ٢٨٦) • وقوله تعالى : « **يا أيتها النفس المطمئنة إرجعى الى ربك راضية مرضية** » (الفجر : ٢٧ – ٢٨) • ومعلوم عقـــلا أن المعـانى التى تضمنتها هذه الآيات من الوســـوسة والذكر والتضرع والالهام والتقـوى والفجور ، والتكليف والأمن والطمأنينة وما يشبه ذلك من احوال وأفعـال

لا يمكن أن تنسب الى بدن الانسان ، وإنما تنسب الى نفسه وذاته العاقلة ؛ فهى جوهر الانسان على الحقيقة • ولذلك ورد لفظ النفس فى معاجم اللغة العربية بمعنى عين الشىء وحقيقته(١) •

هـذا ، الى جانب عشرات الآيات الأخـــرى التى تلحق المســئولية الأخلاقية والدينية ، والجزاء الأخروى من ثواب وعقـــاب ، تلحقها جميعا بالنفس الانسانية ، مما يؤكد وجودها بدرجة لا تحتمل الشك •

٢ ـ وأما عن التراث الفلسفى الخاص بمسألة وجود النفس والذى آل الى أبى البركات فى عصره فيتمثل فى دراسات الفلاسفة الســـابقين عليه وخاصة إخوان الصفا وابن سينا والغزالى فى المشرق وابن حزم وابن باجه فى المغرب • وقد ترك هؤلاء جميعا تراثا خصيبا يضم كما هائلا متنـــوعا من الأدلة والبراهين التى أثبتـوا بها وجود النفس الانســـانية • فها هم إخوان الصفا يقدمون براهين وأدلة يســـتند بعضها الى الرؤى والمنـامات الصادقة التى يراها الأنبيـاء والرسل والصـــالحون وكذلك الوحى الذى يتنزل على الأنبياء والرسل خاصة ، ورأوا أن هذه أمور تثبت وجود النفس فى الانسان كعنصر مغاير للبدن وحواسه ، يتلقى هذه الرؤى وتعاليم الوحى السماوى(٢) • وبعض أدلتهم الأخرى يقوم على أساس أن النفس حية بذاتها وأنها أصل الحياة فى كل ما هو حى ، وهى فى الانســـان خاصـة تقوم بانتزاع صور المحسوسات من هيولاها وموادها ، وتدرك المعقولات المجردة ، وتدرك الزمان الماضى ، وتحدس بالمستقبل ، وتتصـــور ما يمكن أن يقـــع فيه قبل أن يقع(٣) • ويلاحظ أن أدلتهم جميعا تجمع فى أصولها بين وجهة النظر الدينية ووجهة النظر الفلسفية التى نجدها بصفة خاصة لدى كل من أفلاطون والفيثاغوريين •

---

(١) انظر محمد بن أبى بكر الرازى : مختار الصحاح ص ٦٧٢ ط ٩ ، الفيروز آبادى : القاموس المحيط جـ ٢ ، ص ٢٥٥ •

(٢) رسائل اخوان الصفا ، الرسالة الرابعة ، ص ١٥٧ ، ط مصر ، ١٩٢٨م •

(٣) اخوان الصفا : رسالة جامعة الجامعة ، ص ٦١ ، ٧ ، ٧٣ ، تحقيق عارف تامر ، بيروت ١٩٥٩م •

وها هو ابن سينا يقدم لنا أكثر من برهان لاثبات وجود النفس وجوهريتها فى الوقت نفسه(٤) . وكلها براهين تعتمد فى أساسها على الحس والاستدلال العقلى معا . وكان ابن سينا متأثرا فى بعض براهينه بأفلاطون وافلوطين وإخوان الصفا ، فيما عدا دليل واحد كان من إبداع المخيلة السينوية وهو برهان الرجل الطائر أو الانسان المعلق فى الفضاء(٥) . ويقدم ابن سينا الى جانب هذا البرهان ، برهانا يسمى بالبرهان الطبيعى السيكولوجى يعتمد فيه على فكرة الحركة الارادية الاختيارية التى تصدر عن الانسان(٦) . وله أيضا برهان الاستمرار الذى يستند فيه الى فكرة أن هوية الانسان وذاته ثابتة فى الزمان لا تتغير مهما طرأ على بدنه وأعضائه من تبدلات وتغيرات بالزيادة والنقصان طوال سنوات عمره(٧) . هذا الى جانب برهان الأنا ووحدة الظواهر النفسية ، ويقوم على أساس أن ما يشير اليه كل انسان منا فى افعاله وأحواله ومخاطباته بقوله « أنا » إنما يقصد بها ذاته ونفسه(٨) .

وأما الغزالى ، فقد قدم هو الآخر براهين كثيرة لاثبات وجود النفس(٩) . وقد أثبتنا فى بحث لنا أن الغزالى كان متأثرا فى براهينه هذه الى حد كبير ببراهين ابن سينا ، الى جانب ما أضاف اليها من براهين

---

(٤) د. عاطف العراقى : مذاهب فلاسفة المشرق . ص ٢١٨ ، ط ٦ ، القاهرة ١٩٦٨م .
(٥) انظر كتابنا : النفس وخلودها عند فخر الدين الرازى ، ص ٤١ - ٤٢ ، ط ١ ، القاهرة ١٩٨٩م .
(٦) ابن سينا : الاشارات والتنبيهات ، القسم الطبيعى ، النمط ٣ ، ص ٣٢٥ - ٣٣٢ .
(٧) ابن سينا : رسالة فى معرفة النفس الناطقة وأحوالها ، ص ٩ ، تحقيق ثابت الفندى ط ٢ .
(٨) ابن سينا : التعليقات ، ص ٧٩ ، ١٦١ تحقيق د. عبد الرحمن بدوى ، القاهرة ١٩٧٣م .
(٩) الغزالى : معارج القدس ، ص ١٨ - ٢٧ ، ص ٥ - ٥٩ .

من عنده وخاصة ما يسمى بالبرهان الشرعى(١٠) .

أما فلاسفة المغرب السابقون على أبى البركات أو المعاصرون له ، فإنهم بذلوا جهدا كبيرا أيضا فى البرهنة على وجود النفس الانسانية . فها هو ابن حزم . الفيلسوف الظاهرى ، يقدم لنا ثلاثة أدلة ، منها اثنان عقليان ، والثالث دليل نقلى أو شرعى . أما دليله الأول فيؤلفه من فكرة « الأنا ووحدة الظواهر النفسية » وفكرة استمرار هوية الانسان وثباتها فى الزمان رغم تبدل الجسم وأعضائه . وأما دليله الثانى فيكاد يكون نفس دليل اخوان الصفا الذى يستند الى فكرة الرؤى والمنامات وأنها لا تنسب الى البدن بل الى النفس فى الانسان(١١) . وأما دليله الشرعى فيستند فيه الى قول الله تعالى : **« ولو ترى إذ الظالمون فى غمرات الموت ، والملائكة باسطوا أيديهم اخرجوا انفسكم ، اليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تقولون على الله غير الحق »** (سورة الأنعام : ٩٣) . ويرى ابن حزم أن الأمر والخطاب فى الآية موجه الى شىء موجود فى الانسان هو النفس .

أما ابن باجه (ت ٥٣٣ هـ) وقد عاصر أبا البركات زمنا على ما بينهما من بعد المسافة بين المشرق والمغرب ، فقد قدم لنا أيضا دليلين لاثبات وجود النفس . كان فيهما متأثرا بابن سينا ، أحدهما يستند الى فكرة ثبات الهوية فى الزمان ، والثانى يعتمد على فكرة الرجل الطائر عند ابن سينا(١٢) .

كان بين يدى أبى البركات هذا التراث الفلسفى الاسلامى وذاك التراث الدينى ، وكان بين يديه أيضا تراث أجنبى تمثل فى بعض الأفكار لأفلاطون وأرسطو وأفلوطين . وأقول بعض الأفكار لأننا لا نجد لدى هؤلاء اهتماما يذكر بالبرهنة على وجود النفس ، وان كان كل منهم قد

---

(١٠) انظر كتابنا : الآثار السينوية فى مذهب الغزالى فى النفس الانسانية ص ٤٢ - ٥٢ ، القاهرة ١٩٩١م .

(١١) ابن حزم : الفصل فى الملل والنحل ، جـ ٥ ، ص ٧٤ - ٧٥ ، القاهرة ١٣١٧ هـ .

(١٢) ابن باجه : النفس ، ص ٣٦ تحقيق محمد صغير المعصومى ، دمشق ١٣٧٩ هـ ، رسالة الاتصال ص ١٠٤ تحقيق د. أحمد فؤاد الأهوانى .

أفاض فى إثبات ماهية النفس المجردة وخلودها ، وخاصة أفلاطون الذى خصص محاورة بكاملها لبحث خلود النفس والبرهنة عليه ، هى محاورة « فيدون » ٠

ثانيا ـ براهين أبى البركات على وجود النفس :

يمهد أبو البركات لبراهينه على وجود النفس الانسانية ، بأن يوضح لنا أن مفهوم النفس والذات والحقيقة هى بمعنى واحد فى كل شيء وكذلك بالنسبة للانسان ٠ فعندما أقول نفسى ، فإنما أعنى ذاتى وهويتى وحقيقتى التى أعبر عنها جميعا بقولى « أنا » ٠ فنفس أى شيء هى ذاته وحقيقته ٠ ونلاحظ أنه لا يقدم براهينه على وجود النفس بطريقة مباشرة ، فقد كان بخلاف ابن سينا والغزالى ، أكثر ميلا الى العزوف عن تقديم براهين عقلية مباشرة على وجود النفس ، وإنما يشير اليها بطرف خفى ويثبتها فى آرائه وأفكاره المتصلة بدراسته للنفس بوجه عام ٠ ومن ثم لقد كان هناك صعوبة ما فى استخلاص أدلته وبراهينه هذه ٠ ولعل أهمها التى أمكن استخلاصها والوقوف عليها ، تتمثل فيما يلى :

١ ـ برهان البداهة والشعور الأولى :

ويستند هذا البرهان الى فكرة شعور كل إنسان بنفسه وذاته شعورا بديهيا أوليا ينتفى معه كل شك فى وجود هذه النفس أو الذات ، ويكون التعبير الظاهرى عن هذه الحقيقة اليقينية المشعور بها ، من خلال تعامله ومفاوضاته مع الآخرين ٠ ذلك أن كل انسان يستعمل فى مفاوضاته مع الآخرين لفظة « أنا » أو الضمائر الدالة عليها ٠ وليس يعنى أحد بلفظه مالا يتصوره ويفهمه بذهنه ٠ فما من أحد يقول نفسى ونفسك فى مفاوضاته ويشير به إلا الى ذاته وحقيقته ، فإنه يقول فرحت نفسى وتألمت نفسك ، ولا فرق عنده بين ذلك وبين أن يقول فرحت وتألمت ٠ وكذلك يقول علمت نفسى وجهلت كما يقول علمت وجهلت ، بل لا فرق عنده بين أن يقول نفسى وذاتى وبين أن يقول أنا ٠ وما من أحد يعتقد أنه شيء ونفسه شيء آخر ، فإنه إذا قال تألمت نفسى ليس يعتقد أن المتألم أحد

آخـر غيره إذا راجع فكره أدنى مراجعة وحقق تصور ما يقوله • فحقيق أن يكون هـذا هو المفهـوم الأول من لفظـة النفس ، وهي بحسـب هـذا المفهـوم عند كل متلفظ بهـذا اللفظ بينة الوجود فليس أحـد من النـاس محتاجا في اثبات وجود نفسه الى حجة ، فمن هو الذى يشك في أنه موجود حتى يبين له ذلك بحجة ، وكيف ولا شيء عنـده أبين من وجـود ذاته • فانا إذن موجود كنفس وكذات ، وأدرك بهذه البداهة الشعورية كونى كذلك • ومعنى هذا أن النفس أو « الأنا » تشهد بذاتها على وجـود ذاتها دون أن تشعر بأدنى درجة من التزييف في هذه الشهادة(١٣) •

ونلاحظ أن هذا البرهان لأبى البركات يعتمد على فكرتين أساسيتين : إحداهما سيكولوجية هي فكرة الشـعور الأولى البـكر الذى به يشـعر الانسان بوجود نفسـه وذاته ، شـعورا نفسيا باطنيا عميقا لا يشـاركه فيه سواه • والثانية هي وعى الانسـان الدائم بوجـوده دون أن يحتـاج للتحقق من هذا الوعى عنده الى حجة أو برهان ، ويكون تعبير الانسـان عن حقيقة هـذا الشـعور وذلك الوعى وموضوعهما ، من خلال مفاوضـاته وأحاديثه مع الآخرين بما ينسبه الى ذاته ونفسـه من أفعـال وأحـوال في الماضي والحاضر والمستقبل •

ومن جهة أخرى ، فقـد كان أكثر الناس تأثرا بدليـل أبى البركات هـذا ، فخـر الدين الرازى فيلسـوف الأشـاعرة ، فقد أخـذ بافـكار أبى البركات فوسـعها وهذبهـا وبنى بها وعليها برهانا مماثلا لاثبـات وجود النفس ، ودفع كل ما يمكن أن يثار من اعتراضات على هذا البرهان ، ليكون حقيقا بإثبات ما وضعه لاثباته وهو وجود النفس(١٤) •

---

(١٣) أبو البركات ، المعتبر ، جـ ٣ ، ص ٣٠٠ ـ ٣٠١ •

(١٤) انظر الفخر الرازى : الأربعـون في أصـول الدين ص ٢٦٤ ، المبـاحث المشرقية جـ ٢ ، ص ٢٣٤ ، المطالب العالية ص ٦٣٧ مخطـوط برقم ١٩٨٣ علم كلام بدار الكتب المصرية •

٢ ـ برهان إدراك النفس لذاتها دائما :

هـذا البرهان يقـوم على أسـاس أن النفس تدرك ذاتهـا ووجـودها إدراكا مباشرا ، وهذا الادراك حاضر عندها لا يغيب عنها أبدا سـواء في حـالة إدراكها لكل مدرك سـواها ، وفي كل فعل تفعله ، أو في حـالة تخليها عن كل مـدرك حسي أو عقلي • ويختلف هـذا البرهان عن البرهان السابق ، في أن هذا البرهان يستند الى فعل الادراك الذى هو فعـل عقـلي خالص • من حيث تدرك النفس ذاتهـا ووجـودها مع كل إدراك آخـر لمدرك سـواها ، وحتى اذا تخلت عن كل مدرك آخر أيا ما كان نوعه ، أما البرهان السابق فيقوم على أساس الشعور البديهي الاولى ، وفرق كبير بين الادراك العقلي والشعور ، فهذا أمر نفسي وجداني ، وذاك ذهني عقلي •

ويشير أبو البركات الى هـذا البرهان بقوله بأن معرفة الانسـان بنفسه التي هي ذاته وحقيقته ، ووجودها ، أسبق وأقدم من معـرفته بكل ما يعرفه ، وهذه المعرفة أشد يقينا عنده من كل ما سواها من المعـارف والمدركات « فإنك لو فرضت إنسانا خلا بنفسـه عن كل مرئي ومسـموع ومدرك من المدركات الحسـية أو العقلية ، لقـد كان إدراكه وشـعوره بنفسه له موجودا وعنده حاضرا لا يغيب عنه » بل إنه في كل فعل يفعـله الانسان يكون واعيا بذاته مدركا لوجودها ويدل بلفظه عليها مع دلالته على الفعل حيث يقول : فعلت كذا وصنعت كذا وفهمت كذا ، وهو بهـذا يدل على ذاته • ومن ذلك يترقى في الدلالة على معـرفة ذات من يخـاطبه ، فشعور الانسان بنفسه وإدراكه ووعيه لذاته يتقـدم على شـعوره بغـيره وإدراكه له ، لكن معرفته التامة بها تتأخر عن معرفته بأكثر الأشياء(١٥) •

ومن اليسـير علينا ملاحظـة أن أبا البركات قد ضمن هـذا البرهان نفس الفكرة التي أقام عليها ابن سـينا من قبل أحد براهينه على وجـود النفس وهو برهان الرجل الطـائر أو الانسـان المعلق في الفضاء ، وهـو نفس البرهان الذى أخـذ به الغـزالي متابعا فيه ابن سـينا • والبراهين الثلاثة تقوم على فكرة واحدة تقريبا هي أن ادراك الانسان لذاته ووجـوده

---

(١٥) أبو البركات : المعتبر ، جـ ٣ ، ص ٣٠٦ •

إنما هو ادراك حاضر له دائما مهما غفل عن ادراك كل شيء آخر حتى جسمه وأعضائه ، مما يدل على أن الذات التي هي النفس موجودة وأنها شيء غير هذا البدن(١٦) • غير أن أبا البركات يضيف الى هذه الفكرة فكرة أخرى حيث يقول بأن إدراك الانسان لذاته ونفسه لا يكون في حالة غفلته عن كل مدرك فحسب ، بل هو ادراك يصاحبه في كل فعل يفعله وعند إدراك أي شيء آخر يدركه ، وأنه عندما يقول فعلت وصنعت فإنما يدل على ذاته الفاعلة مع دلالته على الفعل والمفعول •

٣ - برهان ثبات الهوية في الزمان :

هذا البرهان لأبي البركات يثبت وجود النفس ومغايرتها للبدن معا • ويعتمد على التأمل الذاتي والتذكر • ويقوم على أساس أن حقيقة الانسان وجوهره لا تتمثل في هذا البدن الذي يعتريه التغير والتبدل بالزيادة والنقصان طوال سنوات عمره ، حيث يكون جسمه صغيرا وهزيلا حينا وكبيرا وسمينا حينا آخر ، وتبقى هوية الانسان ثابتة حيث يظل هو هو رغم التغير والتبدل المتجدد المستمر الطارىء على بدنه ، فثبات هويته لا شك يرجع الى وجود شيء آخر ثابت لا يتغير هو النفس التي هي جوهر ثابت مدى سنوات العمر •

ويشير أبو البركات الى هذا البرهان قائلا بأنه اذا ارتقى الانسان في معرفته قليلا ، عرف بدليل النظر أولا فأولا من نفسه معرفة بعد معرفة ، فأول ذلك حيث يرى جسمه صغيرا وكبيرا ، مهزولا وسمينا ، ويرى أنه هو هو في كلتى الحالتين ، فيعلم أن نفسه غير جسمه الذي يرى ، ثم قد يقطع منه عضو ، ويعلم مع ذلك أنه هو هو ، فيعلم أن العضو المقطوع ليس من جملة هويته وذاته التي يشعر بها ، ويقيس على مثله في كل عضو أيضا ، فإنه يجد مثل العضو الآخر عظما ولحما وعصبا وعرقا ،

---

(١٦) انظر ابن سينا : الشفاء ، الطبيعيات ، الفن ، مقالة ١ ، فصل ١ ، ص ١٣ ، وقارنه بالغزالي : معارج القدس ، ص ١٨ - ١٩ ، نفخ الروح والتسوية ، ص ٤٢ ؛

فيكون كل ما يعرفه من ذاته بعد ، الأنية المطلقة والهوية التي ما هيتها غير محققة بنظر علمي ودليل برهاني(١٧) .

وهذا البرهان أيضا يشبه برهان الاستمرار الذى نجده عند ابن سينا والذى نسج الغزالى على منواله برهانا على وجود النفس وجوهريتها ومغايرتها للبدن(١٨) . وكذلك نسج على منوال هؤلاء جميعا فخر الدين الرازى ه من بعد حيث قدم برهانا مماثلا وان كان يفوق فى تفاصيله ونسقه ما لدى سابقيه ، وان كانت النتيجة واحدة وهي أن البرهان يحقق اليقين الذاتى والموضوعي لوجود النفس الى جانب إثبات تغاير ماهيتها عن طبيعة البدن(١٩) .

٤ - برهان النفس مصدر جميع الأفعال والادراكات الانسانية :

يقيم أبو البركات هذا البرهان على فكرتين : إحداهما ، هى أن كل الأفعال والادراكات المختلفة الصادرة عن الانسان لابد لها من أصل ومبدأ ومصدر تصدر عنه بالضرورة ، وإنكار هذا الأصل أو المصدر إنكار لهذه الأفعال والادراكات وهو مالا يقول به عاقل . والفكرة الثانية هى أن هذا الأصل والمصدر واحد في الانسان هو ذاته ونفسه التى هى حقيقته وهويته ، واذن فالنفس موجودة .

ويعبر عن هذا البرهان بقوله إننا نشعر من أنفسنا شعورا محققا أن الواحد منا هو الذى يبصر ويسمع ، ويفكر ويتفكر ، ويذكر ويتذكر ، ويشتهى ويكره ، ويرضى ويغضب ، وأن ذاته وإنيته واحدة هى هى فى كل فعل ، لا غيرية فيها . فإذا قال المشاؤون وابن سينا خاصة بأن هذه الأفعال والادراكات المتكثرة والصادرة عن الانسان إنما تصدر عن قوى كثيرة فى البدن غير النفس ، فإن أبا البركات يرفض ذلك ويراه باطلا

---

(١٧) أبو البركات : المعتبر ، ج ٣ ، ص ٣٠٦ .

(١٨) انظر ابن سينا : رسالة فى القوى النفسانية ، ص ٧ - ٩ ، وقارن بالغزالى : معارج القدس ، ص ١٨ ، ص ٢٧ - ٢٨ .

(١٩) انظر كتابنا : النفس وخلودها عند فخر الدين الرازى ، ص ٨٣ - ٨٦ ، القاهرة ١٩٨٩م .

من حيث أن كل انسـان يشـعر شـعورا محققا ويدرك إدراكا يقينيا أنه بذاته الواحدة ونفسه هو فاعل هذه الأفعال جميعا ، وأنه يعبر عن كل فعـل بقوله أنا فعلت كذا ٠٠ ولا يمكن أن يكون الأنا هنا تعبيرا عن قوى كثيرة ، لأن الأعيان المتعددة لا وحدة لها فى أنفسها ، وشـيئان لا يكونان بالذات شيئا واحدا فالقول بوحدة الكثيرين والأغيار ، انما هو غفـلة من قائله ، وتجزيف فى قوله ، وغلط وتحريف فى تفهم ما يقال له ٠

وإذا كان ذلك كذلك ، فلا يمـكن أن تكون هـذه القـوى المتكثرة فى الشخص الواحـد منا ، هى ذاته الواحـدة التى يشـعر بها ، لأنه عـلى فرض وجـود هذه القـوى ، وذاتى واحدة ، فهى لا محالة تـكون إحـدى هذه القوى ٠ فإن كانت ذاتى هى إحدى هذه القوى ، وكانت هذه القـوة هى الفاعلة فالفاعل اذن غير ذاتى ٠ لأن القوة الباصرة مثلا ، اذا كانت هى التى تبصر وهى غـيرى ، أعنى غير نفسى وذاتى ، فغـيرى هو الذى أبصر لا أنا ، لكننى أشعر وأعرف وأعلم علما يقينيا صادقا أننى أبصر وأسمع وأقول وأفعل ٠ وان كانت القوة الباصرة تبصر وتنقل الى الشىء المبصر ، فأبصره بها وفيها ، فهى اذن مجرد آلة قابلة لا فاعلة ، فهى محل لابصارى وهيولى لا قوة فاعلة ٠ وكذلك الحال فى كل القوى الحسية الظاهرة والباطنة التى قالوا بها ، فيكون الباصر السامع العاقل المدرك الفاعل القـائل الذى أعرفه وأشـعر به على سـائر الأقسـام هو أنا ، أعنى نفسى التى هى ذاتى وهويتى ، وما سواها مما يقال له قوى ، إنما يكون إما حامل أو موصل ، كالعين والروح الباصرة التى فيها ، ولا يلزم تكثر الذوات الفعاله والقـوى التى قال بها المشاؤون(٢٠) ٠

وكان أبو البركات قد أبطـل مذهب ابن سـينا فى تكثر القـوى المدركة والفاعلة ، الظاهرة والباطنة فى الانسـان ، وأثبت أن النفس هى الفـاعلة المدركة بكل أنواع الادراكات والأفعال وأن هـذه القوى ليست

---

(٢٠) أبو البركات : المعتبر ، جـ ٢ ، ص ٣١٨ ــ ٣١٩ ٠

إلا آلات تستخدمها النفس فى تحقيق أفعالها وادراكاتها ، وان الفعل والادراك أيا ما كان ، إنما هو للنفس بالذات وعلى الحقيقة(٢١) .

ويدعم أبو البركات برهانه هذا ، بالاستدلال على وحدانية المبدأ والمصدر الذى يصدر عنه أفعال الانسان جميعا ، وانه هو النفس . ذلك انه من المعلوم أن الانسان يشعر مع شعوره بذاته آنها واحدة ولا يشعر من ذاته بكثرة البتة . فكل واحد يشعر بوحدة ذاته مع اختلاف أزمنته وحالاته ، وكل فعل ينسبه الى ذاته إنما ينسبه الى الذات التى يشعر مع شعوره بأفعاله أنها واحدة . وهذا أمر تتحققه من كل فعل ومع كل فعل تفعله وتشعر بأنك فعلته ، فتعلم من ذلك أن مبدأ هذه الأفعال فى شخصك واحد لا محالة هو أنت ، سواء كان ذلك الواحد الذى هو النفس يفعل هذه الأفعال بذاته وأولا ، أو يكون له فيها وسائط وآلات وأدوات بعد أن يكون مرجعها اليه وصدورها عنه ، ولا يشك انسان فى هذا ، فيما يشعر به من أفعاله . فثبت بهذا وجود مبدأ واحد ومصدر واحد لجميع ما يصدر عن الانسان من أفعال وادراكات ، هو النفس(٢٢) .

وقد حظى هذا البرهان باهتمام كبير من جانب أبى البركات ، ذلك أنه بعد أن يعرض له ، يدفع كل ما يمكن أن يثار ضده من اعتراضات ، ويبطل ما قد يثار بإزائه من شكوك . وأيا ما كان الأمر ، فإن هذا البرهان يثبت وجود النفس على أساس من أفعالها وأحوالها ، ويصل به أبو البركات ، الى اليقين الموضوعى بوجود النفس وهو ذلك اليقين الاستدلالى الذى يعتمد على مقدمات تلزم عنها نتائج تفضى الى المطلوب . كما يصل به الى اليقين الواقعى الذى يعتمد على موضوعات التجربة المعاشة ومعطيات الواقع الملموس .

ومما تجدر الاشارة اليه ، أن هذا البرهان لأبى البركات ، يختلف عن برهان « الأنا ووحدة الظواهر النفسية » عند ابن سينا . ذلك أن ابن سينا فى حديثه عن قوى الحس والادراك الظاهرة والباطنة ، قد نسب

(٢١) المصدر السابق ، ص ٣١٣ ـ ٣١٨ .
(٢٢) أبو البركات : المعتبر ، ج ٢ ، ص ٣١٩ .

الى كل قوة منها فعلا خاصا وادراكا خاصا بها ، وصور علاقة النفس بهذه القوى على أساس أن النفس توحد هذه الادراكات والأفعـــال وتجمع بينها وتنظمها وتنسقها لا غير(٢٣) • أما أن تكون النفس هى المدركة الفاعلة لمـا تفعله.وتدركه هذه القوى من جزئيـات محسوسة وجسمانيات بصـــورها المادية أيضا ، فلا ، لأن ابن ســـينا قصر مهمة النفس بذاتها عـلى إدراك المعقولات المجردة والكليات العقلية فقط ، وذلك استنادا الى أصل هام عنده هو أن القوة الواحدة لا يصدر عنها إلا فعل واحد •

أما أبو البركات ، فإنه يرفض هذه الآراء لابن سينا ، ويرجـــع كل فعـــل وادراك الى النفس بذاتها عـــلى الحقيقة • ويؤكد بأدلة وبراهـين - لا مجال لذكرها هنا - أن النفس الفاعلة لكل ما يصدر عن الانسان من أفعال ، وهى المدركة لجميع المدركات من الجزئيات والكليات ، والمجـردات والمحسوسات ، وأن هذه القـوى التى اعتبرها ابن ســـينا فعالة مدركة ، ليست إلا مجرد آلات وأدوات مختلفة تستخدمها النفس أحيانا فى تحقيـق بعض أفعالها وإدراكاتها • بل ان البدن كله آلة للنفس فى جملة أفعالها ، وواحدا واحدا من أجزائه من الأرواح الحيوانية والأعضاء ، لصنف صنف من أفعالها ، فإنك اذا نظرت ، وجدت أن بعض الأفعال تكون للنفس بذاتها ومن أجل ذاتها وان كان للبدن آلية فيها كالادراكات العقلية والمعارف المعنـوية الحكمية • وبعضها من أجل البدن وان كانت النفس هى الفاعلة لها ، مثـل التصرفات الغذائية ، والحركات الارادية فى طلبها • والهرب من المفسدات الطارئة على البدن • وبعض الأفعال الأخرى مشتركة بين النفس والبـدن ، لهما بجهة ، وله بجهة أخرى ، وهذا مثل الادراكات الحسية الظاهرة ، فإنها من حيث تفيد معرفة كمالية ، تختص بالنفس ، ومن حيث تطلب بها منافع البدن ودفع مضاره ، تختص به ، وهى نافعة فى هذا وذاك(٢٤) •

---

(٢٣) ابن سينا : الشفاء ، الطبيعيات ، الفن ٦ ، مقالة ٤ ، ص ١٤٥ - ١٥٠ ، الاشارات ، القسم الطبيعى ، النمط ٣ ، ص ٣٤٦ - ٣٥٧ •

(٢٤) أبو البركات : المعتبر ، جـ ٢ ، ص ٣٤٥ - ٣٤٨ •

تلك كانت أهم البراهين التي أشار اليها أبو البركات لاثبات وجود النفس ، وبثها في ثنايا دراسته للنفس ، والتي أمكن لنا استخلاصها من هذه الدراسة · وبعد أن يثبت وجود النفس ، نجده يشرع في دراسة ما هيتها ، فيعرض لمذاهب السابقين ويفندها ، ثم يثبت هو بادلة من عنده أن النفس ليست جسما من الأجسام ، ولا مما يتقوم بجسم ، وليست عرضا في البدن الذي قوامه بها ، ولا هي الروح الحيواني ولا الدم ولا المزاج وإنما هي جوهر قائم بنفسه مجرد روحاني ، ومع ذلك نجده يعرض لحجج القائلين بتجرد النفس وينتقدها واحدة بعد الأخرى ، ثم يعرض أدلته هو ليثبت مذهبه في تجرد النفس وجوهريتها وروحانيتها ·

ولا حاجة بنا الى استعراض آرائه في هذا المجال ، فذلك مما لا يتصل اتصالا وثيقا بموضوع دراستنا فيما نعتقد · وحسبنا أننا عرضنا لمذهبه في اثبات وجود النفس وبراهينه عليه لاتصال ذلك بقضية الوجود عنده ·

ثالثا - بواعث أبي البركات الى هذه البرهنة :

يمكن القول بانه كانت هناك عدة دوافع أو بواعث جعلت أبا البركات حريصا على الاشارة الى هذه البراهين التي اثبت بها وجود النفس، رغم أنه صرح في بداية دراسته لهذه المسألة بأن وجود النفس أمر بديهي لا يحتاج الى دليل أو برهان ·

وأهم هذه البواعث في نظرنا ما يلي :

١ - الباعث المنهجي :

ويتمثل في أن المنهج الفلسفي الدقيق يقتضي المفكر أن يبدأ بإثبات وجود الشيء ، إذا كان وجوده مما يعسر ادراكه على الأذهان والعقول ، قبل أن يشرع في بحث الأمور والمسائل المتصلة بهذا الشيء · ولما كان أبو البركات قد أهتم في فلسفته بدراسة النفس اهتماما فائقا يتجاوز في بعض نواحيه اهتمام فلاسفة الاسلام السابقين عليه ، مستخدما في ذلك منهج الاعتبار الذي يقوم على النظر العقلي الحر والتامل الذاتي، فقد كان

ولابد من أن يبدأ بالحديث عن وجود النفس والبرهنة عليه ، إذ ليس من المعقول الخوض في دراسة النفس دراسة مستفيضة تتحقق لنا بها معرفة تامة ، مالم يثبت لنا أولا وجودها .

صحيح أن أبا البركات قد صرح بأنه ليس أحد من الناس محتاجا في إثبات وجود نفسه الى حجة ، لأنه لا شيء عنده أبين من وجود نفسه وهو أمر بديهي ، لكنه ربما استدرك وعرف أن البعض قد يرفض الاعتراف بمثل هذه البديهيات الأولية ومن ثم فإنهم ينكرون وجود كل مالا يقوم عليه دليل قاطع وبرهان عقلي يثبت وجوده . وعلى ذلك راح فيلسوفنا يشير الى هذه البراهين ، يوجز القول في بعضها ، ويفصل القول في البعض الآخر . على ما أوضحناه .

ومما يتصل بهذا الباعث أيضا ، هو أن البرهنة على وجود النفس ، أصبحت كما أراد لها ابن سينا أن تكون ، عرفا فلسفيا أو نهجا لا غضاضة في أن يتبعه الفلاسفة طالما وجدوا أن في اتباعه إثراء لمذهبهم ودعما لآرائهم الأخرى التي يقولون بها في دراستهم للنفس . وقد اتبع أبو البركات هذا المنهج وان كان لم يفصح عن ذلك ولم يصرح به .

٢ ـ الباعث المذهبي :

ولهذا الباعث جانبان : أحدهما ، أن فيلسوفنا يقر بخلود النفس ، وأنها لا تفسد كما يفسد البدن بالموت . وأن لها مراتب وأحوالا في عالم الخلود وفقا لما حصلته من علم ومعرفة واعتقادات وعمل وأفعال ، على ما سنرى في موضعه من البحث ، فكأن برهنته على وجود النفس بمثابة توطئة أو مقدمة ضرورية لاثبات خلودها ، إذ ليس من المعقول ولا منطقيا أن تثبت خلود النفس مالم يثبت لنا وجودها أولا بالدليل والبرهان . والجانب الثاني ، هو أن أبا البركات قد أراد بهذه البراهين أن يدحض دعاوى بعض مفكري الاسلام السابقين عليه ، في إنكارهم وجود النفس أو اعتبارها جزءا من البدن ، أو قولهم بأن الانسان على الحقيقة هو هذا البدن المشاهد المحسوس لا غير . ومثل هذه الدعاوى تفضي بالضرورة الى إنكار خلودها ، وهو ما لا يتفق ومذهب أبي البركات في وجود النفس وخلودها . وأصحاب هذه الدعاوى هم بعض المتكلمين من المعتزلة أمثال

أبى الهزيل العلاف وابراهيم النظام وبشر بن المعتمر وأبى على الجبائى ، ومن الأشاعرة أمثال أبى الحسن الأشعرى وأبى بكر الباقلانى ، ومنهم أيضا السلفيون الذين يأخذون بظواهر النصوص الدينية ، وكذلك الفيلسوف الظاهرى ابن حزم(٢٥) ٠

٣ ـ الباعث الدينى :

ربما يقع فى ظن البعض أن فى الحديث عن باعث دينى عند أبى البركات هو من فاسد القول باعتبار أنه كان يهوديا ثم اسلم فى أواخر عمره ٠ لكننا ندحض هذا الظن ونبطله بما ذكرناه فى بداية بحثنا هذا من أن إسلامه لم يكن تقية من ضرر يلحق به ، ولم يكن كذلك مرغما عليه بتأثير سلطة سياسية أو دينية ، ولا كان اسلامه ظاهريا ، وانما كان اسلامه بإرادته الحرة وعن بحث ونظر مستفيض فى شريعة الاسلام وتعاليمه وأصوله أدى به فى النهاية الى اعتناقه طواعية ٠ وعلى هذا ، فليس من المستبعد فى نظرنا أن يكون قد برهن على وجود النفس اتساقا مع منهج الاعتبار الذى انتهجه فى بحوثه الفلسفية ، واتفاقا ودعما للحقائق الايمانية والموضوعية والعلمية التى ورد بها القرآن فى هذا المجال ، وهى تلك الحقائق التى تثبت وجود النفس الانسانية وكونها مناط التكليف ومحط المسئولية والجزاء ، هذا من ناحية ٠

ومن ناحية أخرى ، فإن الخلود أو المعاد بالمصطلح الدينى ، كحقيقة ثابتة مؤكدة ، لايمكن أن يستقيم مفهومه اذا اعتبر الانسان هو هذا الجسد فقط ٠ وقد أشرنا فى بداية هذا الفصل الى الآيات القرآنية ذات الدلالات الصريحة على وجود النفس فى الانسان ، وأن الأحوال النفسية والادراكات والاعتقادات والأفعال التى تصدر عن الانسان ، انما مصدرها جميعا هو النفس لا البدن ٠

---

(٢٥) انظر الأشعرى : مقالات الاسلاميين ، جـ ٢ ، ص ٢٦ ـ ٢٨ ، د٠ محمد أبو ريدة : ابراهيم النظام ص ٩٩ ، القاهرة ١٩٤٦م ، د٠ أحمد صبحى : فى علم الكلام ، جـ ١ ، ص ٢١١ ، ٢٧٢ ، ٢٩١ ، ابن حزم : الفصل ، جـ ٥ ، ص ٦٥ ، د٠ عبد الرحمن بدوى : مذاهب الاسلاميين ، جـ ١ ، ص ١٨٧ ٠

رابعا — حدوث النفس :

كان لمفكرى الاسلام وفلاسفته ، فيما يخص قدم النفس وحدوثها ، اتجاهان رئيسان :

الاتجاه الأول ، سار فيه القائلون بقدم النفس ، ومعظمهم من القائلين بأن النفس جوهر مجرد ليس بجسم ولا جسمانى • وأصحاب هذا الاتجاه شعبتان : إحداهما تضم القائلين بقدم النفس وأزليتها قدما مطلقا ويمثلهم الحرنانيون وأبو بكر بن زكريا الرازى ، والزنادقة وبعض الروافض • وهم متأثرون فى هذا المنحى بأفلاطون وبعض العقائد والديانات الشرقية القديمة • والشعبة الثانية ، تضم القائلين بقدم النفس قدما نسبيا ، بمعنى أن لها وجودا سابقا على تعلقها بالبدن ، لكنها مخلوقة لله تعالى ، ويمثل هؤلاء بعض المعتزلة مثل أحمد بن خابط وفضل الحدثى وأحمد بن بانوش ، وكذلك اخوان الصفا(٢٦) •

وأما الاتجاه الثانى ، فقد سار فيه القائلون بحدوث النفس • وهم يمثلون أغلبية مفكرى الاسلام وفلاسفته • وهم ثلاث شعب : الأولى ، قال أصحابها بأن النفس حدثت قبل حدوث البدن بمدة ، وهو مذهب الصوفيه وأهل الحديث والأثر وكثير من المتكلمين وابن حزم • والثانية ، قال أصحابها إن النفس تحدث بعد حدوث البدن بمدة ، ويمثلهم أبو حفص عمر السهروردى ثم ابن قيم الجوزية من بعد • أما الشعبة الثالثة ، فقد ذهب أصحابها الى أن النفس تحدث عند حدوث البدن أو مع حدوثه وتمام استعداده لتعلقها به ، لا قبل ذلك ولا بعده ، ويمثل هؤلاء جمهور فلاسفة الإسلام(٢٧) •

---

(٢٦) انظر الشهرستانى : الملل والنحل ، جـ ٢ ، ص ١٠٣ ، ١١٣ ، الفخر الرازى : المطالب العالية ، ص ٤٢٤ — ٤٢٦ مخطوط ، بينيس : مذهب الذرة عند المسلمين ، ص ٤٠ ، ٦٠ من الترجمة العربية •

(٢٧) انظر ابن سينا : النجاة ، ص ١٨٦ ، الغزالى : معارج القدس ، ص ٨٤ ، ٨٩ ، السهروردى : هياكل النور ، ص ٥٤ — ٥٦ ، ابن رشد : تهافت التهافت ، ص ٣٣ •

وسوف نرى أن فيلسوفنا أبا البركات كان من رجال هذه الشعبة ، متفقا فى ذلك مع سابقيه من الفلاسفة وخاصة ابن سينا والغزالى ، ومع لاحقيه منهم وخاصة السهروردى المقتول وابن رشد •

والذى تجدر الاشارة اليه ها هنا ، هو ان أبا البركات قبل أن يعرض مذهبه فى حدوث النفس ، يعرض كعادته لمذاهب السابقين عليه فى هذه المسألة ، فيعرض حجج القائلين بقدم النفس ويفندها جميعا ويبطلها ومن ثم يبطل القول بقدم النفس(٢٨) • ثم يعرض لأدلة وحجج القائلين بحدوثها وينتقدها أيضا لا لأنه يعتقد بخلاف ما يعتقدونه من حدوثها وإنما لأنه وجد أن هذه البراهين قاصرة عن اثبات ما وضعوها لاثباته وهو الحدوث(٢٩) ، ويركز نقده على دليل الحدوث لابن سينا ، وهو نفس الدليل الذى أخذ به الغزالى متابعا فيه ابن سينا متابعة تامة وان كان قد بذل جهدا فى دفع الشكوك والاعتراضات التى يمكن أن تثار ضد هذا الدليل(٣٠) •

وسوف نكتفى هنا بعرض دليل ابن سينا ، ونقد أبى البركات له ، ثم نعرض لدليل أبى البركات على حدوث النفس ونعلق عليه بما نراه •

١ ـ نقد برهان ابن سينا على حدوث النفس :

يتلخص برهان ابن سينا على حدوث النفس فى القول بأنه لو كانت النفس قديمة أى موجودة قبل تعلقها بالأبدان ، فإنها تكون فى القدم إما واحدة أو كثيرة ، وباطل كونها فى القدم ذاتا واحدة ، أو ذوات كثيرة قبل تعلقها بالأبدان ، واذن فوجودها قبل الأبدان محال ، فثبت نقيضه وهو أنها حادثة(٣١) • وواضح أن البرهان هو برهان الخلف أو إثبات خطأ النقيض •

ويستدل ابن سينا على صحة مقدمات برهانه ، بقوله أما بطلان كونها واحدة فى القدم قبل تعلقها بالأبدان ، فلأنها لو كانت كذلك ، فهى إما

---

(٢٨) انظر أبو البركات : المعتبر ، جـ ٢ ، ص ٣٧١ ـ ٣٧٥ •
(٢٩) المصدر السابق ص ٣٧٥ ـ ٣٧٦ •
(٣٠) انظر كتابنا : الآثار السينوية فى مذهب الغزالى ، ص ١٣١ ـ ١٤٥ ، القاهرة ١٩٩١م •
(٣١) ابن سينا : النجاة ص ١٨٣ •

تتكثر عند التعلق بالأبدان أو لا تتكثر ، ومحال أن تتكثر عند التعلق لأنها جوهر مجرد لا مادى وما هو كذلك لا يتكثر لأنه لا عظم له ولا حجم ولا مقدار . وان لم تتكثر ، كانت النفس الواحدة نفسا لكل بدن ، ولو كان كذلك ، لكان ما يعلمه انسان ما ، يعلمه كل انسان ، وما يجهله انسان ما كزيد يجهله كل انسان كعمر وغيره ، وهذا ظاهر البطلان . فقد ثبت بطلان النفس قبل التعلق بالبدن واحدة .

وأما بطلان كونها كثيرة فى القدم قبل التعلق بالأبدان ، فلأنها لو كانت كذلك ، فلابد أن تكون كل واحدة منها متميزة عن الأخرى مغايرة لها ، والتمايز يكون إما بالماهية والصورة ، أو بلوازمها وعوارضها التى تنسب الى قابل الماهية وهو البدن . وكل ذلك قبل التعلق محال . لأن النفوس الإنسانية متحدة بالنوع والماهية وصورتها واحدة ، فلا تتمايز اذن بهما . وتمايزها بالعوارض محال أيضا لأن العوارض تحدث بعد التعلق بالمادة التى هى البدن لا قبله ، فقبل التعلق لا مادة ولا بدن ، فلا عوارض . واذن فلا تمايز بينها فى القدم بأى وجه ، فبطلت كثرتها فى القدم قبل التعلق بالأبدان . وكذلك باطل كونها فى القدم متكثرة فى أبدان أخرى ، لأن هذا قول بالتناسخ ، والتناسخ باطل .

وإذ بطل كون النفوس واحدة أو كثيرة فى القدم قبل التعلق ، وهما الفرضان المذكوران المحصوران فى مقدمة البرهان ، فقد بطل كون النفس موجودة قبل البدن ، وثبت نقيضه وهو أنها حادثة ، تحدث عند حدوث البدن(٣٢) .

وينتقد أبو البركات هذا البرهان ، فيشكك فى مقدماته وينقض بعضها . ففيما يخص ما استند اليه ابن سينا فى بطلان كون النفس فى القدم واحدة ، من استحالة تجزئها وتكثرها عند التعلق بالأبدان ، لأن الواحد المجرد لا ينقسم ولا يتجزأ ، نجد أبا البركات يشكك فى هذه المقدمة

---

(٣٢) انظر ابن سينا : الشفاء ، الطبيعيات ، الفن ٦ ، مقالة ٥ ، فصل ٣ ، ص ١٩٨ — ٢٠٠ ، النجاة ، ص ١٨٣ — ١٨٤ ، رسالة أضحوية ، ص ٨٩ — ٩٠ .

بقوله إنه قول غير مسلم ، ولا يقف عنده بحث الناظرين ، فإنه لم يثبت بدليل ، ولا هو ثابت بنفسه ولا مسلم في أولية العقل أن كل ما ليس بجسم ولا جسماني لا يتجزأ ولا يتكثر ، فهي مقدمة غير بينة بنفسها ، ولا هم بينوها بحجة حتى يحتجوا بها ، ولم يثبتوا بدليل أن كل ما ليس بجسم لا يتجزأ .

وأما استناد ابن سينا الى بطلان تكثرها في القدم ، لكونها واحدة بالنوع والماهية ، فلا تتكثر بذواتها ولا تتمايز ، وإنما تتكثر بالأبدان ، فإن أبا البركات ينقض هذه المقدمة أيضا بقوله إنها تحتاج الى بيان ودليل يثبت كون النفوس واحدة بالماهية ، بل اننا نرى ـ أى أبا البركات ـ ونثبت أنها ليست كذلك ، وانما هي عندنا مختلفة بالنوع والماهية ومتمايزة فبطلت هذه المقدمة أيضا . وقد أثبت أبو البركات بأدلة كثيرة اختلاف النفوس بالماهية والنوع(٣٣) .

وأما قول ابن سينا بعدم تكثر النفوس في القدم بأبدان أخرى في القدم استنادا الى أن ذلك يفيد التناسخ ، والتناسخ في نظره باطل . فإنها مقدمة أيضا مشكوك فيها من جانب أبي البركات . ويصرح أبو البركات بهذا الشك في قوله بأن ابن سينا وأتباعه عندما أرادوا إثبات الحدوث استندوا الى بطلان التناسخ ، وهم لم يبطلوه بحجة ، وعندما حاولوا إبطال التناسخ استندوا الى الحدوث . فأثبتوا شيئا بإبطال شيء أبطلوه بما أثبتوه بإبطاله فوقعوا بذلك في الدور ، على بصيرة منهم أو غير بصيرة . فلم يصح من هذا الاحتجاج ، أو البرهان في أقسامه أو مقدماته ، ما يعول عليه في حدوث النفس مع حدوث الأبدان(٣٤) .

٢ ـ برهان أبي البركات على حدوث النفس :

يتلخص البرهان في القول بأنه لو كانت النفس الواحدة موجودة في القدم قبل تعلقها بهذا البدن ، فإنها تكون إما متعلقة ببدن آخر هناك غيره ، أو تكون مفارقة للأبدان كلها ، وكلا الأمرين باطل ، فثبت بطلان

---

(٣٣) أبو البركات : المعتبر ، جـ ٢ ، ص ٣٨٥ ـ ٣٨٧ .
(٣٤) أبو البركات : المعتبر ، جـ ٢ ، ص ٣٧٥ ـ ٣٧٧ .

كونها موجودة في القدم قبل تعلقها بهذا البدن ، وثبت صحة نقيضه ، وهو أنها حادثة ، تحدث عند تمام استعداد النطفة لتعلق النفس بها .

ويستدل على صحة مقدمات البرهان بقوله أما بطـــلان تعلق النفس ببدن آخر قبل بدنها هذا ، فلأنها لو كانت متعلقة بذلك البدن فإنها تكون إذن فعـــالة ومتصرفة ، ويكون فعلها إما ادراك عقـــلي فقط أو تحـــريك جسماني مقرون بإدراك حسي معه ، وهي تحفـــظ ما أدركته ، وتتـــذكر ما حصلته وحفظته حال وجودها مع ذاك البدن وقبل تعلقها بهـــذا البدن ، وهذا التحصيل والحفـــظ إما أن يكون عند النفس وفي ذاتهـــا ، ومن ثم تصبح قادرة على التذكر بذاتهـــا لما حفظته قبل حلولها في هـــذا البدن ، أو يكون حفظها عند قوة أخرى غيرها موجـــودة معها ومتعلقة بها . وكـــلا الأمرين باطل لأنه سواء كان الادراك والحفظ للنفس بذاتها أو لقـــوة من قواها فإن المدركات والمحفوظات تعـــود في النهاية الى النفس حتى إنهـــا تتذكر بذاتهـــا ما حصلته وحفظته بذاتها ، وتتـــذكر ما حصلته القـــوى الأخرى باستحضار ما استودعته هـــذه القوى من المحفـــوظات . وفي كل الأحوال يكون التذكر فعلا خاصا بالنفس . ونحن نعلم ونلاحظ أن النفس في هذا البدن لا تتذكر شيئا محسوسا ولا معقولا مما افترضناه قد حصلته وحفظته حال تعلقها بذاك البدن السابق ، إنها لا تتـــذكر شـــيئا من ذلك ، لا بذاتها ولا بالقوة التي افترضنت متعلقة بها فبطل تعلقها ببدن آخـــر قبل تعلقها بهذا البدن .

وأما بطلان كونها - قبل تعلقها بهذا البدن - مفارقة للأبدان كلها ، فلأنها لو كانت كذلك لكانت معطلة هناك عن الفعل والانفعال . وهـــذا باطل ، لأنه قد ثبت في العلوم الالهية أنه لا معطل في الطباع الوجودية ، فإن كل ما من شأنه اذا وجد أن يفعل ، فإنه اذا وجد لابد أن يفعل ، فإذا افترضنا وجـــود النفس في القدم مفارقة لكل الأبدان قبل تعلقها بهـــذا البدن ، فلابد أن تكون فاعلة ، لكنه لم يثبت لها فعل إلا عند تعلقها بهـــذا البدن ، حيث تفعل فيه وبه وخارجه ، وقد فرضت مفارقة للأبدان جميعا ، فبطل كونها موجودة مفارقة للأبدان قبل تعلقها بهذا البدن .

وإذ بطل كونها متعلقة ببدن آخر غير هذا البدن ، على افتراض وجود قديم لها ، وبطـل كونها مفارقة قبل هـذا التعلق ، فقد ثبت بطـلان وجودها قبل هذا البـدن ، وثبت بالتـالى أنها حادثة بحـدوث تعلقها به وليست قديمة(٣٥) •

٣ — تعقيـب :

ومن جانبنا ، فنحن نرى أن هذا البرهان لأبى البركات ليس أقـوى من برهان ابن سينا على حدوث النفس ، وليس مما يتأبى على النقد ، بـل إنه فى نظـرنا يتضمن ثغرات تفسـح المجال لاثارة بعض الاعتراضـات والشكوك فى مقدمتيه أو شقيه معا •

فإذا كان أبو البركات فى الشق الأول لبرهانه يثبت بطلان وجـود سابق للنفس قبل تعلقها بهذا البدن ، استنادا الى أنها لا تتذكر شـيئا من أحداث ذلك الوجود وأفعـالها فيه ، مما يدل على عدم وجـودها ذلك الوجود السابق ، فإن هذا أمر غـير مسلم ولا معلوم بالضرورة ولا يفضى الى المطلوب • إذ ما المانع من أن تكون فى وجودها ذاك قد علمت وتعلقت ذاتها وموجودات ذلك العالم السـابق ، فلما تعلقت بهذا البـدن وانشغلت به وبأمور هذا العـالم ، نسيت ما كانت تعلمه وغفلت عما كانت حصلته فى وجودها السابق ، على ما قال به أفلاطون عندما أثبت قدم النفس ووجودها فى عالم المثل ثم هبوطها منه للتعلق بأبدانها فى هذا العالم ، ولما اعترض المطلوب • إذ ما المانع من أن تكون فى وجودها ذاك قد علمت وتعقلت ذاتها على أبى البركات •

ومما يدعم اعتراضنا هذا ، أن أبا البركات نفسه قد ذكر فى موضع سابق أن النفس قد يشغلها شىء عن شىء ، وتذهـل عن بعض المدركات ببعضها الآخر(٣٦) ، ونقول بناء على هـذا ، ان النفس ربما شغلتها مدركات وأمور هذا العالم فى وجودها الحـالى ، عن مدركات وأمور ذلك العـالم فى وجودها السابق وأنستها أمور هذا العالم ما علمته وتعقلته وحفظته أثنـاء وجودها فى العالم السابق •

---

(٣٥) أبو البركات : المعتبر ، جـ ٢ ، ص ٣٧٧ — ٣٧٩ •
(٣٦) أبو البركات : المعتبر ، جـ ٢ ، ص ٣١٧ — ٣٢٠ •

وإذا كان أبو البركات في الشق الثاني من برهانه ، قد أثبت بطلان وجود سابق للنفس ، إستنادا الى أنها اذا لم تكن متعلقة ببدن هناك فإنها تكون مفارقة فتكون معطلة عن الفعل ولا معطل في الطباع الوجودية ، فإن ذلك في نظرنا أيضا غير مسلم ولا هو يقيني ولا ثابت بدليل • إذ يمكن أن تكون النفس هناك مفارقة غير متعلقة ببدن • ومع ذلك تكون فاعلة مدركة ، تدرك ذاتها وتدرك غيرها من النفوس والعقول المفارقة هناك ، ويكون العائق لتذكر ما علمت وأدركت ، هو نفس العائق الذى ذكرناه في اعتراضنا على الشق الأول ،وهو انشغالها بمدركات هذا العالم وأفعالها فيه •

وعلى هـذا ، فليس برهان أبي البركات - كما قلنا - على درجة من القوة والاحكام بحيث يتأبى على النقد • وفي رأينا أن برهان ابن سينا خصوصا بالصورة التي عرضها الغزالي له ودفع فيها كل الشكوك والاعتراضات التي يمكن أن تثار ضد هذا البرهان ، هو أقوى وأشد إحكاما من برهان أبي البركات •

ومما تجدر الاشارة اليه ، أن فخر الدين الرازى برغم أنه كان متأثرا في دراساته النفسية بكثير من آراء وأفكار أبي البركات ، قد عرض لانتقادات أبي البركات على برهان ابن سينا ثم فندها ورد عليها جميعا لينقح البرهان ويقويه وإن لم يأخذ به • ثم إنه عرج بعد ذلك على برهان أبي البركات وانتقده بوجوه كثيرة ، يذكر معظمها في « المطالب العالية » ، ويكتفي بذكر أحدها في « المحصل » وآخر في « الأربعون » ، ويكتفي في كتابه « المباحث المشرقية » بقوله : « إن هذه الحجة بجميع مقدماتها ضعيفة جدا »(٣٧) • يقصد برهان أبي البركات •

ومما اعترض به الفخر الرازى على الشطر الأول لبرهان أبي البركات ، وهو المبنى على عدم تذكر نفس الواحد منا لشيء يفيد وجودها قبل ذلك ، ما يقوله الرازى من أن تذكر النفس للأحوال الماضية مشروط بتعلق النفس بذلك البدن الذى حدثت معه تلك الأحوال ، فإذا فني ذلك البدن ، امتنع تذكر الأحوال التي حصلت معه • ومن جهة أخرى ؛ فإن أبا البركات استند في إثبات عدم التذكر ، على ما يشعر به كل منا وما يخبر به غيره

---

(٣٧) الفخر الرازى : المباحث المشرقية ، جـ ٢ ، ص ٣٩٦ •

من أننا لا نتذكر شيئا من أحوال تتصل بوجود سابق لنا ، وهذا فى نظـر الرازى ضعيف لأنه يعتمد على الاستقراء الناقص الذى لا يفيد اليقين(٣٨) ·

ويعترض الفخر الرازى على الشــطر الثانى من برهان أبى البركات الذى استند فيه الى القول باســتحالة كون النفس موجودة قبـل هــذا البدن ، مفــارقة لكل الأبدان ، لأن فى ذلك ما يفيــد تعطلها عن الفعل ولا معطـل في الطباع الوجــودية ، يعترض الرازى على ذلك بأنه إن عنى بالتعطل أنها تكون خالية عن الادراك والشــعور ، فلا · لأنهـا كما كانت موصوفة بالحياة ، وجب أن يحصل لها إدراك وشعور ببعض الأشياء ، ولعلها تلتذ بذلك القدر من الادراك ، وحينئذ لا تكون معطلة · ومن جهة أخرى ، لم لا يجوز القول بأنها قبل تعلقها بهذه الأبدان ، كانت متعلقة بجـزء معين من السموات أو بجزء من العناصر ، وكانت تنال الخيرات واللذات بسبب تلك الآلات · وأخيرا ، فإن قول أبى البركات بأنه لا معطل فى الطبــاع الوجودية ، قول باطــل بما ذهب اليه من أن نفوس الأجنــة إذا فارقت أبدانها ، فإنها تبقى أبد الآباد من غير أن يحصــل لها لذة وخير ومنفعة ، وهذا يعنى أن تكون معطلة ، فوقع أبو البركات فى التناقض(٣٩) ·

---

(٣٨) الفخــر الرازى : الأربعون فى أصــول الدين ، ص ٢٩٨ ، المحصل ، ص ٢٢٧ ــ ٢٢٨ ·

(٣٩) الفخر الرازى : المطالب العالية ، ص ٦٨٧.د· مخطوط ، وانظر أيضا كتابنا : النفس وخلودها عند فخر الدين الرازى ، ص ٢٤٨ ــ ٢٤٩ ، القاهرة ١٩٨٩م ·

الفصـــل الثــانى

خـــلود النفـــس

ويشـــــتمل عــلى :

أولا : تمهيـــــد

ثانيا : براهين ابى البركات على خلود النفس •

ثالثا : إثبات السعادة والشقاوة النفسايين فى الآخرة •

رابعا : مصير النفوس واحوالها فى عالم الخلود •

خامسا : تعقيـــب

اولا ـ تمهيـــد :

قبل أن نعرض لموقف أبى البركات من مسالة خلود النفس ومصيرها فى الآخرة ، يجدر بنا أن نمهد لذلك بالاشارة الى موقف الاسلام من هـذه القضية ثم موقف مفكرى الاسلام وفلاسفة اليونان منها ، فذلك مما سيلقى مزيدا من الضـوء على موقف فيلسوفنا فى هذه المسألة •

١ ـ أما عن موقف الاسلام ، فإنه من المعلوم أن من أهم العقائد التى أقرها القرآن وأكدها ، بعد عقيدة التوحيـــد ، عقيدة البعث أو المعـاد ، ولقد عرض القرآن للمعـاد وما يتصـل به من أمور كالحسـاب والجـزاء والخلود فى النعيم الأبدى أو العـذاب الأبدى ، عرضا وفى به مقصـوده والغرض منه • لقد أقر القـرآن وأكد المعاد الجسـمانى المتمثل فى بعث الأجساد بعد موتها ، وتناوله من جميـع زواياه ، وبما لا يدع أى مجـال للشك فى وقوعه بحيث لا ينكره إلا مكابر أو معاند • ذلك انه وردت أيات صريحة الدلالات فى تقرير بعث الأجساد ، ومثلها فى الرد على المنـكرين له والمشككين فيه وبيان فساد دعاواهم ، ولم يقتصر القرآن على ذلك ، بـل دعم هذا وذاك بالاستدلال على صـحة وقوع المعاد الجسـمانى بأدلة عقلية ونقلية شرعية تناسب عقول العامة والخاصة(١) •

وأما عن المعاد النفسانى أو الروحانى القائم على خلود النفس ، فقـد أقره القرآن أيضا وآكده ، على أساس أن النفوس تبقى حية خالدة بعـد موت الأبدان وفسادها ، إذ الموت لا يقع عليها ولا يعدمها ، بل يقـع على الأبدان فقط • وكل ما هنالك من أثر للمـوت فى النفوس هو أنه يقطـع صلتها وعلاقاتها بأبدانها ، ومن ثم تصـعد الى الملأ الأعلى فى انتظـار يوم البعث أو القيامة حيث تبعث الأبدان وتعـود كياناتها كما كانت ، فتعاود النفوس اتصالها بأبدانها ، فيعـود الانسـان فى الآخرة إنسـانا بروحه أو نفســه وبدنه معا ، فيحاسب ثم يلقى جـزاءه ثوابا بالنعيم الروحى والحسى ، أو عقابا بالعذاب الروحى والحسى أيضا ، ويظل فى خلود دائم

(١) عرضنا بالتفصيل لموقف القرآن من قضية المعاد ، فى كتابنا : « حقيقة المعاد بين الدين والفلسفة » ص ٢٧ وما بعدها ، القاهرة ١٩٩٠م •

فى كلتى الحالتين . وقد عبر القرآن عن هذا المعنى بقــوله تعالى عن يوم البعث او القيــامة : « إذا الشمس كــورت ، وإذا النجــوم الدثرت ، وإذا الجبال سيرت ، وإذا العشار عطلت ، وإذا الوحوش حشرت ، وإذا البحار سجرت ، وإذا النفوس زُوِّجَت » (سورة التكوير : ١ ـ ٧) . قال العلمــاء فى معنى « وإذا النفوس زوجت » إن النفوس التى فارقت أجســادها عنــد الموت ، تعود فتتعلق كل نفس ببدنها ، فهى أزواج .

ومن الآيات القرآنية التى تحمل دلالة واضحة على المعاد النفســانى الذى يستند الى بقــاء النفس بعــد موت البدن . قوله تعــالى : « ولا تحسبن الذين قتــلوا فى ســبيل الله امواتا بل احيــاء عنــد ربهم يرزقون » (البقرة : ١٥٤) ، ومعلوم بشهادة الحس والواقــع أن أبدان الشــهداء تصير ميتة ، وإذن فهم أحيــاء بأرواحهم ، أو تظل نفوســهم حية باقية لا يلحقها الموت . ويبدو ذلك واضحا أيضا فى قوله تعــالى : « ولا تقولوا لمن يقتــل فى ســبيل الله امــوات بــل احيــاء ولكن لا تشــعرون » (آل عمران : ١٦٩) .

ولا ينبغى الظن بأن ذلك خاص بأرواح الشهداء فقط ، وانما هــو حــكم عــام ينســحب على نفوس الناس جميعا ، فانظــر قوله تعــالى : « ولو ترى إذ الظالمون فى غمرات الموت والملائكة باسطوا ايديهم اخرجــوا انفسكم ، اليوم تجزون عــذاب الهون بما كنتم تقولون على الله غــير الحــق وكنتم عن آياته تستكبرون » (الأنعام : ٩٣) . قال المفسرون ، إن نفس المؤمن تنشط فى الخروج ومغادرة البدن للقاء ربها ، ونفس الكافر تكره ذلك فيشق عليها مفارقة بدنها ولقاء ربها لأنها تصير الى اشد العذاب(٢) .

وكذلك يتأكد لنا المعاد النفسانى القائم على خــلود النفس ، فى قوله تعــالى : « يا أيتها النفس المطمئنة ارجعى الى ربك راضية مرضية ، فادخلى فى عبــادى وادخــلى جنتى » (سورة الفجر : ٢٧ ـ ٣٠) ويقــول الامام

---

(٢) الفخــر الرازى : مفــاتيح الغيب (التفســير الكبير) جـ ٤ ، ص ٩٤ ـ ٩٥ .

فخر الدين الرازى إن الخطاب فى الآية بقوله « إرجعى » إنما هو متوجه اليها حال الموت ، فدل هذا على أن الشىء الذى يرجع الى الله بعد موت الجسد يكون حيا راضيا عن الله ويكون الله راضيا عنه ، أما وأن الجسد قد مات ، فإن الحى الباقى الذى توجه الخطاب اليه هو النفس لا محالة(٣) ٠

وهناك آيات أخرى يستدل بها على حياة النفوس وبقائها بعد موت أبدانها ، ولكننا نكتفى بما ذكرناه ، اعتقادا منا بأن الامعان فى المطلوب بعد بلوغ الكفاية يعد تكلفا لما لا يحتاج اليه ، وسوف نرى كيف أن موقف فيلسوفنا أبى البركات من خلود النفس موقف يتطابق تماما مع موقف الاسلام ٠ حيث يبرهن على الخلود ببراهين عقلية ، ويقر بالخلود الفردى والجزاء الفردى ثوابا أو عقابا لكل نفس على حدة ٠

٢ ـ وأما عن موقف مفكرى الاسلام من مسألة خلود النفس ، فيمكن أن نلاحظ لديهم اتجاهات رئيسية ثلاثة : أحدها ، يضم الذين أنكروا خلود النفس وبقاءها بعد موت البدن ٠ والثانى ، سار فيه الذين أثبتوا خلودها وبقاءها ، أما الاتجاه الثالث ، فيمثله بعض فلاسفة الاسلام ذوى المواقف الغامضة التى تتضمن آراء متضاربة مثلما نجد عند الفارابى وابن رشد ٠

وأصحاب الاتجاه الأول المنكرون خلود النفس كانوا شعبتين : إحداهما ينفى رجالها وجود النفس الناطقة فى الانسان أصلا ، حيث اعتبروا الانسان هو هذه البنية المشاهدة المحسوسة لا غير ٠ وهم طائفة من المتكلمين اشهرهم أبو بكر بن الأصم وأبو الهزيل العلاف المعتزلى ٠ والشعبة الثانية ، اعتبر أصحابها الانسان مكونا من نفس وبدن إلا أن النفس عندهم مادية أى جسم داخل البدن ، ومن ثم فإنها تفسد بفساده وتفنى بفنائه بالموت ٠

واما أصحاب الاتجاه الثانى المثبتون خلود النفس ، فمعظمهم من المتكلمين والفلاسفة القائلين بتجرد النفس وروحانيتها ، وهم شعبتان : إحداهما ، اعتقد أصحابها بالخلود الجزئى الفردى لكل نفس على حدة ،

---

(٣) المصدر السابق ، جـ ٥ ، ص ٤٣٧ ٠

وكذلك بالجزاء الفردى فى الآخرة • وهم متفقون بهذا مع التصور الدينى للخلود والجزاء • ويمثل هذه الشعبة أكثر الفرق الاسلامية من سلفية ومعتزلة وأشاعرة وصوفية ، الى جانب جمهور الفلاسفة وخاصة الكندى وابن سينا والغزالى وسوف نرى كيف أن أبا البركات ينتمى الى رجال هذه الشعبة • وأما الشعبة الثانية ، فقد رفض رجالها القول بالخلود الفردى للنفوس المفارقة ، وقالوا بخلود كلى جماعى ، بمعنى أن النفس الجزئية الخاصة بإنسان ما ، حين تفارق بدنها تتحد بالأصل الذى صدرت عنه أو تتحد بعلتها وهى النفس الكلية التى هى نفس العالم ، فتلتحم بها ، وتذوب ذاتها فيها ، ومن ثم تفقد بعد مفارقة البدن فردانيتها وذاتها • وأشهر رجال هذه الشعبة إخوان الصفا وكذلك ابن رشد فى بعض آرائه • والحق أن هذا المذهب غير متصور ولا معقول إذ كيف تتمايز نفوس الأخيار عن نفوس الأشرار ونفوس المؤمنين الطائعين عن نفوس الكفار العاصين ، فى الجزاء ثوابا بالنعيم أو عقابا بالعذاب ، إنه مذهب يلغى المسئولية الفردية والجزاء الفردى ويقرر الجزاء الكلى أو الجماعى بل ربما يلغى الجزاء أيضا •

٣ - **وأما فلاسفة اليونان** ، فكان لهم ثلاثة اتجاهات أيضا • أخذها ، يمثل موقف الشك والتردد وعدم القطع برأى ، ويمثل هذا الاتجاه جالينوس الذى يحكى عنه الفخر الرازى أنه قال : « لم يظهر لى أن النفس هل هى المزاج بعينه بحيث تصير عند الموت فانية معدومة والمعدوم لا يمكن إعادته ، أم أنها شىء آخر غير المزاج ، فتكون جوهرا باقيا بعد فساد المزاج عند الموت ، فيكون المعاد ممكنا »(٤) •

وأما الاتجاه الثانى ، فيمثل موقف المنكرين لخلود النفس وهم الفلاسفة الطبيعيون القدماء الذين اعتبروا النفس هى المزاج فإذا مات الانسان عدمت النفس ، هذا الى جانب إنكارهم المعاد الجسمانى •

---

(٤) انظر الفخر الرازى : الأربعون فى أصول الدين ص ٢٨٨ ، نهاية العقول ، جـ ٢ ، ص ١٧١ أ •

أما الاتجاه الثالث ، فهو أهمها جميعا حيث يثبت أصحابه خلود النفس وبقاءها بعد فناء البدن بالموت • ومن هؤلاء فيثاغورس وسقراط وأفلاطون وأفلوطين ، لكن أفلاطون أكثرهم شهرة فى هذا المجال وأشدهم اهتماما بالبرهنة على خلود النفس فى عالم المثل ، برهنة عقلية جعلته يخصص لهذه المسألة محاورة مستقلة هى محاورة « فيدون » • وقد تابع أفلوطين أستاذه أفلاطون فى كثير من آرائه وبراهينه على خلود النفس(٥) •

وقد قدم أفلاطون براهين كثيرة أهمها فى نظرنا أربعة : أولها برهان تعاقب الأضداد ، والثانى برهان التذكر ، والثالث برهان البساطة والتركيب • أما البرهان الرابع فهو برهان المشابهة أو المشاركة للمثل ؛ ويتلخص فى القول بأن كل شىء هو ما هو بسبب اشتراكه فى مثال معين ، وكل مثال لا يمكن أن يقبل ضده بالطبع • ولما كانت النفس جوهرا حيا مشاركا لمثال الحياة بالذات ، وهذا المثال خالد باق حى لا يقبل ضد ذلك الذى هو الموت ، فكذلك النفس لا تقبل ما هو ضد جوهرها وضد مثالها المشاركة له ، فلا تفنى ولا تموت(٦) •

ثانيا — براهين أبى البركات على خلود النفس :

قبل أن نعرض لموقف أبى البركات من خلود النفس وبراهينه عليه ، يجدر بنا أن نشير الى نقطة هامة تتصل بمذهبه فى المعاد وهى أنه يقر بالمعاد الجسمانى أو بعث الأجساد وعودة تعلق النفوس بأبدانها فى الآخرة • ويضع ذلك فى حيز الممكن غير المستحيل ولا الممتنع • ويستند فى ذلك الى ما جاء به الوحى والأنبياء من الاقرار بهذا المعاد ، والى قدرة الله تعالى • وفى ذلك يقول بأن القائلين الناقلين عن الوحى والأنبياء بعودة النفوس الى الأبدان لا يمنعه هذا البيان • خصوصا اذا شاء ذلك من له الخلق والأمر ، حيث يصير النفس الى حالتها مع البدن وفيه بتعلقها به ، فإن ذلك غير ممتنع من جهة المتعلق أى النفس والمتعلق به أى البدن ، بذاتيهما ، فإذا

(٥) أفلوطين : التساعية الرابعة ، مقال ٧ ، فصل ١٠ ، ص ٢١٨ ، ترجمة د• فؤاد زكريا •

(٦) أفلاطون : فيدون ، فقرات ٧٨ جـ ، د ، ٧٩ أ ، هـ ، ص ١٩٦ — ٢٠٢ من الترجمة العربية د• عزت قرنى •

أوجبه من هو قادر عليه ، كان كما كان أولا • والنظر لا يوجب امتناع مفارقة النفس للبدن وبقاءها مع هذه المفارقة زمانا ، والعود الى التعلق بالأبدان كما كان أولا • كل ذلك بالنظر فى حد الامكان من جهة النفس والبدن ، فأما من جهة الفاعل الذى تعلقها به ، ويحل علاقتها عنه بحسب مشيئته ، فيجب ذلك حيث يشاء ويمتنع حيث يشاء(٧) •

ثم يقدم لنا أبو البركات براهين عديدة يثبت بها بقاء النفس بعد عدم البدن وفساده بالموت • وقد ذكر بعض هذه البراهين بطريقة مباشرة وصريحة ، وأشار الى بعضها الآخر فى ثنايا حديثه وفى مواضع متفرقة من دراساته النفسية • وقد أمكن لنا تلمس هذه الاشارات واستنباط مضامينها ومقاصدها وهي أنها تفيد فى إثبات خلود النفس • وتتمثل هذه البراهين فيما يلى :

البرهان الأول ــ برهان العلية :

ويتلخص فى القبول بأن النفس بما هى جوهر مجرد روحانى قائم بذاته ، فإنها بذاتها مستغنية فى وجودها وفى أفعالها الادراكية الخاصة بها ، عن البدن ، ومن ثم فإنها تظل باقية لا تموت بموت البدن ومفارقتها له •

ذلك أن ما يعدم بعد وجوده ، على ضربين : فمنه ما يعدم بعدم علته وزوالها عن حال عليتها كضوء المصباح يعدم بانطفائه أو تغطيته ، ومنه ما تعدم علته ويبقى هو بعدها زمانا موجودا ثم يعدم ، كحرارة الماء من النار ، تبقى فيه زمانا بعد مفارقة النار ثم تعدم • والاعتبار يرينا فى الوجود أن كل ما يحدث عن علته فى غير زمان ، يعدم بعدمها ولا يبقى بعدها ، كالمصباح يعدم نوره إذا انطفأ معه ، معا فى آن واحد • وكل ما يحدث عن علته فى زمان ، وينشأ أولا فأولا يبقى بعد عدم علته ولا يعدم بعدمها كحرارة الماء من النار ، فالأول كما أنه وجد فى غير زمان ، فإنه يعدم فى غير زمان ، والثانى كما وجد فى زمان حدث فيه أولا فأولا ، يبقى زمانا ويعدم فى زمان وله وجود فى موضوع هو سبب البقاء بعد عدم الفاعل الموجد ، وهذا الموضوع هو الهيولى وضده يفسده بمزاحمته عليها أى على الهيولى ، كالثلج

---

(٧) أبو البركات : المعتبر ، جـ ٢ ، ص ٤٤٣ ــ ٤٤٤ •

الذى يستولى على الماء الحار بعد مفارقة النار فيبرده ويزيل الحرارة عنه التى هو ضدها ، وليس فيما يوجد ويعدم ، ما يكون حاله بخلاف هاتين الحالتين .

ولما كانت النفس جوهرا مجردا غير جسمانى ، ليس قوامها فى وجودها بموضوع ولا هيولى ، فليست من القسم الثانى الذى يتعلق وجوده بالموضوع وعدمه بالضد الطارد له عن هذا الموضوع ، فلا تفسد اذن بمفارقة البدن . فلا يبقى إلا أن تكون من القسم الأول فتكون مما يعدم بعدم علته ، لكن هذا أيضا باطل . لأن العلة الفاعلة إذا كانت على كمال عليتها حتى لا يكون لها شريك فى العلية ، لم يتوقف وجود معلولها ، ولم يتأخر عن وجودها ، وكذلك لا يتخلف بعدها ، بل يكون وجوده بوجودها وعدمه بعدمها . والعلل الموجبة لوجود النفوس البشرية هى النفوس السماوية التى هى جواهر مجردة روحانية ، فإذا كانت تلك النفوس عللا لهذه النفوس البشرية ، وكانت مستمرة البقاء لأنها علل تامة العلية ، فإن معلولاتها التى هى النفوس البشرية ، مستمرة فى البقاء معها ، لأنه إن كانت لهذه العلل إرادة أوجبت حدوث النفوس عنها ، فليست لها إرادة تضادها أو تناقضها حتى تعود فتريد عدمها كما أرادت وجودها لأن السماء لا ضد لها ، وليس للنفوس أضداد تفسدها لأنها لا موضوع لها ، بل إن علاقتها بالأبدان أضداد تفسدها ، فالذى يفسد ويبطل منها إنما هو علاقتها بالبدن الذى كان موضوعا لتلك العلاقة ، لا النفس .

وإذ بطل أن تكون النفس مما يعدم بعد وجوده على أى من الضربين أو الحالتين ، فقد ثبت بهذا أنها باقية خالدة بعد عدم البدن وفساده بالموت(٨) .

البرهان الثانى ـ برهان المشابهة (البرهان الميتافيزيقى) :

لم يذكر أبو البركات هذا البرهان بطريقة مباشرة ، وانما أمكن لنا استخلاصه أو استخراجه من خلال حديثه عن اختلاف النفوس البشرية بالجوهر والنوع والماهية ، وبالتالى كثرة عللها التى هى النفوس السماوية .

---

(٨) أبو البركات : المعتبر ، ج ٢ ، ص ٤٤٠ ـ ٤٤١ .

ويمكن لنا صياغة هـذا البرهان على النحو التالي : لما كانت علل النفوس البشرية كثيرة هي النفوس السماوية التي وجودها أتم وأسبق ، وجواهرها أبسط وأقوى ، وأنوارها أشرف وأبهى ، وكانت هذه العلل باقية بذواتها ، فكذلك معلولاتها التي هي النفوس البشرية ، باقية لأنها تشبه عللها مشابهة المعلول لعلته في البقاء والقـوة والادراك والغنـاء عن الموضوع المعرض للعدم والفناء بمفارقتها • ومن ثم فإن فناء البدن وفساده بالموت لا يؤدي الى فناء النفس وفسادها ، حيث تبقى ببقاء علتها(٩) •

ويثبت أبو البركات صحة مقـدمة البرهان وهى أن علل النفـوس البشرية كثيرة لا علة واحدة هى العقل الفعال كما قال ابن سينا والمشاؤون ، إستنادا الى أن كثرة النفوس البشرية واختلافها بالماهية والجوهر والنـوع يدل على كثرة عللها بحيث يكون لكل نفس علة واحدة على حدة ، أو لـكل طائفة من النفوس علة واحـدة • فأما ان النفوس البشرية مختلفة بالنـوع والجوهر والماهية وغير متحدة فى ذلك ، فإنه يعرف من اعتبار الموجود منها حيث نجد فى نفوس البشر ، العالم والجاهل ، وقـوى النفس وضعيفها ، والشريف والخسيس ، والخير والشرير ، والغضوب والخمول ، والصبور والملول ، فنجدهم مختلفى الأخلاق والهمم والقوى والطباع ، وهذا الاختلاف لا يمكن أن يكون كله مكتسبا عرضيا ، وإنما له أصـل ومرجع الى غرائز نفوسهم الأصلية وفطرتها الأولية • ويقدم على ذلك براهين عديدة لا حاجة بنا الى ذكرها هنا(١٠) •

وأما أن ذلك الاختلاف والكثرة دليل على كثرة عللها وأن هذه العلل هى نفوس سماوية مجردة روحانية أيضا ، فلأن ما هو جسمانى لا يمكن أن يكون علة لما هو مجرد روحانى ، فعلل النفوس البشرية المجردة ، نفـوس مجردة لا جسمانية أيضا • ولما كانت هذه العلل مختلفة الجواهر والأنوار والقـوى والأقدار ، فكذلك اختلفت جـواهر معلولاتها التي هى النفوس البشريه وطبائعها وماهياتها واختلفت بذلك لوازمهـا من غرائزها وملكاتها

---

(٩) أبو البركات : المعتبر ، جـ ٢ ، ص ٣٩٠ •
(١٠) المصدر السابق ، ص ٣٨٣ — ٣٨٦ •

وأحوالها وأفعالها(١١) . ويذكر أبو البركات ان العلة القريبة الفاعلة للنفس البشرية يسمى ملكا حسبما ورد به الوحى على لسان الأنبياء . وهو بالنسبة لنفس الانسان كالأب للولد الذى هو السبب القريب المعروف لنا ، والسبب الحقيقى وراءه ، والأب الحقيـــقي هو السبب الموجب ، فإن حارث الأرض وباذر البذر ، غير المنبت والمثمر ، كذلك هذه الروح الملكية .

ولنا على برهان أبى البركات هذا ، عدة ملاحظات :

أولها : أنه متأثر فيه الى حد كبير ببرهان مماثل عند الغزالى اعتمد فيه على أن جوهر النفس من جنس جواهر موجودات العالم العلوى التى لا تقبل الفساد ولا تضمحل ولا تفنى ولا تموت فكذلك النفس التى هى من جنسها وتنتسب اليها وتشبهها لا تفنى ولا تموت ، غير أن الغـــزالى لم يربط فى المشـــابهة بين النفس وتلك الجواهر العـــلوية برباط العلية كما فعـــل أبو البركات(١٢) .

ثانيها : إن هذا البرهان يشبه بوجه ما برهان المشـــابهة أو البرهان الميتافيزيقى الذى ذكره ابن سينا متأثرا فيه بافلاطون ، لكنه يختلف عنه بوجه آخر . هو يشبه برهان ابن سـينا من حيث الفكرة المحـــورية وهى فكرة مشابهة المعـــلول لعلته فى البقـــاء والدوام وأن المعلول يبقى ببقاء علته . فالنفس تبقى ببقاء علتها الفاعلية ، لكنه يختلف عن برهان ابن سينا من حيث أثبت أبو البركات عللا كثيرة مختلفة الجواهر والأنواع ، هى علل النفوس البشرية ، فيبرر باختـــلاف العلل ، اختلاف المعـــلولات التى هى النفـــوس البشرية فى الماهية والجـــوهر والنوع تبريرا معقولا ، بخـــلاف ابن سينا الذي أثبت لهذه النفوس جميعا علة واحدة هى العقل الفعال .

والملاحظة الأخيرة ، هى ما نلاحظـــه فى برهان أبى البركات من روح إشراقية تسرى فى نسقه إذ ان مقولات النور والأشرف والأخس ، والأنـــور والأبهى ، والأكمل والأنقص وما اليها ، ليست إلا مقولات صوفية إشراقية ،

---

(١١) المصدر السابق ، ص ٣٨٨ ـ ٣٩١ ، ج ٣ ص ١٥٣ ـ ١٥٤ .

(١٢) انظر الغزالى : الرسالة اللدنية ص ٢٠٣ ، كيمياء السعادة ، ص ١٢٥ ـ ١٢٦ ، معارج القدس ص ١٣٤ .

نجد بواكيرها عند الغزالي(١٣) • ثم نجدها عند متكلم أشعرى ناقد كبير معاصر لأبي البركات هو الشهرستاني(١٤) ، ثم تلمسها مفصلة بعد ذلك عند السهروردى المقتول فيلسوف الاشراق ، بصورة أوسع وأعمق(١٥) •

البرهان الثالث - برهان الانفصال :

أمكن لنا استنباط هذا البرهان من خلال حديث أبي البركات عن طبيعة العلاقة أو الصلة بين النفس والبدن ، ولاحظنا أن هذا البرهان يقوم على أساس صورة هذه العلاقة وماهيتها • ويمكن تلخيص هذا البرهان وعرضه على النحو التالي :

إن تعلق النفوس بالأبدان وكونها فيها ، ليس هو كون الأعراض في موضوعاتها التي لا قوام لها في الوجود إلا بها ، لأن النفس جوهر مجرد قائم بذاته • ولا مثل كون الأجسام في أمكنتها التي يسهل حركة المريد منها بإرادته عنها وتردده فيها في كل وقت وحال • بل هي علاقة أوكد والزم من علاقة المتمكن بمكانه الذي يمكن أن ينتقل عنه إذا أراد • وهي أسهل وأخلص من علاقة العرض بموضوعه الذي لا يتعدى موضعه موضوعه ولا يبقى مع مفارقته ، لأن العرض يعدم بعدم موضوعه • وليست علاقة النفس بالبدن أيضا علاقة إرادية ، وإلا لتصرفت بإرادتها في الانفصال عن البدن والعود اليه كلما شاءت ذلك • ولكان كثير ممن يضجرون بحياتهم البدنية ويؤثرون الموت يقدرون عليه ، أي على انصراف النفس عن البدن وقطع علاقتها به لمحض إرادتها ذلك من غير حاجة الى آلة أو قطع مادة كشرب السم مثلا • ولا هي علاقة قسرية ، لأن النفس لو كانت مقسورة على ملازمة البدن ، لكانت متأذية باتصالها به ، مجتهدة بطبعها

---

(١٣) انظر الغزالي : معارج القدس ، ص ٤٤ - ٤٥ ، مشكاة الأنوار ، ص ٧ - ٨١ •

(١٤) الشهرستاني : الملل والنحل ، جـ ٢ ، ص ٩٧ - ١٠١ •

(١٥) السهروردى : حكمة الاشراق ، القسم الثاني ، مقالة ٥ ، فصل ١ ، ص ٢٣٥ - ٢٣٦ •

وارادتها فى الانفصـال عنه والتخلص منه ، وحالها المشاهد هو بالضد من هذا ، حيث نجدها تحبه وتلتذ به وتكره مفارقته ولا تمل طول صحبتها له .

ولما لم تكن علاقة النفس بالبدن ، إرادية تصلها وتقطعها متى شاءت ، ولا هي قسرية تكرهها وتتأذى بها ، فهى إذن علاقة طبيعية إلهامية ، كالمحبة التى يتكلفها المحب بإرادته بل كالعشق الذى يصدر عن طبع العاشق . وهى شبيهة بعلاقة المالك بملكه ، والصانع بآلته ، لأن البدن كله بأجزائه وأعضائه وأجهزته آلة للنفس فى جملة أفعالها ، وكل واحد من أجزائه من الأرواح والأعضاء آلة لصنف من أفعالها ، وان كانت هى الفاعلة بذاتها على الحقيقة . وهى علاقة تشبه أيضا علاقة الطائر بوكره ، والساكن بداره التى يعمرها ويأوى اليها ويستريح فيها .

وإذا كان ذلك كذلك ، وكان انعدام ملك المالك لا يفضى الى انعدام المالك ، وفساد الآلة لا يؤدى الى فساد الصانع ، وانهدام الدار وعدمه لا يعنى عدم صاحب الدار وموته ، ولا انعدام العش أو الوكر يفضى الى عدم الطائر ، فكذلك النفس مع البدن ، فإن فساد البدن وانعدامه بالموت لا يفضى الى فساد النفس وموتها وعدمها ، وإنما يؤدى فقط الى انفصام العلاقة وقطعها بين النفس والبدن ، كما أفضى الى قطع العلاقة بين الطرفين فى كل ما ضربناه من أمثال(١٦) .

ونلاحظ أن فيلسوفنا استند فى هذا البرهان الى نظر عقلى تأملى فى طبيعة العلاقة بين النفس والبدن ، والى معطيات الواقع فيما ذكره من تشبيهات . والبرهان يختلف فى مقدماته عن برهان الانفصال الذى نجده عند ابن سينا والغزالى(١٧) ، وان كانت الغاية عندهم جميعا واحدة هى إثبات خلود النفس وبقاءها بعد عدم البدن وفساده بالموت .

ثالثا ـ إثبات السعادة والشقاوة النفسانيين فى عالم الخلود :

يهتم فيلسوفنا بإثبات السعادة والشقاوة اللتين تلحقان النفوس الانسانية فى العالم الآخر عالم الخلود . ويوضح لنا أن ما تحصله النفس هناك من سعادة أو شقاوة إنما مرده الى أمرين رئيسيين : أحدهما ، أحوالها

---

(١٦) أبو البركات : المعتبر ، جـ ٢ ، ص ٣٤٤ ـ ٣٤٧ .

(١٧) انظر ابن سينا : الطبيعيات ، الفن ٦ ، مقالة ٥ ، فصل ٤ ، ص ٢٠٢ ـ ٢٠٥ ، النجاة ص ١٨٥ ـ ١٨٧ ، الغزالى : معارج القدس ص ٩٦ ـ ٩٩ .

وما حصلته من علم واعتقاد وعمل في حيـــاتها الدنيا حال تعلقها بالبـــدن بحيث تكون العلوم اليقينية والاعتقادات الحقة والأعمال الخيرة الصـــالحة سببا في سعادتها هناك في عالم الخلود كما كانت سببا في سعادتها في الدنيا . أما ما هو ضد ذلك من علم ظني فاسد ، واعتقادات باطلة ، وأفعال شريرة وأخلاق فاسدة فإنه يكون سببا في شقاوتها في الآخرة . والأمـــر الثاني ، هو أن سعادتها تقوى وتكمـــل وتتم في عالم الخلود بمصـــاحبتها لعللها السماوية وموجودات ذلك العالم الخالدة الكاملة البهية ، وتبـــلغ سعادتها أقصاها بقربها من الجمال الحـــق والكمال الحق والبهاء الحـــق ، الذي هو الله تعالى بتأملها له والوجود في حضرته . أما شقاوتها وعذابهـــا هناك فتزداد بمفارقتها لما كانت تعشقه وتحبه في الدنيا من اللذات البدنية والحسية الزائفة ، وما درجت عليه من شرور وآثام ، فهي هناك تشـــتاق إلى سيرتها الأولى هذه ولا تحصلها فيكون عذابها ، وتبلغ أقصى شـــقاوتها ببعدها وانشغالها عن تأمل وادراك ملكوت السماء بجماله وأنواره وبهائه .

ويوضـــح لنا أبو البركات هذه المعاني بقـــوله ان النفس حال تعلقها بالبدن في الدنيا يشغلها البدن عن كثير مما يؤثر الاطلاع عليه والالتفـــات اليه بذاتها ، وكلما توفرت على البدن وشئونه والتفتت اليه ، ازدادت فيـــه غرقا وبه شغلا وعن غـــيره غفلة وانقطاعا ، فإذا فارقت البـــدن بالموت ، انقطع انشغالها به وانغماسها في أموره وغرقها فيه ، وتفرغت لما كانت قد انشغلت عنه مما تتطلع اليه وتشـــتاق اليه بذاتها . واذا تمـــكنت الملكات الانسانية والمعقولات الاعتقادية من جوهر النفس ، صعب انتقالها عنهـــا ، وبقيت فيها مالم يفسدها ضد أو يمحوها طول الزمان مع التشـــاغل بالغير والاهمال . لكن من هذه الملكات والمعقولات والتصورات ما يســـتقر ويثبت ويستمر مؤثرة لموافقة الغريزة له الموجبة لمحبته ، ومحبته توجب الالتفـــات اليه ، فيتكرر تذكاره فيصير معشوقا يلتفت اليه ولا يلتفت عنه .

فإذا فارقت النفس البدن ، وكانت فيها ملكات محبة وعشق لأشياء ، كان لها اليها شوق شديد بحسب العشق ، فإذا توفر لها حينئذ ســـبيل الى المعشوق ، تفرغت لنصيبها منه ، وتخلصت مما كان يشـــغلها عنه ،

فتسعد بقربه والاشتمال عليه سعادة لا سبيل لها الى نيلها وهي متعلقة بالبدن . أما إذا لم يكن للنفس سبيل الى ذلك ، فإنها تشقى بفقد معشوقها شقاوة أكبر من الشقاوة البدنية ، وذلك لأن ادراكها لما تدركه في حال مفارقتها للبدن ، يكون أشد اكتناها ونيلا للمدرك ، ومن ثم تكون لذتها بنيله وتاذيها بفقده ، أشد وأكثر وصولا وأعظم تأثيرا فيها . ولما كانت اللذة هي نيل المناسب الملائم مع شعور بنيله وملاءمته ، فإن استثبات ذلك الشعور واللذة بأشرف الموجودات ، يكون أشرف وأتم عند الملتذ بها من النفوس الشريفة .

وليس يعني نيل النفس للأشياء ، سوى ادراكها لها الذي هو معرفتها وعلمها بها . والمدرك العقلي من هذه الأشياء أوصل الى النفس من المدرك الحسي ، وذلك اذا أدركت المدرك العقلي بغير واسطة ولا حجاب ادراكا تاما . وعلى هذا ، فاللذةالعقلية التي تحصل بالمدرك العقلي تكون أتم كثيرا من لذتها بالمدرك الحسي الذي تدركه بواسطة البدن وآلاته . وأقصى سعادة يمكن للنفس أن تحققها هي ادراكها وتأملها لمبادئ الوجود وعلل الموجودات وما فيها من حسن وجمال وبهاء ، وأعلاها وأشرفها تأمل العلة الأولى الفاعلية والمبدأ الأول الذي وجدت عنه كل الموجودات حيث تكون سعادتها بنور جلاله هي السعادة القصوى واللذة التي لا تعدلها لذة .

ذلك أننا اذا تأملنا أكثر ما يحبه الانسان ، وجدناه أمرا فيه حكمة ونظام لأجلها صار محبوبا ، فتعشق النفس ذلك النظام وما هو فيه لأجله ، فكيف اذا كان ذلك النظام في مبادئ الوجود التي يصدر عنها كل نظام ، وكيف وأن كل جمال وحسن في معلول فإنما هو عن علته ، فكيف بأتم العلل وأكمل المبادئ جميعا الذي هو مصدر كل جمال وحسن وبهاء وكمال ، وهو الله تعالى ، ولذلك فإن السعادة القصوى للنفس هي في تأملها لعالم القدس والجلال والجمال . وكلما ترقت في تأملها وادراكها لموجودات ذلك العالم ، كلما ازدادت بذلك سعادتها ، حتى تصل الى أقصى درجات السعادة بقربها من الجمال الحق ، والكمال الحق ، والبهاء الحق ، وتأملها له والوجود في حضرته(١٨) .

---

(١٨) أبو البركات : المعتبر ، جـ ٢ ، ص ٤٤٤ - ٤٤٨ .

رابعا - مصير النفوس وأحوالها في عالم الخلود :

أثبت أبو البركات اختلاف النفوس الانسانية فى ما هياتها وجواهرها وطباعها وغرائزها ، ومن ثم أثبت لها عللا كثيرة لا علة واحدة هى العقل الفعال مثلما قال ابن سينا وأتباعه وعلى هذا الأساس ، أقام فيلسوفنا مذهبه في مصير النفوس بعد مفارقة الأبدان بالموت ، فقال بأن النفس الانسانية لها أحوال طبيعية من قبيلها هى بدنية ، وأحوال ارادية من قبيلها هى عقلية ملكية ، ويكون منقلبها الى هذه الأحوال عند الموت حيث تتخلص اليها وتتجرد لها عما كان يشغلها من الأحوال البدنية ، فتكون بذلك روحانية ملكية فى حياتها تلك حيث تكون إلهية فى عالم اللاهوتية .

ان النفوس الانسانية التى فارقت أبدانها بالموت ، تتصل بعللها التي وجودها عنها وبها ، وهي اليها أنسب وأقرب ، وقصاراها القرب منها ، وفضيلتها التشبه بها إذ لا يمكن أن تزيد عليها ولا أن تساويها من حيث أن المعلول لا يساوى علته ولا يزيد عليها رتبة وشرفا وفضيلة . وإذا كانت النفوس مختلفة الجواهر والطباع حيث منها الأفضل ومنها الأنقص ، فكذلك عللها ، منها العالى والأعلى ، والأعلى من الأعلى ، والشريف والأشرف ، والأشرف من الأشرف « فلكل نفس من النفوس البشرية فى المعاد مقام معلوم ودرجة محدودة بعلتها الفاعلية من الأشخاص الالهية ، هذا فيما لها بالقوة والجوهر والغريزة . أما فيما لها بالاستفادة والاكتساب اللذين من الارتياض والعادة حال تعلقها بالبدن ، فافضلها ما كانت عادتها وكسبها من الملكات العلمية والعملية أشبه بملكات الملائكة الذين تدخل فى زمرتهم ، وكان لها من التحصيلات العلمية والمعارف العقلية نصيب أوفر » .

وكلما كانت درجة النفس فى العلم والعمل افضل وآتم ، كان مقامها فى عالم الملكوت أفضل وسعادتها أتم ، لأنها اقتربت بهذه الفضائل العلمية والعملية من عللها الملكوتية الروحانية . وكما أن الانسان الجاهل فى الحياة الدنيا يتأذى ويتألم بجهله اذا حضر بين العلماء ، أكثر من تأذيه بهم إذا لم يخالطهم ، فكذلك النفس الجاهلة حين تفارق البدن الى عالم الربوبية والملائكة والأشخاص الروحانية ، فتكون بجهلها وتشبعها بالحس

والمحسوسات دون أن تستبدلها في الحياة الدنيا ببصيرة عقلية وملكات علمية ومعارف وعلوم عقلية ، تكون متأذية متألمة شقية في عالم الملكوت ، بل إنها في ذلك العالم تشعر بالغربة مثلما يشعر الغريب إذا دخل بلدا لا يعرف لسان أهله ولغتهم ولا يأنس بعاداتهم وأعرافهم ولا يقف على ملتهم وأديانهم ، فيكون مع قربه منهم بعيدا عنهم ، ومع أنسه بهم مستوحشا منهم .

وإذا كانت النفس تفارق البدن الى عالم القدس واللاهوت ، فلا شك أن سعادتها وخيرها ولذتها تكون فيما يقربها من أهل ذلك العالم ويؤنسها بهم ويحببها اليهم ، وذلك انما يكون بحسن العادات والملكات المتخلصة عن البهيمية الى الملكية ، وعن الجسمانية الحسية الى الروحانية العقلية ، وكلما كان نصيبها من ذلك أصلح وأوفر ، كان خيرها وسعادتها به في الآخرة افضل وأتم وأكثر ، فإن النسيب حبيب ، والمباين بغيض . وعلى هذا ، فإن سعادة النفس وشقاوتها في العالم الآخر إنما تتوقف على ما حصلته في الدنيا من أخلاق وأفعال خيرة أو شريرة ، وما حصلته من اعتقادات حقة أو باطلة ، وما أفادته من علوم ومعارف عقلية صحيحة أو فاسدة . وكما أن النفس الشريفة الفاضلة العالمة بغريزتها وكمالها الذي اكتسبته تلقى في عالم الربوبية ما يناسبها وتسعد بلقائه ونيله ، فكذلك النفس الخسيسة الناقصة الجاهلة تلقى ما ينافيها ويؤذيها وتشقى به ، فتسعد النفوس الكاملة بالوصول الى المطلوب المحبوب وبالخلاص من المؤذى المكروه ، وتشقى النفوس الناقصة بفقد المطلوب المحبوب وتقاسي من المؤذى المكروه .

وهذه الأحوال من السعادة والشقاوة تكون للنفس من جهتين : إحداهما بحسب غريزتها الأصلية وطباعها التى لها بحسب جوهرها ونوعها ، والثانية ، بحسب ما وكتسبته من علم وعمل واعتقادات(١٩) .

وإذا تساءلنا عن نوعية ومقدار ذلك العلم والعمل الذى إذا حصلته النفس كان لها السعادة في عالم الملكوت ، فإن فيلسوفنا يجيب عن ذلك

---

(١٩) أبو البركات : المعتبر ، ج ٣ ، ص ٢١٣ ــ ٢١٤ .

يقوله إنه فيما يخص العلوم والمعارف فإن ذلك مما يتصل بالحكمة العلمية النظرية ، وتتمثل فى علم الانسان بالعلوم الطبيعية الخاصة بالجماد والنبات والحيوان ، وأحوالها ومعرفة عللها الوجودية وغاياتها ، ثم يترقى منها الى معرفة ما هو أشرف منها وأعلى كالملائكة ، ثم ما هو أشرف وأسمى وهو معرفة الله تعالى والاعتقاد بوجوده ووحدانيته وصفاته التى له بذاته وعن ذاته ، فهذا هو علم العلم والعلم الالهى ، فتشرف النفس بمعرفة الله تعالى التى شرف بمعرفته أرباب عالم الربوبية • والانسان بما يحصله من هذه العلوم يكون عاملا عالما فى الوقت نفسه ، ويكون علمه على نوعين : فهو عامل بتركه لما ترك مما يتشاغل به عن تحصيل هذه العلوم ، فكل ما عداها إنما هو دونها ولو كان نفيسا فاضلا ، فإن العلوم أفضل من الأعمال بشرط تحقيق العلوم والاشتغال بالأهم منها ، ولا أهم عند الانسان مما يعرف به نفسه ويتوصل به الى معرفة ربه خصوصا بالمعرفة النظرية العقلية اليقينية لا الظنية الخبرية • وهو أيضا عالم بالتفاته الى ما التفت اليه من العلوم ، فبالترك يتنزه بحسب ما يترك ، وبعلمه يشرف بحسب ما يعلم •

وأما عن نوعية العمل ومقداره ، الذى به تحصل النفس سعادتها فى الآخرة ، فذلك مما يتصل بالحكمة العملية ، وهو على الجملة ذلك العمل الذى يستقر كالملكة فى النفس ويكون عملا صالحا خيرا فاضلا شريفا ؛ يناسب به الموجودات الشريفة فى عالم الربوبية ، وقد جاءت أصول هذه الحكمة العملية وجملها وتفاصيلها فى العلوم الشرعية من حيث حددت هذه العلوم الحلال والحرام والأوامر والنواهى والفضائل والرذائل والخيرات ولشرور ، وكل ما يتصل بالعمل والأخلاق الانسانية •

وعلى هذا فالنفس الشريفة بغريزتها ، السعيدة بكسبها وعملها ، الفاضلة بعلمها ومعرفتها ، المقدسة بنزاهتها ، إذا فارقت البدن ، فارقته الى جوار ما يناسبها ومن يناسبها فى عالم القدس من الملائكة المقربين الذين لهم الحياة الفاضلة والسعادة الحقيقية واللذة القدسية العقلية التى لا يصح الاخبار عنها لمن لا يعرف أنموذجا منها • أما النفس الخسيسة

بطباعها ، الشقية بنجاستها وتدنسها ، الناقصـــة بجهلها ، فإنها تفـارق البدن الى جوار ما تـكره مما يؤذيها ومن يبغضـــها ويعاديها ويلتفت عنها ويزدريها من الملائكة الذين يعرفون من أحوال الناس وأفعـالهم في عالمهم هذا ما يؤاخذونهم به في منقلبهم هناك وحياتهم تلك • فيـكون من الناس السعيد والشقي ، والأسعد والأشقى ، والأقرب والأبعد ، لأن الله تعـالى وملائكته يحيطون علما بالموجودات ، ويدركونها معرفة ، ما جل منها وما قل ، وما عظم وما صغر ، وما كان منها وما يكون ، فيوفى كل إنســـان حقـه ، ويستوفى منه لكل ذى حق حقه • وفي تفاصيل الحكمة العلمية يـكون الترغيب في الحكمة العملية ، وتحصل الاعتقـــادات اليقينية في المعلومات الوجودية مع الحث على أعمال الخير والبر والنهي عن أفعال الشر والاثم(٢٠) •

خامسا ـ تعقيـــب :

بمقارنة آراء أبي البركات ، فيما يخص مصـــير النفوس وأحوالها في عالم الخلود ، بآراء السابقين عليه من مفكرى الاسلام ، نلاحظ ما يلي :

١ ـ إنه من حيث يثبت السعادة والشـــقاوة الروحانيين للنفوس في الآخـــرة ، إنما يخالف بذلك موقف القائلين بأن الســـعادة والشقاوة في العالم الآخر جســـمانيان حسيان لا غير وأنه ليس هنـــاك في عالم الخلود إلا النعيم الحسى في الجنة أو العذاب البدني في النار ، والقائلون بهـــذا كثير من أهل الاسلام من السلفيين والصـــوفية وبعض الشـــيعة والمتكلمين الذين أقروا بالمعاد الجسماني وأنكروا خـلود النفس • وهم قد نظـــروا الى اللذات والآلام الحسية الجسمانية على أنها أعظم اللذات وأشـد الآلام التي هي جديرة في نظـــرهم بأن تفي بالغرض الذى قصـــده الشرع في الجزاء • وجديرة أيضـا بدفع الانســـان الى الكمال في الدنيـــا خلقـــا وعمـــلا ، بدليـــل ما ورد به الشرع من ترغيب وترهيب بأشـــياء حســـية يدركها الجـاهل والعـالم لأنها تمثـل للجميع واقعا حيا معاشـا لا يمكن إنكاره • وليس يعـوز هؤلاء في التـدليل على مذهبهم هـذا ، أن يجـدوا

(٢٠) أبو البركات في المعتبر ، ج ٣ ، ص ٢١٥ ـ ٢١٧ •

فى القرآن والسنة من النصوص العديدة ما يتمسكون به ، وحسبهم أن ظاهر هذه النصوص تشهد بصحة ما ذهبوا اليه ، وان كانوا قد غفلوا أو تغافلوا عن تلك النصوص الدينية التى تثبت السعادة والشقاء أو النعيم والعذاب واللذات والآلام النفسانية الروحية التى تلحق النفس فى عالم الخلود •

٢ ـ إن موقف أبى البركات من مصير النفوس وأحوالها فى عالم الخلود ، يتسق ويتفق مع ما ورد به الشرع فى القرآن والسنة ، وذلك من وجهين : أولهما ، أنه يثبت الخلود الفردى أى خلود كل نفس على حدة وأن الجزاء ثوابا أو عقابا ، إنما يلحق كل نفس بذاتها ، فليس الخلود جماعيا بأن تلحق النفوس البشرية الجزئية بالنفس الكلية فى العالم الآخر ، وليس الجزاء كليا أيضا بما يلحق هذه النفس الكلية ، على ما قال به بعض فلاسفة الاسلام متأثرين فى ذلك بأفلاطون • وقد صور لنا القرآن أن التبعة والجزاء فى الآخرة يلحقان كل نفس بمفردها وذاتها بحيث لا يؤاخذ أحد بكسب غيره ، ولا تجزى نفس بما كسبت نفس أخرى ، وفى هذا غاية العدل الالهى « **من عمل صالحا فلنفسه ، ومن أساء فعليها ، وما ربك بظلام للعبيد** » (فصلت : ٤٦) •

وفردية التبعة والجزاء على هذه الصورة ، تضع الذات الانسانية فى مواجهة مع نفسها ، فتعى ذاتها وما اكتسبت فى الحياة الدنيا وعيا تنتفى معه كل جهالة ، وينغلق أمامه كل سبيل الى التخلص أو الهروب من الجزاء المحتوم • ويبدو ذلك فى قوله تعالى : « **يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا ، وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمدا بعيدا** » (آل عمران : ٣٠) • وقوله تعالى : « **يوم لا تملك نفس لنفس شيئا ، والأمر يومئذ لله** » •

ومن جهة أخرى ، يثبت أبو البركات السعادة والشقاوة النفسانيين للنفوس فى الآخرة ، وأن هذه السعادة تتمثل فيما تحظى به النفس من الطمأنينة والسلام والأمن والألفة حيث تلتقى بعللها السماوية التى هى جواهر شريفة نورانية ، كما تلتقى بالأشخاص الروحانية من الملائكة ،

فتسعد بأنسهم ولقائهم والحياة معهم ، الى جانب سعادتها فى عالم الملكوت ، بتواجدها فى عـالم الربوبية ورحابها حيث رضى الله عنها ورضيت عنه ، وهذه كلها معانى ورد بها القرآن الكريم فى مثل قوله تعالى : « **يا أيتهـا النفس المطمئنـة ارجعى الى ربك راضية مرضـية ، فادخلى فى عبـادى وادخلى جنتى** » ، وقوله فى أهل الجنة « **ادخلوها بسلام آمنين** » ، وأيضـا قوله سـبحانه : « **إن المتقين فى مقـام أمين** » (الدخان : ٥١) . وأعظـم صور السـعادة التى تحظى بها النفوس العالمة الفاضلة الذكية هى المشاهدة السنية التى تنعم بها فى الحضرة الالهية إذ ينشق الحجاب الذى بين العبد والرب ، وتتجلى سبحات الجلال وأنوار الحق لهـذه النفوس ، فتـكون غاية سـعادتها « **وجـوه يومئذ ناضرة الى ربها ناظـرة** » ، والوجه هنـا تعبير عن الذات فيما يقول كبار المفسرين .

وبالمقابل يثبت أبو البركات الشـقاوة والعـذاب للنفـوس الجـاهلة الخسيسة التى تقاعسـت عن تحصيل العلم الحـق والعمـل الفاضـل ، فلم تحصـل شـيئا من الحكمة العلمية العقلية ولا من الحـكمة العملية الخلقية ، وذلك يعود عليها فى عالم الخلود بالحسرة والألم والعزلة والشعور بالاغتراب فى عالم الملكوت حيث تفقـد الألفة والانسـجام والتناغم بينهـا وبين موجوداته . وإذ يثبت ذلك فإنه أيضا يتفق مع ما ورد به الاسـلام من العـذاب والشـقاء الروحانيين اللذين للنفوس الكافرة اعتقادا ، الجـاهلة بمعرفة الله والعالم ، الشريرة عملا ، الرذيلة خلقا ، ويتمثل عذابها النفسانى فى وقوع لعنـة الله عليها واحتجابها عن أنواره ، ولعنة الملائكة جميعـا ، فيلحقها الألم والحسرة والنـدامة والخزى والذلة ، حيث باءت بغضـب الله تعـالى . وتتمثل هذه المعانى كلها فى آيات كثيرة نذكر منها قوله تعالى : « **إن الخزى اليوم والسـوء على الكافرين** » وذلك لأن « **حجتهم داحضـة عند ربهم ، وعليهم غضب ، ولهم عذاب شديد** » (الشورى : ١٦) ، ويقول تعالى عنهم : « **أولئك جزاؤهم أن عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين** » (آل عمران : ٨٧) ، وأبلغ تعبـير عما تلقاه هـذه النفوس من العـذاب والشقاء ، يتمثل فى قوله تعالى : « **ولو أن لكل نفس ظلمت ، مافى الأرض ، لافتدت به ، وأسروا الندامة لما رأوا العذاب** » ، (يونس : ٥٤) .

٣ - ونلاحظ أيضا أن موقفه من قضية مصير النفوس وأحوالها فى عالم الخلود ، يتفق بدرجات كبيرة مع موقف كل من ابن سينا والغزالى فى هذا المجال . وهو ما يجعلنا نزعم أنه تأثر ببعض آرائهما وأفكارهما . فإذا كان قد أثبت مثلهما السعادة والشقاء النفسانيين ، وأرجع ذلك الى ما حصلته النفس فى الدنيا من الحكمة العلمية النظرية والحكمة العملية الخلقية ، فإنه لم يفصل القول فى درجات النفوس ومراتبها مثلما فصلا القول فيها ، واكتفى بالاشارة الى امكانية وجود هذه المراتب وتصورها على نحو كلى عام وأوضح الأساس الذى تقوم عليه مراتبها فى النعيم والسعادة ، أو العذاب والشقاء . ولعل السبب فى هذا ، هو أن العلم بدرجات النفوس ومراتبها فى العالم الآخر لا يخرج عن دائرة الظن أو الاحتمال الراجح ان وجد من النصوص الدينية والأدلة العقلية ما يرفع درجته . وعلى الرغم من أن العقل يستطيع أن يمدنا بتصور عام لهذه المراتب تتضح فيه بعض الفروق التى تميز بين النفوس السعيدة والنفوس الشقية ، بل وتميز بين مراتب النفوس السعيدة بعضها وبعض ، ومراتب النفوس الشقية بعضها وبعض ، على أساس العلم والاعتقاد والعمل ، فإن تفاصيل هذه الفروق وتحديد هذه الدرجات والمراتب تحديدا دقيقا قاطعا ، هو مما يتأبى على العقل .

٤ - فيما يخص القدر اللازم من العلم والمعرفة الذى به تحظى النفس بالسعادة الأخروية وتنأى عن درجة الشقاوة والعذاب ، فإن أبا البركات يتفق مع ابن سينا والغزالى فى القول بأن تحديد هذا القدر ليس أمرا ميسورا ، ولا يمكن النص عليه إلا على سبيل التقريب ، غير أنه أشار مثلهما الى أن هذا العلم يتمثل فى معرفة الانسان بموجودات عالم الطبيعة والارتقاء منها الى معرفة عالم ما وراء الطبيعة أو العالم العلوى وموجوداته من الملائكة ، وعلى قمتها معرفة الله من حيث وجوده ووحدانيته وصفاته وأفعاله . واذا كان هذا هو ما تهدف اليه الفلسفة ، فإن ذلك يخول لنا القول بأن أبا البركات يرى أن الفلسفة طريق يقينى محقق الى نيل السعادة فى عالم الخلود ، هذا الى جانب ما تحصله النفس من أخلاق فاضلة وأعمال صالحة مما وردت به الشريعة الاسلامية .

وقد أشار كل من ابن سينا والغزالى الى مثل ذلك • ونسوق هنا نصا مفصلا للغزالى يتابع فيه ابن سينا فى بيان هذا المعنى حيث يقول : « ... وأما أنه كم ينبغى أن يحصل عند نفس الانسان من تصور المعقولات ، حتى يجاوز به الحد الذى فى مثله تقع هذه الشقاوة ، فليس يمكننى أن أنص عليه نصا إلا بالتقريب • وأظن أن ذلك ، بأن يتصور نفس الانسان المبادىء المفارقة تصورا حقيقيا ، ويصدق بها تصديقا يقينيا لوجودها عنده بالبرهان • ويعرف العلل الغائية للأمور الواقعية فى الحركات الكلية دون الجزئية التى لا تتناهى ، ويتقرر عنده هيئة الكل ، ونسب أجزائه بعضها الى بعض ، والنظام الآخذ من المبدأ الأول الى أقصى الموجودات الواقعة فى ترتيبه • ويتصور العناية الشاملة للكل وكيفيتها ، ويتحقق أن الذات الحق الموجد للكل ، أى وجود يخصها وأى وحدة تخصها ، وأنها كيف تعرف ، حتى لا يلحقها تغير وتكثر بوجه من الوجوه ، وكيف ترتبت نسبة الوجود اليه جل وعلا • ثم كلما ازداد الناظر استبصارا ، ازداد للسعادة استعدادا »(٢١) •

---

(٢١) قارن ما ورد عند الغزالى فى « معارج القدس » ص ١٢٩ _ ١٣١ ، بما ورد عند ابن سينا فى « النجاة » ص ٢٩٤ _ ٢٩٦ ، وما ورد عند أبى البركات فى « المعتبر » ص ٢١٥ _ ٢١٧ •

فهرست المصادر والمراجع

اولا : أهم المصاد ر والمراجع العربية

ثانيا : اهم المصادر والمراجع الأجنبية

أولا : المصادر والمراجع العربية

القـــرآن الكـــريم

١ ـ ابن أبى أصيبعة : عيـون الأنبـــاء فى طبقات الأطبــــاء ، ط بيروت لسنة ١٩٦٥م ٠

٢ ـ ابن الأثـير : الكامل فى التاريخ ، جـ ٨ ، القاهرة لسنة ١٨٥٨م ٠

٣ ـ ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، جـ ٥ ، القاهرة لسنة ١٩٣٦م ٠

٤ ـ ابن تيميـــة : منهاج السنة النبوية ، جـ ١ تحقيق د٠ رشاد سالم ، القاهرة ١٩٧١م ٠

٥ ـ ابن تيميـــة : بيان موافقة صريح المعقول لصحيح المنقول ، القاهرة ١٩٥٣م ٠

٦ ـ ابن حـــزم : الفصل فى الملل والأهواء والنحل ، خمسة أجزاء فى مجلد واحد ، القاهرة ٠

٧ ـ ابن خـــلدون : المقـدمة ، القاهرة ، بدون تاريخ ٠

٨ ـ ابن رشد (ابو الوليد محمد) : فصل المقال ، ط ١ ، بيروت ١٩٦١م ٠

٩ ـ ابن رشد (أبو الوليد محمد) : تهافت التهافت ، ط ٢ ، القــاهرة ١٩٧١م ٠

١٠ ـ ابن رشد (أبو الوليد محمد) : الكشف عن مناهج الأدلة ، ط ٢ ، القاهرة ١٩٦٤م ٠

١١ ـ ابن ســـينا : الاشارات والتنبيهات ، جـ ٢ ، القسم الطبيعى ، جـ ٣ ما بعد الطبيعة ، تحقيق د٠ سليمان دنيا ، القاهرة ١٩٤٨م ٠

١٢ ـ ابن ســـينا : الشفاء ، الالهيات ، جـ ١ ، جـ ٢ ، القاهرة ١٩٦٠م ٠

١٣ ـ ابن ســـينا : النجـــاة ، ط ٢ ، القاهرة ١٩٣٨م ٠

١٤ ـ ابن ســـينا : التعليقات ، تحقيق د٠ عبد الرحمن بدوى ، القاهرة ١٩٧٣م ٠

١٥ ـ ابن ســـينا : تسع رسائل فى الحكمة والطبيعيات ، القاهرة ١٩٠٨م٠

١٦ ـ ابن ســـينا : رسالة أضحوية فى أمر المعاد ، تحقيق د٠ سليمان دنيا ، ط ١ ، القاهرة ١٩٤٩م ٠

١٧ ـ ابن القفطى : إخبار العلماء بأخبار الحكماء ، ١٣٢٦ هـ ٠

١٨ ـ ابن قيم الجوزية : شفاء العليل فى مسائل القضاء والقـدر والحكمة والتعليل ، القاهرة ٠

١٩ ـ ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٢ ، القاهرة ١٩٣٢م ٠

٢٠ ـ أبو ريدة (أ٠د٠ محمد عبدالهادى) : الكندى وفلسفته ، القاهرة ، ١٩٥٠م ٠

٢١ ـ أبو ريان (أ٠د٠ محمد على) : تاريخ الفكر الفلسفى فى الاسلام ، وبه فصل احتوى موجز آراء أبى البركات فى بعض مسائل الفلسفة الالهية ، الاسكندرية ١٩٨٠م ٠

٢٢ ـ أبو ريان (أ٠د٠ محمد على) : أصول الفلسفة الاشراقية ، ط ٢ ، بيروت ١٩٦٩م ٠

٢٣ ـ أبو سعده (د٠ محمد حسينى) : النفس وخلودها عند فخر الدين الرازى ، ط ١ القاهرة ١٩٨٩م ٠

٢٤ ـ أبو سعده (د٠ محمد حسينى) : الآثار السينوية فى مذهب الغزالى ، القاهرة ١٩٩١م ٠

٢٥ ـ أبو سعده (د٠ محمد حسينى) : حقيقة المعاد بين الدين والفلسفه ، القاهرة ١٩٩٠م ٠

٢٦ ـ أبو سعده (د٠ محمد حسينى) : المنهج النقدى عند الباقلانى ، القاهرة ١٩٩١م ٠

٢٧ ـ أبو الفدا : المختصر فى أخبار البشر ، ج ٢ ٠

٢٨ ـ إخوان الصفا : الرسائل ـ الرسالة الرابعة ، القاهرة ١٩٣٨م ٠

٢٩ ـ إخوان الصفا : رسالة جامعة الجامعة ، تحقيق عارف ناصر ، بيروت ، ١٩٥٩م ٠

٣٠ ـ أرنولد : الدعوة الى الاسلام ، ط ٣ ، الترجمة العربية ٠

٣١ ـ الأشعرى (أبو الحسن) : مقالات الاسلاميين ، ط ٢ ، القاهرة ١٩٦٩م

٣٢ ـ الأشعرى (أبو الحسن) : كتاب اللمع فى الرد على أهل الزيغ والبدع ، القاهرة ١٩٥٥م ٠

٣٣ ـ أفلاطون : فيدون ، ط ٢ ، تحقيق د٠ عزت قرنى ، القاهرة ١٩٧٩م

٣٤ ـ أفلوطين : أثولوجيا ـ ضمن كتاب « أفلوطين عند العرب » للدكتور عبدالرحمن بدوى ، ط ٢ ، القاهرة ١٩٦٦م ٠

٣٥ ـ أفلوطين : التساعية الرابعة (فى النفس) ، القاهرة ١٩٧٠م ٠

٣٦ ـ إقبال (محمد) : تجديد التفكير الدينى فى الاسلام ، ترجمة عباس محمود ، ط ٢ ، القاهرة ١٩٦٨م ٠

٣٧ — الآمدى (سيف الدين) : غاية المـــرام فى علم الكلام ، تحقيق حسن محمود ، القاهرة ١٩٧١م .

٣٨ — امين (أ. احمد) : ضحى الاسلام ، ج ١ ، ط ٥ ، القاهرة ١٩٦٢م .

٣٩ — امين (أ. احمد) : ظهر الاسلام ، ج ٤ ، ط ٢ ، القاهرة ١٩٦١م .

٤٠ — بارتـــولد : تاريخ الحضارة الاسلامية ، الترجمة العربية .

٤١ — بارتـــولد : تاريخ الترك فى آسيا الصغرى ، الترجمة العربية .

٤٢ — الباقلانى (أبو بكر) : الانصاف ، نشرة زاهد الكوثرى ، القاهرة ، ١٩٥٠م .

٤٣ — الباقلانى (أبو بكر) : التمهيد ، نشرة الاستاذين / محمود الخضيرى ومحمد عبدالهادى أبو ريدة ، القاهرة ، ١٩٤٧م .

٤٤ — بدوى (أ.د. عبدالرحمن) : مذاهب الاسلاميين ، ج ١ ، ط ١ بيروت ١٩٧٣م ، ج ٢ ، ط ٢ ، بيروت ، ١٩٧٩م .

٤٥ — بدوى (أ.د. عبدالرحمن) : أرسطو عند العرب ، ج ١ ، القاهرة ، ١٩٤٧م .

٤٦ — بدوى (أ.د. عبدالرحمن) أفلوطين عند العرب ، ط ٢ ، القـاهرة ، ١٩٦٦م .

٤٧ — بدوى (أ.د. عبدالرحمن) : الأفلاطونية المحدثة عند العرب (نشر وتحقيق)، ط ٢، القاهرة ١٩٧٧م .

٤٨ — برقلس : حجج برقلس فى قدم العالم ، ترجمة اســحق بن حنين ، ضمن كتاب « الأفلاطونية المحدثة عند العرب » ، وقد ذكر الشهرستانى فى كتابه « الملل والنحل » ج ٢ ، ثمان شبهات لبرقلس فى قدم العالم .

٤٩ — البغدادى (أبو البركات بن ملكا) : المعتبر فى الحكمة (٣ أجزاء) ، ط ١ ، حيدر آباد الدكن ج ١ ١٣٥٧ هـ ، ج ٢ ، ج ٣ — ١٣٤٨ هـ .

٥٠ — البغدادي (أبو الخير الحسن بن سوار) : مقالة فى أن دليـــل يحيى النحوى على حدث العالم أولى بالقبول من دليل المتكلمين أصلا . ملحق رقم ١ بكتاب « الأفلاطونية المحدثة عند العرب » .

٥١ — بينيس : مادة « أبو البركات » بدائرة المعارف الاســلامية ، ج ٦ ، طبعة دار الشعب بالقاهرة ، ترجمة الأب قنواتى .

٥٢ — البيهقى : تتمة صوان الحكمة ، طبعة شفيع .

٥٣ - التفتازاني (أ٠د٠ أبو الوفا) : علم الكلام وبعض مشكلاته ، القاهرة ، ١٩م ٠

٥٤ - التفتازاني (أ٠د٠ أبو الوفا) : دراسات في الفلسفة الاسلامية ، ط ١ القاهرة ١٩٥٧م ٠

٥٥ - التفتازاني (أ٠د٠ أبو الوفا) : الانسان والكون في الاسلام ، القاهرة ، ١٩٧٥م ٠

٥٦ - التفتازاني (أ٠د٠ أبو الوفا) : مدخل الى التصوف الاسلامي ، ط ٣ ، القاهرة ١٩٧٩م ٠

٥٧ - جار الله (زهدي حسن) : المعتزلة ، القاهرة ١٩٤٧م ٠

٥٨ الجرجاني (السيد الشريف) : التعريفات ، ط الحلبي ، القاهرة ، ١٩٣٨م ٠

٥٩ الجويني (أبو المعالي) : الشامل في أصول الدين ، تحقيق د٠ سامي النشار ، الاسكندرية ١٩٦٩م ٠

٦٠ الجويني (أبو المعالي) : الارشاد الى قواطع الأدلة ، تحقيق د٠ محمد يوسف موسى وآخرين ، القاهرة ١٩٥٠م

٦١ - حسنين (د٠ عبدالنعيم) : سلاجقة ايران والعراق ، ط ١ ، القاهرة ٠

٦٢ - الحموي (ياقوت) : معجم البلدان ، القاهرة ١٩٠٦م ٠

٦٣ - دنيا (أ٠د٠ سليمان) : الحقيقة في نظر الغزالي ، ط ٢ ، القاهرة ، ١٩١٧م ٠

٦٤ - دي فو (كارا) : ابن سينا ، ترجمة عادل زعيتر ، بيروت ١٩٧٠م ٠

٦٥ - دي بور : تاريخ الفلسفة في الاسلام ، ترجمة د٠ محمد أبو ريدة ، القاهرة ١٩٣٨م ٠

٦٦ - الرازي (فخر الدين) : الأربعون في أصول الدين ، ط حيدر آباد ، ١٩٣٥م ٠

٦٧ - الرازي (فخر الدين) : لباب الاشارات ، ط ٢ ، ١٣٥٥م ٠

٦٨ - الرازي (فخر الدين) : المباحث المشرقية ، جـ ١ ، جـ ٢ ، طهران ، ١٩٦٦م ٠

٦٩ - الرازي (فخر الدين) : محصل أفكار المتقدمين والمتأخرين ، القاهرة ٠

٧٠ - الرازى (فخر الدين) : مفاتيح الغيب (التفسير الكبير) بيروت ، ١٩٧٨م .

٧١ - الراوندى : راحة الصدور ، ترجمة د. ابراهيم الشواربى وآخرين . القاهرة ١٩٦٠م .

٧٢ - السبكى (تاج الدين) : طبقات الشافعية الكبرى ، جـ ٣ ، القاهرة . ١٩٠٦م .

٧٣ - السهروردى (شهاب الدين) : هياكل النور ، تحقيق أ.د. محمد أبو ريان ، ١٩٥٧م .

٧٤ - السيوطى (جلال الدين) : صون المنطق والكلام ، جـ ٢ ، القاهرة .

٧٥ - شرف (أ.د. محمد جلال) : المذهب الاشراقى بين الفلسفة والدين . ط ٢ ، القاهرة ١٩٧٢م .

٧٦ - الشهرستانى (محمد بن عبدالكريم) : الملل والنحل ، جـ ١، جـ ٢، جـ ٣ ، فى مجلد واحد ، القاهرة ١٩٦٨م .

٧٧ - الشهرستانى (محمد بن عبدالكريم) : نهاية الأقدام فى علم الكلام ، تحقيق ألفريد جيوم .

٧٨ - الشهرستانى (محمد بن عبدالكريم) : مصارعة الفلاسفة ، تحقيق د. سهير مختار ، القاهرة ١٩٧٦م .

٧٩ - صبحى (أ.د. احمد محمود) : فى علم الكلام ، جـ ١ ، الاسكندرية ، ١٩٧٨م .

٨٠ - صبحى (أ.د. احمد محمود) : الزيدية ، ط ٢ ، القاهرة ١٩٨٤م .

٨١ - صليبا (أ.د. جميل) : المعجم الفلسفى (مواد مختلفة) ، جـ ١ ، بيروت ١٩٧٨م ، جـ ٢ ، بيروت ١٩٧٩م .

٨٢ - عثمان (د. صبرى) : الفلسفة الطبيعية والالهية عند أبى البركات البغدادى . رسالة دكتوراه خطية بكلية الآداب جامعة القاهرة ١٩٨٢م .

٨٣ - العراقى (أ.د. محمد عاطف) : ثورة العقل فى الفلسفة العربية ، ط ٤ ، القاهرة ١٩٧٨م .

٨٤ - العراقى (أ.د. محمد عاطف) : تجديد فى المذاهب الفلسفية والكلامية ، ط ٤ ، القاهرة ١٩٧٩م .

٨٥ ـ **العراقي (أ٠د٠ محمد عاطف)** : مذاهب فلاسـفة المشرق ، ط ٧ ، القاهرة ١٩٨٣م ٠

٨٦ ـ **العراقي (أ٠د٠ محمد عاطف)** : المنهج النقدى فى فلسفة ابن رشد ، ط ١ ، القاهرة ١٩٨٠م ٠

٨٧ ـ **العراقي (أ٠د٠ محمد عاطف)** الفلسفة الطبيعية عند بن سينا ، ط ١ ، القاهرة ١٩٧١م ٠

٨٨ ـ **الغزالى (الامام أبو حامد)** : تهافت الفلاسفة ، تحقيق د٠ سليما دينا ، ط ٢ ، القاهرة ١٩٥٥م ٠

٨٩ ـ **الغزالى (الامام أبو حامد)** : المنقذ من الضـلال ، ط ٢ ، القـاهرة ،

٩٠ ـ **الغزالى (الامام أبو حامد)** : مشكاة الأنوار ، تحقيق د٠ أبو العـلا عفيفى ، القاهرة ١٩٦٤م ٠

٩١ ـ **الغزالى (الامام أبو حامد)** : معارج القدس ، القاهرة ، بدون تاريخ ٠

٩٢ ـ **الغزالى (الامام أبو حامد)** : معراج السالكين ، ضمن كتاب « القصور العوالى من رسائل الامام الغزالى » ج ٣ ، القاهرة ١٩٧٥م ٠

٩٣ ـ **الفارابى (أبو النصر)** : عيون المسائل ، القاهرة ١٩٠٧م ٠

٩٤ ـ **الفارابى (أبو نصر)** : فصوص الحكم ، نشرة ديتريصى ، ليـدن ، ١٩١٩م ٠

٩٥ ـ **الفارابى (أبو نصر)** : الجمع بين رأيبى الحكيمين ، تحقيق د٠ البير نصرى ، بيروت ١٩٦٠م ٠

٩٦ ـ **فرنر (شارل)** : الفلسفة اليونانية ، ترجمة تيسير شيخ الأرض ، بيروت ١٩٦٨م ٠

٩٧ ـ **الكندى (أبو يوسف يعقوب)** : رسالة في وحدانية الله وتناهي جرم العالم ، ضمن كتاب « رسائل الكندى الفلسفية » ج ١ ، تحقيق د٠ أبوريدة

٩٨ ـ **الكندى (أبو يوسف يعقوب)** : رسالة فى حدود الأشياء ورسومها ، ضمن الكتاب السابق ٠

٩٩ ـ **كوربان (هنرى)** : تاريخ الفلسفة الاسلامية ، ج ١ ترجمة نصـير مروة وزميله ، بيروت ١٩٦٦م ٠

١٠٠ ـ مدكور (أ٠د٠ ابراهيم بيومى) : فى الفلسفة الاسـلامية ـ منهج وتطبيقه ، ج ١ ، ط ٢ ١٩٦٨م ، ج ٢ ، ط ٢ ، القاهرة ١٩٧٦م ٠

١٠١ ـ موسى (أ٠د٠ محمد يوسف) : القرآن والفلسفة ، القاهرة ١٩٦٦م ٠

١٠٢ ـ الندوى (أ٠ سليمان) : دراسته بنهاية ج ٣ من كتاب « المعتبر فى الحكمة » لأبى البركات البغدادى ٠

١٠٣ ـ النشار (أ٠د٠ على سامى) : مناهج البحث عند مفـكرى الاسـلام ، ط ٢ ، القاهرة ١٩٦٧م ٠

١٠٤ ـ النشار (أ٠د٠ على سامى) : نشأة الفكر الفلسفى فى الاسلام ، ط ٢ ، القاهرة ١٩٥٤م ٠

١٠٥ ـ نصرى (د٠ البير) : فلسفة المعتزلة ، جزآن ٠

١٠٦ ـ الهمذانى (القاضى عبدالجبار) : المغنى فى أبواب التوحيد والعدل ، ج ٤ ، ج ٥ ، ج ٨ ٠

١٠٧ الهمذانى (القاضى عبدالجبار) : شرح الأصول الخمسة ، تحقيـق د٠ عبدالكريم العثمان ٠

١٠٨ ـ هويدى (أ٠د٠ يحيى) : دراسات فى علم الكلام والفلسفة الاسلامية ، القاهر ة ١٩٧٩م ٠

١٠٩ ـ ياقـوت : معجم الأدباء ، ج ١٩ ٠

ثانياً : المراجع الأجنبية :

1. Arberry : Aviceenna on theology, London, 1951.

2. Brown : Literary history of Persia, Vol. 1. London, 1906.

3. Corbin : Histore de la philosophic Islamique, 1948.

4. Leon Gauthier : Introduction à l'étude de la philosophique musulmane, Paris, 1934.

5. Macdonald : Development of Muslim Theology, Beiruth, 1965.

6. Madkour (I. B.) : La place d'Al farabi dans l'école philosophique Muslmane, Paris, 1934.

7. Okhman (A. L.) : The Concept of Man in Islam in the writings of Al-Gazali, 1960.

8. Sharif (M. M.) : A history of muslim philosophy, London, 1963.

9. Watt (M.) : Islamic philosophy and theology, Edinbera, 1962.

10. Watt (M.) : The Reality of God. London, 1957.

11. Whittaker (T.) : The Neo-platonists, 2 ed, Combridge, 1928.

12. Wolzer (R.) : Islamic philosophy, in a History of Philosophy Eestern and Western, ed., by Radha Krishnom, Vol. 11.

فهرســـت الموضــوعات

المقـــــدمة : آ - ح

الباب الأول : أبو البركات ومنهجه ١٥

الفصل الأول : أبو البركات في عصره ١٧

أولا : عصر أبي البركات ١٩

ثانيا : ســـيرته ٣٢

ثالثا : واقعــة إســلامه ٣٩

رابعا : آثاره ٤٤

الفصل الثاني : الاعتبار منهج أبي البركات ٤٩

أولا : مفهوم الاعتبار ودلالاته ٥٢

ثانيا : دعائم منهج الاعتبار ٥٦

ثالثا : خصائص المنهج وضوابطه ٦٦

الباب الثاني : وجود الله (واجب الوجود) ٧٥

الفصل الأول : إثبات وجود واجب الوجود ٧٧

أولا : أدلة أبي البركات على وجود الله ٧٩

١ - دليل الممكن والواجب ٨١

٢ - دليل العلية ٨٣

٣ - دليل العلم ٨٥

٤ - دليل النظام ٨٧

ثانيا : وحدانية الله (المبدأ الأول) ٨٩

الفصل الثاني : صفات الله (واجب الوجود) ٩٥

البعد الأول : الصفات الذاتية الايجابية ٩٧

البعد الثاني : التنزيه ١٠٢

البعد الثالث : العلم الالهي : ١٠٤

أولا : نقض مذهب أرسطو في العلم الالهي وحججه ١٠٥

ثانيا : نقد مذهب ابن سينا وأدلته عليه ١١١

ثالثا : مذهب أبي البركات في العلم الالهي ١١٧

البعد الرابع : رؤية الله (نور الأنوار) ١٢٢

تعقيـــب ١٢٩

الفصل الثالث : الغائية فى الفعل الالهى ١٣٥

أولا : الفعل الالهى فعل غائى ١٣٧

ثانيا : الله هو الغاية القصوى ١٤٢

الباب الثالث : وجـود العالم ١٤٥

الفصل الأول : نقد مذاهب السابقين فى وجود العالم ١٤٧

أولا : مذاهب وجود العالم حتى عصر أبى البركات ١٤٩

١ ــ خلق العالم فى القرآن الكريم ١٤٩

٢ ــ مذهب المتكلمين فى حدوث العالم ١٥٢

٣ ــ مذهب الفلاسفة فى قدم العالم ١٥٦

ثانيا : نقد مذهب القائلين بحدوث العالم ١٥٩

ثالثا : نقد مذهب القائلين بقدم العالم (نظرية الصدور) ١٦٨

الفصل الثانى : مذهب أبى البركات فى وجود العالم ١٧٥

أولا : العالم مخلوق قديم لله تعالى ١٧٧

ثانيا : الخلق وترتيب الموجودات ١٨٦

الباب الرابع : الخـــلود ١٩٥

الفصل الأول : وجود النفس الانسانية ١٩٧

أولا : تمهيـــــد ١٩٩

ثانيا : براهين أبى البركات على وجود النفس ٢٠٣

ثالثا : بواعثه الى هذه البرهنة ٢١١

رابعا : حـدوث النفس : ٢١٤

١ ــ نقد برهان ابن سينا على حدوث النفس ٢١٥

٢ ــ برهان أبى البركات على حدوثها ٢١٧

٣ ــ تعقيـــب ٢١٩

الفصل الثانى : خـــلود النفس ٢٢٣

أولا : تمهيـــد ٢٢٥
ثانيا : براهين أبي البركات على خلود النفس ٢٢٩
ثالثا : إثبات السعادة والشقاوة النفسانيين في عالم الخلود ٢٣٥
رابعا : مصير النفوس وأحوالها في عالم الخلود ٢٣٨
خامسا : تعقيـــب ...
فهرست المصادر والمراجع : ٢٤٧
أولا : أهم المصادر والمراجع العربية ٢٤٩
ثانيا : المراجع الأجنبية ٢٥٦
فهرست الموضـوعات : ٢٥٧ - ٢٦١

رقم الايداع : ٧٤٧٣ / ١٩٩٣
الترقيم الدولى
I.S.B.N : 977 — 00 — 5604 — 9

دار
أبوحريبة
للطباعة